وحي بغداد

صور وجدانية وأدبية واجتماعية

بقلم الدكتور

زكي مبارك

المفتش بوزارة المعارف

يطلب من المكتبة العصرية ببغداد

لصاحبها محمود حلمي

الطبعة الأولى: ١٣٥٧ هـ — ١٩٣٨ م

مطبعة الاستقامة بالقاهرة

شارع نوبار باشا ١٢

الاهداء

إلى الباحث الذى صوّر عصر النبوّة .
أبدع تصوير ، وجلاه أروع جلاء ،
وعطّر الأدب الحديث بأريج الدين الحنيف
إلى معالى الدكتور محمد حسين هيكل
باشا أهدى وحى بغداد ؟

زكى مبارك

مصر الجديدة فى { ١٠ رجب سنة ١٣٥٧
٥ أيلول سنة ١٩٣٨ }

مؤلفات زكى مبارك

(١) حب ابن أبى ربيعة وشعره (الطبعة الثالثة)
(٢) البدائع (الطبعة الثانية فى جزأين)
(٣) الأخلاق عند الغزالى
(٤) مدامع العشاق (الطبعة الثانية)
(٥) الموازنة بين الشعراء (الطبعة الثانية)
La Prose Arabe au Ive siécle de l' Hégire
(٧) ديوان زكى مبارك
(٨) ذكريات باريس
(٩) تحقيق نسب كتاب الأم
(١٠) شرح الرسالة العذراء (ومعه بحث مفصل بالفرنسية موضوعه
L' Art d' écrire chez les Arabes au IIIe siécle de l' Hégire
(١١) اللغة والدين والتقاليد
(١٢) النثر الفنى (فى مجلدين كبيرين)
(١٣) عبقرية الشريف الرضى (فى جزأين)
(١٤) المدائح النبوية فى الأدب العربى
(١٥) التصوف الإسلامى (فى مجلدين كبيرين)
(١٦) وحى بغداد

فاتحة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين .

أما بعد فقد كتب الله تباركت أسماؤه أن يجعلني من الموفين بالعهد : فأخرجت كتاب «ذكريات باريس» تحية لمدينة النور التى اتصلت بها نحو خمس سنين ، واليوم أخرج كتاب «وحى بغداد» تحية لمدينة الرشيد التى اتصلت بها نحو تسعة أشهر قضيتها فى يقظة عقلية أوحت إلى قلبى ألوف الصفحات

وكنت نظرت فرأيت كتاب «ذكريات باريس» أوحى إلى فريق من الكتاب أن ينشئوا المؤلفات عن العواصم الغربية أمثال باريس ولندن وبرلين ، وأما اليوم أرجو أن يكون كتاب «وحى بغداد» سنّة حسنة لمن يعيشون فى العواصم الشرقية عساهم يحببون العرب والمسلمين فى بلادهم بما يبتكرون من شائق الوصف وروائع الخيال .

وقد عجب ناس من وفائى لأهل العراق واهتمامى بتسجيل ما لهم من محامد ومناقب ، وكنت أستطيع أن أقول إنى عشت فى العراق معلما ، ومن واجب المعلم أن يبرز المحاسن ليقوى الروح المعنوى

فى تلاميذه ويسوقهم إلى ميادين الجهاد ، كنت أستطيع أن أقول ذلك ، ولكنى فى الواقع لم أر من أهل العراق غير الشهامة والنبل والوفاء ، ويسرنى ويشرح صدرى أن أقول كلمة الحق فى تحية من يعيشون فى أنس بزهرات بغداد ونخلات البصرة وسمكات الفرات

وسيأتى يوم يعذرنى فيه من اتهمونى بالإسراف فى حب البلاد التى عرفت بكاء الحمائم وظلام الليل

سيعرف إخوانى فى مصر أنى بنيت لهم صرحا من الوداد فى وطن نبيل هو العراق

سيعرف إخوانى أن غيرتى على سمعة العراق ستضاف إلى المحامد المصرية ، وسيقول المنصفون إن المصرى حين يغترب لا ترى عينه غير الجميل من شمائل الرجال

وهل كنت أملك أن أذكر العراقيين بغير الثناء ؟ لقد نُظِمَتْ فى تكريمى هناك قصائد وخطب ومقالات لو جُمِعَتْ لكانت مادة كريمة لكتاب نفيس ، فبأى وجه ألقى الله إذا ذكرت العراق بغير الجميل ؟

كنت أعرف أن أيامى قصيرة فى العراق فتجشمت ما تجشمت لأزور أشهر الحواضر العراقية ، فكانت فرصة عرفت فيها كيف يلتاع من يفارق حواضر العراق ؟

ياليت ماء الفرات يخبرنا   أين استقلت بأهلها السفنُ

ولا يعلم إلا الله كيف رحلت عن البصرة والحلة والنجف الموصل وكركوك وكربلاء

لا يعلم إلا الله كيف أخفيت يوم الفراق عن أصدقائى فى بغداد

لا يعلم إلا الله كيف أخفيت نيتى عن تلاميذى فلم أخبرهم أن التسليم عليهم يوم الرحيل هو آخر العهد

لا يعلم إلا الله كيف انخلع قلبى وأنا أنظر إلى دار المعلمين العالية آخر نظرة ، وألقى عليها آخر سلام

وإذا كانت شواغلى بمصر قضت بأن أعتذر عن المضىّ فى خدمة تلاميذى بالعراق فسأتعزى عن فراقهم كلما تذكرت أنى أوقدت فى صدورهم جذوة لن تخمد أبداً ، وسيصيرون بإذن الله من أشرف خدام العراق

والعهد بينى وبينهم أن نقضى العمر كله أوفياء للحق والواجب، وأن لا نرى المغانم فى غير طهارة الضمائر وسلامة القلوب

* * *

هذا كتاب أوحته بغداد ، وفيه ما فى جوّ بغداد من طغيان الرفق والعنف ، وصولة العقل والفتون

هو كتاب سُيرقَم على وجه الدهر وجبين الزمان

هو كتاب سيسعد به قوم ويشقى به آخرون

ولكنه سيظل أثيراً لدى بغداد ، لأنه من وحى بغداد

محمد زكى عبد السلام مبارك

من جحيم الظلم في القاهرة

إلى سعيرِ الوجدِ في بغداد[1]

وَفدتُ على بغدادَ والقلبُ مُوجَعٌ — فهل فرّجتْ كربي وهل أبرأتْ دائي
تركتُ الخطوبَ السودَ في مصرَ فانبرتْ — سهامُ العيونِ السودِ تَصدعُ أحشائي
تركتُ دُخانًا لو أردتُ دفعتُه — بعزمةِ مفتولِ الذراعين مضّاء
وجئتُ إلى نارٍ ستشوي جوانحي — وتَصهرُ أضلاعي وتسحقُ أحنائي
فياويحَ قلبي عضّه الدهرُ فاكتوى — بلفحةِ قتّالَين جَورٍ وإصباء

* * *

سمعتُ حَماماتٍ ينُحنَ فَعزّني — حنيني إلى صحبٍ بمصرَ أشِحّاء
هُمُ أسلَموني لا عفا الحبُّ عنهمُ — إلى ليلةٍ من غمرةِ الحزن ليلاء
أُنادِمُهم بالوهمِ والقلبُ عارفٌ — بأني لدى كأسٍ من الدمعِ حمراء
شربتُ الأسى صِرفًا فثارتْ مدامعي — تُذيعُ حديثي في الغرامِ وأنبائي
أنا الطائرُ المجروحُ يرميه بؤسُه — لشقوتِه ما بين نارٍ ورمضاء

---

(1) ألقيت هذه القصيدة في نادي القلم العراقي يوم اجتمع بالرستمية

فإن عشتُ آذتني جُروحي وإن أمتْ ... شَوَتْنيَ في الأرواح نيرانُ بأسائي

* * *

أحبّايَ في مصرٍ تعالَوْا فإنني ... أودّعُ في بغدادَ أُنسي وسرّائي

تعالَوْا أعينوني على السُّهد والضَّنَى ... فلم يَبْقَ مني غيرُ أطياف أشلاء

تعالوا أُحدّثْكم ففي القلب لَوْعةٌ ... هي الجاحمُ المشبوبُ في جوفِ قصباء

تعالَوْا تَرَوْا بغدادَ أغرتْ بمهجتي ... نُيوبَ المنايا في صَباحي وإمسائي

أحبّايَ في مصرٍ، وهَلْ لي أحبّةٌ؟ ... أحباي في مصر تعالَوْا أحبائي

تعالَوْا إلى بغدادَ تَلْقَوْا أخاكُمُ ... صريعَ خُطوبٍ يَنْتَحين وأرزاء

تعالَوْا ترَوْني في صروفٍ من الجوى ... تُهدِّمُ بُنْياني وتنقُضُ حَوْبائي

* * *

عفا الحبّ عن بغدادَ كَمْ عِشتُ لاهياً ... أكاثرُ أيامي بليلَى وظمياء

فكيف وقعتُ اليومَ في أسْرِ طِفلةٍ ... مكحّلةٍ بالسحر ملثوغةِ الراء

أصاولُ عينيها بعيْنيّ والهوى ... يُشيعُ الحُميّا في فؤادي وأعضائي

وأشهدُ أطيافَ الفراديس إن بدتْ ... تراوِدُ أحلامي مِزاحاً وأهوائي

وألمس نيرانَ الجحيم إذا مضتْ ... تَرُومُ بعينِ الجِدّ بُعدي وإقصائي

أكاتمُ أهليها هُيامي ولو دَرَوْا ... لهامت بجنب الشط أرواحُ أصدائي

إلى الحب أشكوها فقد ضاق مذهبي ... وأخلفني بعد الفراق أعزائي

إلى الحب أشكوها فلولاهُ لم أبتْ حليفَ همومٍ يصطرعْن وأنواء
إلى الحب أشكو، بل إلى الله وحدَهُ أفوّض بأسائى لديها ونعمائى

* * *

أرباهُ أنقذنى فأنت رميتنى بقلبٍ على عهد الأحباء بكّاء
أرباهُ لا تفعلْ فإنى أرى الهوى على وَقْدِهِ بالقلب أنفاسَ رَوْحاء
أُحِبُّ سعيرَ الوجد فارمِ حُشاشتى على جمراتٍ منه حمقاء هوجاء
أُحب شقائى فى الغرام وإنهُ لأَرْوَحُ من مطلولة الزّهر شجْراء
فيا خالق النار العَصُوف وشائقى إليها أدِمْ فيها لواعج إصلائى
أحبك يا ربى فهل أنت شافعى إلى سرحةٍ فى شطّ دجلةَ زهراء
شهدت فنائى فيك حين رأيتها تحاول إضلالى وتنشُدُ إفنائى
ومَن أنت يا ربى ؟ أجبنى فإننى رأيتك بين الحسن والزهر والماء
أنا الفاتنُ المفتونُ فارحم بليّتى وقدّر بأرجاءِ الفراديس إثوائى
ولا تخْلِنى فى جنة الخُلد من هوى برُعبوبةٍ لا تعرفُ الرفقَ حمقاءِ
أُحبُّ المِلاح الهُوجَ فى الخُلد نفسهِ عسانى بدار الخلد أهجرُ إغفائى
تباركتَ ما الجناتُ من دون لوعةٍ سوَى بقْعةٍ فى غابة الموت جرْداء
يحب ضعيف الروح فى الخلد أُنسَهُ إلى غادةٍ مأمونة الغيب بلهاء

وأنْشدُ فى الجناتِ إن ذُقتَ راحَها   مَلاعبَ من طَيْشٍ وفَتْكٍ وإغواء

* * *

أضاليلُ يُزجيها خيالى وأنْثَنى   إلى ساحةٍ مطموسة الأُسِ قَفْراء

لقد كنتُ فى مصر شقيًّا فما الذى   ستَجْنين يابغدادُ من وَصْل إشقائى

أهذا جزائى فى العراق وحُبِّهِ   أهذا جزائى فى رَوَاحى وإسرائى

أَخِلّاىَ ما بغدادُ راحى وإن دَرَتْ   قلوبُ صَبَايَاها مَدارجَ إصبائى

أخلّاىَ رُدُّونى إلى مِصرَ إننى   أرى الظلمَ دونَ الوجد تسعير لأْواء

* * *

سَقَى الغيثُ أيامى بحلوانَ وارتوتْ   مَلاعب أحلامى هناك وأهوائى

فما غدرَتْ بى فى حماها نَسائمٌ   سقاها ربيعُ الحبِّ أكوابَ أنْداء

ولله عهدٌ بالزمالك لم يكنْ   سِوَى لمحاتٍ يَزْدَهِينَ وأضواء

هصرْتُ به غُصناً نضيراً تفتحتْ   أزاهيرُهُ فى ظِل خضراءَ لفاءِ

وأين على مصرَ الجديدةِ مَوْرِدى   وأين سُهادى فى حماها وإغفائى

أطايبُ ذقناها ولم نَدْر أنها   لنُدْرَتِها فى الدَّهر أزهارُ صَحْراء

* * *

أحبَّاىَ فى مصرَ الجديدةِ سارعُوا   فقد صَرَّعتْنى حول دجلة أدوائى

أجِدّكُمُ هل تعلمون بأنني ... وإن كنت جار الشط أشرب أظمائى
خذونى إليكم يا رفاقى فإننى ... أُحاذِرُ فى بغدادَ حَتْفِى وإصمائى
أخاف العيونَ السُّودَ فليرحم الهوى ... فجيعةَ أهلى يوم أقضى وأبنائى
أنادمُ أحبابى ، وفى الحق أننى ... لهول الذى ألقى أُصاولُ أعدائى

* * *

أدِجلةُ ما بينى وبينك ؟ أنصِحى ... فقد طال فى مغناك تبريح إضنائى
وردتك استشفى فثارت بليَّتِى ... وأرمضنِى حُزنى وأضرعنى دائى
وَرَدْتُك أشكو النيل يطغى جُحودُهُ ... فأين سلامى فى حماك وإشكائى
سقى وِرْدُكِ المعسولُ غيرى ولم أجِدْ ... لهول بلائى غير أو شاب أقذاء
أطال أُناسٌ فيك نجوى نعيمهم ... وفى شطك المورودِ ناجيت بأسائى
أدجلة أين الحب ؟ قولى فإننى ... تقلبت فى نارين حقد وبغضاءِ
أدجلة أين النور ؟ قولى فإننى ... على الشط أستهدى دياجير ظلمائى
أدجلةُ أبلانى اغترابى وشفَّنى ... هُيامى بظلمى فى بلادى وإشقائى
أدجُلة أنت النيل بغياً وكُدْرَةً ... فكيف من النارين تسلم أحشائى
أدجلة ساقتنى إليك مَقادرٌ ... تأنقن فى كيدى وأبدعن إيذائى
أدجلة واسينى فللضيف حقه ... إذا شئت من زادٍ وحبٍّ وصهباء

طغى موجك الصخاب فاهتاج لوعتى　　وأيقظ أشجانى وبلبل أهوائى

* * *

وقفتُ أبثُّ الجسر ما بى فلم أكنْ　　سوى نافثٍ فى أُذن رَقْطاءَ صمَّاء

وقفتُ أُرجّيه ولم أدرِ أننى　　أُسطِّر أحلامى على ثبَجَ الماء

إلى أين هذا التِّبْرُ يجرى وحولهُ　　حرائقُ من أرضٍ على الريِّ جَدْباء

أَرَقْتُ دموعى فى ثراها فما ارتوت　　وهل كان دمعى غير أطيافِ أنداء

شَوَتْنِى الخطوب السُّودُ شيًّا فلم تدع　　لمعتسِفٍ حُلْمًا إذا رام إبكائى

أجبنىَ يا صَوب الغوادى فإننى　　على علتى فى الدهر أُساة أدواء

تحدّرتَ مختالاً فلم تُغنِ أُمّةً　　تشهّى لطول الجدب أوشال أنهاء

بكى حولك الماضون دهراً فهل رأَوْا　　لدى موجك الصخّاب لحظة إصغاء

تَشَكّى العراقُ الجَدْبَ وارتعتُ أبتغى　　نصيبى فلم أظفر لديك بإرواء

أعِندكَ يا صَوْبَ الغوادى تحيةٌ　　لناسٍ على شَطّيْكَ ذاوينَ أنضاءِ

تروح إلى البحر الأُجاج سفاهةً　　على شوق أهلٍ فى العراقِ أوِدّاء

أبوك السحاب الجَوْدُ يرتاح جُودهُ　　إلى كل أرضٍ فى العراقين ميْثاء

فممّنْ أخذت البخل يا جار فتية　　هم الجعفر المنساب فى جوف بطحاء

شكا الزهر فى شطيك فاخجل ونجّه　　من الظمأ الباغى ومن حية الماء

جريتَ بلا وعى إلى غـــير غاية   مُحَجَّلة بين المصـــاير غراء

فدعنى أُطِل فيك الملام فلم أكن   سوى شاعرٍ للحمد واللوم وشّاء

أأنت الذى يجفو الظِّماء لينضوى   إلى لُجَّة فى باحةِ البحرِ هوجاء

أأنت الذى يسقى البحار وحولَهُ   أزاهير فى سهلٍ يُفدّيه مِظْمَاء

وقفنا على شطيك نشكو أُوامنا   على نبرات الدف والعود والناء

فأين العطاءُ الجَزْلُ يا فَيْضَ مُزْنَةٍ   مُحَمَّلةٍ بالخـــير والشر كَفْاء

عشقت شقائى فيك للحبِّ إننى   أحبُّ شقائى فى رحاب أحبّائى

***

أبغدادُ هل تَدرين أنّى مودِّعٌ   وأن سَمُومَ البين تلفح أحشائى

وردُتك مُلتاعاً أصارع فى الهوى   دموع رفاقٍ وامتِنَانَ أخلّاء

تنادَوا إلى باب الحديدِ فودَّعُوا   بقايا فؤادٍ وافرِ العطف وضّاء

وفيهم خَتُولٌ لو أراد لَرَدّنى   إلى روضة من يانع الأنس غنّاء

تقدم يستهدى العناق فلم يجد   سوى صخرةٍ مكتومة السِّرِّ خرساء

وعاد يروض العَتْب أحلام قلبهِ   على خُطة من شائك الهجر عوجاء

وردتك مطعوناً تثور جروحهُ   فكان بنوك الأكرمون أطباءْ

لحبك يا بغداد والحب أهوج   رأيت فنائى فيك مَشرق إحياء

تناسيتُ فى مصرَ الجديدةِ صِبْيةً ... هم الزهَرُ الظمآن فى جوف بيداء
يناجون فى الأحلام أطياف والدٍ ... لعهـد بنيـه والبُنَيّات نسّاءِ

* * *

أبغدادُ هذا آخرُ العهد فاذكرى ... مدامعَ مفطورٍ على الحبِّ بَكّاء
أبغدادُ يضنينى فراقك فاذكرى ... لدى ذمة التاريخ بينى وإضنائى
خلعت على الدنيا جمالكِ فانثنت ... تخايَلُ فى طِيبٍ وَحُسْنٍ وَلألاءِ
سيذكرنى قومٌ لديك عهدتهم ... يحبُّون ظلّامينَ ضُرّى وإيذائى
سيُمسى خصومى بعد حينٍ أحبةً ... يذيعون مشكورينَ أطيب أنبائى
ستذكُر أرجاءُ الفراتين شاعراً ... تفجّر عن مكنونة الدر عصماء
سيسأل قومٌ مَن زكىٌّ مباركٌ ... وجسمىَ مدفونٌ بصحراء صماء
فإن سألوا عنى ففى مِصْرَ مرقدى ... وفوق ثرى بغداد تمرح أهوائى
ستذكرنى غيد ملاحٌ أوانس ... أطلنَ بلائى فى الغرام وإشقائى
ستذكرنى مصر وما كان قلبها ... سوى صخرةٍ فى جانب النيل مَلْساء
إلى الله أشكو لؤم دهرى وصَرْفَه ... وعند الإلَه البَرِّ أُودِع حوبائى

مداعبة الدكتور زكى مبارك[1]

وقفت أحيّ معشرى وبنى ودّى ... وفاءً بعهدى أو نزولاً على وعدى

وقفت أحيّ عصبة عربيـــة ... بها نستبين الرشد حقاً ونستهدى

فأهلا بكم فى روضة الحب والصفا ... وأهلا بكم عند المسرة أو عندى

وهيّجنى فى « الرستمية » شـاعرٌ ... به مثل ما بى من أنينٍ ومن سُهد

به من هوى ليلى رسيسٌ من الهوى ... وبى لهبٌ لا ينطفى من هوى هند

أماناً لهـا من داءِ وجدى فإننى ... أخاف عليها أن داء الهوى يعدى

وذكرنى عهد الصبا فى نشيدهِ ... سلام على عهد الصبا فى رُبا نجد

هواه على أجرافَ دجلة وافدٌ ... وأما هوى قلبى فللنيل والوفد

فلا تحسبوه شارد الذهن وحده ... ولا تحسبونى سادراً فى الهوى وحدى

شهيدان : هذا للترائب عينهُ ... وآخر مطلول الوريد على الزند

قتيلان إما من لقاءٍ مفاجئٍ ... أتيح وإما من لقاءٍ على وعد

فإما قتيل من جنى الشهد يشتكى ... وإما صريع يشتكى من جنى الورد

صريعَ الغوانى لا تلمنى فإننى ... صريع أغانى أم كلثوم لا دعد

سلام على تلك الأغاريد إنهـا ... أغاريد من وحى الصبابة والوجد

باقر الشبيبى

---

(١) ألقيت بنادى القلم العراقى حين اجتمع بالزوية ، وكان النادى اقترح على الأستاذ باقر الشبيبى أن ينظم قصيدة فى معارضة القصيدة السالفة

بغـداد :

كما تصورتها وكما رأيتها

قبل الرحيل إلى بغداد بأيام أوصانى صديق عزيز لعله الدكتور طه حسين فقال : ستقدم بغداد وأنت كاتب معروف فيقبل عليك الصحفيون فيسألونك كيف رأيت بغداد ، فإن فعلوا فاحذر يادكتور زكى أن تصرح بشىء ، لأنك موظف فى حكومتين ، ومركزك دقيق .

وقد صح ما توقع ذلك الصديق ، وكنت عند نصحه الثمين ، فلم يظفر منى الصحفيون العراقيون بشىء غير التلطف المقبول . ولكن محرر الهلال سيظفر بما لم يظفر به الصحفيون العراقيون ، لأن بعد الدار لم يصرفه عنى ، فكتب يسألنى كيف تصورت بغداد وكيف رأيت بغداد ، وللهلال على قلبى حقوق ، فلأتوكل على الله ، ولأخرج مرة واحدة على ذلك المركز الدقيق .

على أننى لا أتوقع أن يغضب العراقيون من بعض ماسيقع فى هذا الحديث ، لأن الصدق لا يغضب عقلاء الرجال ، وإنما يغضبون من التحامل البغيض الذى تمليه الضغائن أو الأهواء .

وليس من الإسراف أن أصرح بأنى لست من الغرباء ، فى بغداد. فأنا أغار عليها كما أغار على القاهرة أو الاسكندرية أو سنتريس ، لأنها فى قلبى وفى نفسى من الحواضر العربية التى يغار عليها العرب والمسلمون فى جميع الممالك والشعوب ، وفى نيتى - وأنا صادق - أن أجاهد فى سبيل بغداد حتى تبلغ ما هى أهل له من الحضارة والعمران ، وتحمل مصابيح الثقافة كما كانت فى عهود الخلفاء ، ولن أترك هذه المدينة حتى أضع فى صدور تلاميذى وأصدقائى بذور الشوق إلى الحياة العالية ، حياة المدنية الصحيحة التى تعشق الأنوار وتبغض الظلمات ، فلا يبقى فى بغداد شارع ولا بيت إلا وحوله ملائكة أطهار يسمون به إلى مناط الجوزاء ، والله بالتوفيق كفيل .

***

أما بعد فقد كنت أفهم جيداً أن بغداد أدت واجبها بعنف يوم شاء لها الطالع السعيد أن تسيطر على المشرقين والمغربين ، وكنت أفهم جيداً أنها فى غفوة الراحة بعد ذلك النضال العنيف ، فلم يكن يخطر ببالى أن أراها كالقاهرة أو باريس ، ولكنى مع ذلك كنت أنتظر أن أجد آثار المدنية التى أقامها العباسيون ، وهنا أصرح والأسى ملء الفؤاد أن آثار الغطاريف من بنى العباس لم يبق منها إلا رسوم ضئيلة هى فى مغازيها ظنون فى ظنون ، وكذلك قضت المقادير بأن

لا يبقى شيء من قصور الخلفاء والوزراء والأمراء الذين سيطروا على العالم نحو ثلاثة قرون ، وكانت أيامهم مواسم الدنيا وأعياد الزمان

وقد سألت عن السبب فى ضياع تلك الآثار فحدثونى أن نهر دجلة الغادر الصوال كان يطغى من حين إلى حين فيطمس ما يشاء من القصور والبساتين ، وقد شاء له عدوانه أن ينقل بغداد من مكان إلى مكان فهى اليوم فى بقعة غير البقعة التى اختارها المنصور على أيامه السلام فإن شئتم وصف بغداد القديمة فارجعوا إليها فى الكتب ، فقد كان المؤلفون القدماء يدركون بغير وعى صريح أن مدينتهم سيأتى عليها يوم لا يعرفها فيه غير قراء الأخبار والأساطير .

وكنت أتصور أن بغداد لا تزال فيها بقايا من تقاليد الزخرف البراق الذى عرفه الخلفاء ، فوجدتها مدينة لا تعرف غير خشونة الحقائق ، ورأيت الوزراء مجتمعين فى قصر ساذج لا يعرف معنى للتصاوير والتهاويل التى تعرفها بعض القصور فى بعض الحكومات ؛ وقد دهشت حين زرت وزير المعارف ، وكان أول من رأيت من الرجال يوم وصلت إلى بغداد ، فقد رأيتنى أمام وزير المعارف فقط أمام المنطق والعقل ، ولم أر فى غرفته شيئا يدل على ذوق الترف فى فهم المعاش ، وكذلك كان الحال حين زرت رئيس الوزراء ، فقد رأيتنى أواجه رجلا يمثل أدب النفس ، وذلك كل حلاه وهو رئيس الوزراء .

وكذلك يمكن الحكم بأن دور الحكومة فى بغداد هى مواطن أعمال لا مواطن استقبال .

كنت أتصور بغداد قد تأثرت بالمدنية الحديثة فأصبحت كالقاهرة فيها حىّ قديم وحىّ جديد ، فلما وقعت عينى عليها رأيتها مدينة شرقية من جميع النواحى ، ورأيتها لم تأخذ من المدنية الحديثة غير الإضاءة وتوزيع الماء على البيوت ، وفيما عدا ذلك تعيش بغداد عيشة القاهرة قبل جيلين ، فتجد فيها الأسواق والخانات على نحو ما كانت القاهرة فى عهد المماليك . والشبه كبير جداً بين سوق الفحامين فى القاهرة وسوق الشورجة فى بغداد . ولا أكتم القارئ أن بغداد تفتننى من هذه الناحية أشد الفتون ، ففى أسواقها ملهاة للنظر والذوق ، وفى خاناتها تذكير بأحاديث «ألف ليلة وليلة» وفى مساجدها العتيقة ما يذكر بدعابات أبى الفتح فى مقامات بديع الزمان .

وقد ثارت نفسى ثورة عنيفة يوم رأيت بغداد ، وهممت بأن أقترح على رئيس الحكومة العراقية هدم هذه المدينة وبناءها من جديد ، ولكن لم تمض أيام حتى رأيت التطور يأخذ مجراه ، فقد شرع الناس فى الهجرة إلى الضواحى وأخذوا يشيدون منازل جديدة على الطراز الحديث ، فإن زرتم بغداد بعد عشرين عاما فسترونها كالقاهرة تنقسم إلى قسمين عظيمين : قسم جديد وقسم حديث .

على أنى أصبحت أتمنى أن لا تبيد بغداد القديمة ، فلأسواقها

جاذبية ، ولدروبها الضيقة ملامح من الحسن الأصيل ، وهى فوق ذلك صورة من المدنية الشرقيـة التى يحرص عليها أستاذنا الدكتور منصور فهمى أشد الحرص ، ويتمنى لو يعود إليها الشرقيون أجمعون !

وكنت أتصور دجلة نهراً صغيراً لم يأخذ عظمتـه إلا بفضـل أخيلة الشعراء ، فلما رأيته أخذت منى الروعة كل مأخذ ، وتمنيت لو جاء شعراء مصر فرأوه وعرفوا أن فى الدنيا نهراً يشابه نهر النيل . إن دجلة نهر هائل جداً ، وهو حين يساير بغداد يقرب من النيل فى الاتساع ، ولا يمتاز عليـه النيل إلا بمزية واحدة هى قوة تدفق المـاء ، أما دجلة فله مزايا كثيرة أظهرها قيام النخيل على جانبيه ، وحرص أهل بغداد على إقامة المنازل والشرفات بحيث تواجه منظره الجميل .

وقد بحثت عن الجسر الذى قال فيه ابن الجهم :

عيونـــ المها بين الرصافة والجسر
جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى
أعدن لى الشوق القديم ولم أكـن
سلوت ولـكن زدنـــ جمراً إلى جمر

بحثت عن هذا الجسر ، ولم أجده ، فوا أسفاه ، وإنمـا وجدت جسراً سموه جسر مود (Maude) وهو اسم قائد من قواد الإنجليز الذين دخلوا بغداد فاتحين .

فيا رئيس حكومة العراق تفضل وسمّ الجسر الجديد (جسر ابن الجهم) مراعاة لخواطر الشعراء

وهدوء الماء فى نهر دجلة يجعله من أصلح الأنهار للملاحة النهرية ، ولكنى بعد الدرس رأيت الملاحة فى دجلة تنعدم أو تكاد ، فقد تمرّ ساعات وساعات ولا تقع العين على سفينة واحدة فى ذلك النهر الميمون الغدوات والروحات . أما الفلك الصغيرة التى يمتطيها اللاهون والعابثون فلا تزال على العهد الذى عرفه الشاعر المفضال أبو نواس ، ولكن قلما يغنى فيها الملاحون كما كانوا يفعلون فى الأيام الخوالى ، وقد ساهرت النجم ليلتين على شاطئ دجلة لأسمع غناء الملاحين ، ثم انصرفت وقد كادت أذنى تصم من سكون الليل .

وحملنى حب الدنيا على التفكير فى بناء بيت على شاطئ دجلة فعرفت أن المتر المربع يباع بنحو دينارين ، وكذلك عرفت أن أهل بغداد يعرفون قيمة الأرض على شاطئ ذلك النهر الجميل .

* * *

وكنت أنتظر أن تكون بغداد مدينة يغلب عليها اللهو واللعب والمجون ، فرأيتها أعجوبة الأعاجيب فى الجد والنشاط ، ولقد زرت نحو عشرين مدينة من المدن العالمية فلم أر من صور الجد والاهتمام والمصابرة معشار ما رأيت فى بغداد ، فحيثما نظرت رأيت ناساً

يعدون إلى أعمالهم عدو الظليم ، وشهدت الناس يغدون ويروحون وعلى وجوههم أمارات الجد الرزين . والمدارس فى بغداد هى اليوم مصانع لسبك الرجال ، ويندر أن تجد شاباً يضيع وقته على نحو ما ترى فى بعض مدارس القاهرة أو مدارس باريس .

والبغداديون يمتلكون مدينتهم تمام الامتلاك ، فهم السادة الأعلون، ولا يسود فى مدينتهم من الأجانب إلا عدد قليل، وسيكون من حظهم فى المستقبل أن يقولوا نحن حضرنا مدينتنا ولم يساعدنا على تحضيرها واغل من العالم القديم أو العالم الجديد .

ولقد شهدت آثار هذا الجدّ حين رأيت تلاميذى فى دار المعلمين العالية ، فهم شبان أذكياء تكفيهم اللمحة ، ولا أحتاج فى تفهيمهم أدق المشكلات إلى أدنى عناء .

وكذلك يحدثنى الأساتذة المصريون الذين يدرسون فى كلية الحقوق فهم يشهدون بأن تلاميذهم فوق ما كانوا ينتظرون ، وأنهم يفهمون أدق المشكلات بقليل من البيان .

وكنت أنتظر أن تكون بغداد ميدانا للجدل والصيال على نحو ما كانت فى عهود المتكلمين ، فكانت كما انتظرت ، فهى اليوم تزخر بالأدباء والمفكرين الذين يملأون الأسمار بأجود ما تجود به العقول، ويكفى أن يكون فيها رضا الشبيبى وزير المعارف ، وطه الراوى مدير التعليم ، فهذان الرجلان يصوران ما امتازت به العقلية العراقية

فى قديم الزمان .

وأشهد صادقا أنى ما صادفت رجلا من المفكرين فى بغداد إلا انتفعت منه أجزل انتفاع ، ولا رأيت كاتبا ولا عالما إلا تذكرت الجاحظ وابن العميد .

وليت أدباء القاهرة يعرفون أن مؤلفاتهم تقرأ فى بغداد ، وليت أصحاب المجلات فى القاهرة يعرفون أن لهم قراء فى العراق ، فلو عرف زملاؤنا فى مصر شيئا من ذلك لحاسبوا أنفسهم بعض الحساب ، ففى العراق موازين يعرف بها النقصان والرجحان ، وفى العراق رجال يميزون بين الطيب والخبيث والغث والسمين ، وأدباء مصر لهم فى العراق خصوم وأنصار لا يخفى عنهم الحق ولا تجوز عليهم الأباطيل .

* * *

وكنت أتصور بغداد مدينة أثر فيها الاحتلال ، احتلال الترك أو احتلال الانجليز ، فوجدتها مدينة عربية فى كل شىء ، ولا تغلب فيها لغة الترك ولا لغة الانجليز ، فالعراق من هذه الناحية يشبه مصر ، فهو يبتلع كل شىء ، ولا يؤثر فيه شىء ، ولعل لماضيه أثراً فى ذلك ، فهو لا يزال يعتقد أنه دان الأمم العربية جمعاء ، وهو من أجل ذلك يرفض السيطرة الأجنبية . فإن رأيتموه يستعين العلماء المصريين فى بعض شؤونه فاعلموا أنه يرى المصريين إخوة أشقاء ولا يراهم أجانب .

وهذا معنى لمسته بنفسي وقابلته بأصدق آيات الثناء.

وكنت أتصور بغداد مدينة شغلتها الصروف عن تقاليد الاسلام، فراقني أن أراها مدينة إسلامية في كل شيء، وما ظنكم بمدينة تعيش في القرن العشرين وهي مع ذلك لا تسمح لإنسان بأن يدخن سيجارة في رمضان، ولا يفتح فيها مطعم ولا مشرب ولا حانة في أيام الصيام ؟.

هل تصدقون أن الخروج على آداب الصوم يجر الرجل إلى دار الشرطة حيث يلقى سوء الحساب ؟ هل تصدقون أن رجال الشرطة في بغداد يراقبون الناس في الطرقات عساهم يظفرون بمسلم جاهل يتظاهر بالإفطار ليزجوا به في غيابات السجون ؟ هل تصدقون أن النصارى واليهود في بغداد يحترمون رمضان مراعاة لخواطر المسلمين ؟.

أقول هذا وقد سمعت أن الصوم الحق لا يقوم به إلا الأتقياء، ولكن هذا لا يمنع من الاعتراف بأن العراق من الأقطار الإسلامية التي تعرف الواجب نحو الدين الحنيف.

وكنت أتصور بغداد تموج بالفتنة بين السنة والشيعة، فلما خبرت الناس بعض الخبرة رأيتهم على جانب عظيم من التسامح، رأيتهم يعيشون جنبا إلى جنب في هدوء واطمئنان، ورأيت الثقة بينهم على أتم ما يكون من الصفاء، وتبينت أن المذاهب الدينية

لاتصرفهم عن الواجبات الوطنية ، وأن الأخوة العراقية ستكون أساس الوحدة القومية بعد قليل من الزمان .

وجملة القول أن بغداد فى عهد البناء ، والتجارب القاسية التى مرت بها ستجعلها فى حرز من تقلبات الأهواء . فمن كان فى ريب مما أقول فلينتظر قليلا ، فستأتى هذه البلاد بالأعاجيب ، وسيرى الساعون بالنميمة أنهم كانوا واهمين .

إن العراق ينفض عن عينيه آثار السبات القديم ، ويتلفت إلى المستقبل تلفت الليث جاعت أشباله ، ويقبل على الحياة إقبال الأفعوان المهتاج ، ويضطرب فى الدنيا كما تضطرب الوحوش الضوارى فى غسق الليل ، فمن كانت له عند العراق حاجة فليؤجلها قليلا ، فإن العراق لا يفكر اليوم إلا فى شيء واحد : هو أن يكون أمة تحكم وتستطيل .

* * *

قد تسألون : وكيف يحيا المجتمع فى بغداد ؟ وأجيب بأنى رأيت فى بغداد لونين من الحياة ، أما اللون الأول ، لون الجد ، فهو ماحدثتكم عنه ، وأهل بغداد من هذه الناحية جبابرة عتاة ، وفيهم من يصل النهار بالليل فى سبيل الرزق ، وفيهم من لا يأوى إلى فراشه إلا وفى صدره غرض مبيت مدفون .

أما اللون الثانى ، لون الهزل ، فهو يتمثل فى المراقص والقهوات ؛ وما أزعم أننى قادر على وصف المراقص ، لأنى زرت مرقصاً واحداً مرة واحدة ، وذلك المرقص يعطى صورة صحيحة ، لأنه فيما سمعت كثير الأشباه فى بغداد ، ومادة اللهو فى هذه المراقص لا تعتمد على الجمال العراقى ، وإنما تعتمد على الجمال الأوروبى ، فالراقصات فى تلك المواطن من المتاع الذى تجلبه السفن والسيارات لإيناس اللاهين من الشرقيين ، واللحظة التى قضيتها فى ذلك المرقص نبهتنى إلى كثير من المعانى ، فقد رأيت من السامرين من يقول : إن ذلك الفتى الذى يراقص تلك الشقراء هو ابن الشيخ فلان الرجل الصالح الذى لا يعرف غير المسجد والبيت ، ففهمت من ذلك أن بغداد تنقسم إلى جيلين يختلفان أشد الاختلاف : جيل الشباب ، وجيل الكهول ، ومعنى ذلك بعبارة أوضح أن الفتيان الذين يرقصون الرقص الإفرنجى فى بغداد ليس لهم فى ذلك المعترك أعمام ولا أخوال

وأحببت أن أرى الملاهى البغدادية الأصيلة ، ولكن الصديق الذى أثق به فى بغداد نهانى عن ذلك . أفيكون معنى هذا النهى أن البغداديين يرون ملاهيهم القديمة مما تعافه الأذواق ؟ .

أما القهوات فكلها من طراز قهوات حىّ الحسين . ويندر جداً أن يشرب فيها غير القهوة والشاى ، وربما كان من الحق أن نقرر أن البغداديين لا يشربون الخمر أبداً على قارعة الطريق ، كما يتفق

ذلك لأهل القاهرة والاسكندرية وبورسعيد ، فهم من هذه الناحية عقلاء ، ومع أن الحانات تظل فى الأغلب مرخاة الستائر مغلقة الأبواب لا يهتدى إليها غير العابثين ، فقد قرأت فى الصحف العراقية كلمات يقترح كاتبوها أن توصد أبواب الحانات إيصاداً مطلقا فى ليالى رمضان .

ومع ان البغداديين يتحفظون فى شرب الخمر فهم يسرفون فى شرب الشاى إلى حدّ الإدمان ، ويتفق فى أحوال كثيرة أن ينقطع الرجل عن الحديث ، فإذا سألت عرفت أنه لم يشرب الشاى منذ ساعتين ، وأنه من أجل ذلك « خرمان » فهم من هذه الناحية يشبهون الفلاحين فى الجيزة الفيحاء ، فمن أهل الجيزة من لا يدرك ولا يعقل إلا إذا أسعفته بكأس من الشاى الأسود البغيض .

***

وهناك مسألة على جانب من الأهمية وهى الوحدة الجنسية فى العراق ، فمن المعروف أن فى العراق أجناسا مختلفة ولكن اللون يكاد يتوحد فى تلك البلاد ، فإذا مشيت فى شوارع بغداد شاهدت وحدة جنسية يمثلها اللون ، وسبب ذلك فيما أعتقد يرجع إلى جوّ العراق ، فلذلك الجو سلطان قاهر فى لفح الوجوه ووسم البشرة بسمات تقرّب ما بين السكان على اختلاف الأجناس .

والمرأة هنا محجبة تمـام التحجب ، وهى لاتلبس البرقع كما كانت تفعل المرأة المصرية ، وإنمـا تغطى وجهها كله تغطية محكمة فلا ترى الدنيا إلا من وراء السواد ، فإن رأيت امرأة سافرة بعض السفور فثق بأنهـا فى الأغلب من بنات إسرائيل . وقد شاع اختـلاط الجنسين فى المدارس العـالية ، ولـكنه اختلاط محوط بالتحفظ الشديد ، وهو على كل حال من طلائع العصر الحديث .

والوجوه فى هذه البلاد وجوه مـكدودة أرهقها طول النضال فلا تعرف لين الترف إلا فى قليل من الأحيان .

وهذا الحكم نسوقه بتحفظ لأننا نرجو أن يكون خلف الستائر كثير من اللؤلؤ المـكنون .

* * *

بغداد ! بغداد ! . أين الحسن الذى أطال فى وصفه الشعراء ؟

أين عيون المها يا بغداد ؟ أين مرابع اللهو ، وأين مراتع الفتون ؟

أفى الحق أن يفد عليك قلب خافق فلا يجد الأنيس ؟ .

بغداد ! كنت أرجو أن أراك أندى من القاهرة وأجمـل من باريس ، فارفعى الستر قليلا على أصطبح أو أغتبق بجبينك الوضاح ، فإن لم تفعلى فسيطول عليك العتب من شاعر سنتريس [1] .

---

(١) قد استجابت بغداد لهذه الدعوة فـكشفت للكاتب عن جبينها المشرق وقلبها الطروب ، وستظهر شواهد ذلك فيما سيراه القارئ من مختلف الفصول .

المذاهب الادبية فى مصر

خطبة ألقاها المؤلف فى نادى القلم العراقى

أيها السادة

اقترح معالى الرئيس الأستاذ محمد رضا الشبيبى أن ألقى محاضرة عن المذاهب الأدبية فى مصر ، وهو موضوع شائك حملتنى وعورته على أن أقف موقف الواصف ، ابتغاء السلامة من الشطط والاعتساف .

وأبدأ بشرح الغرض من كلمة « الأدب المصرى » فأصرح لكم أنها تؤدى المعنى الذى تؤديه كلمة « الأدب الأندلسى » مثلا ، أعنى أنها تدل على الأدب العربى الذى ينشئه كتاب مصريون ، والمعنى الذى تؤديه كلمة « الأدب البلجيكى » أى الأدب الذى ينشئه البلجيكيون وهم يكتبون وينظمون باللغة الفرنسية ، وكذلك يقال «الأدب الأمريكى» وهو أدب ينشئه الأمريكيون باللغة الانجليزية ، فليس يصح لأحد أن يستوحش من كلمة « الأدب المصرى » لأن المصريين يكتبون باللغة العربية فى جميع الموضوعات ، حتى الشؤون الخاصة بالبيئة المصرية .

فإن سمعتم أن كلية الآداب عندنا تفكر فى إنشاء كرسى للأدب المصرى فليس معنى ذلك أنها تريد أن تتناسى الأدب العربى ؛ وإنما

هو كرسى لدرس الأدب الذى جادت به القرائح المصرية باللغة العربية ؛ وأنتم تعلمون أن للشعراء والكتاب والمؤلفين الذين نبغوا فى مصر مكانة فى الأدب العربى ، وهم خليقون بأن يظفروا باهتمام خاص من الجامعة المصرية .

وأعود إلى صميم الموضوع فأقول :

إن هناك فرقا بين الأدب والمذاهب الأدبية .

وإنما احتجت إلى النص على هذا الفرق لأنى غير مطمئن إلى وجود المذاهب الأدبية فى مصر ؛ ففى مصر أدب ضخم يتمثل فيما تصدر من المؤلفات ، وقد حدثنى السيد عبد العزيز الحلبى أحد كبار الناشرين أن المطابع المصرية تخرج فى كل يوم نحو اثنى عشر كتابا باللغة العربية ، والأمة التى تخرج فى كل سنة أكثر من أربعة آلاف كتاب لا يمكن اتهامها بالضعف فى حياتها الأدبية واللغوية .

فالأدب فى مصر قوى جدّاً ، ولكن الذى أرتاب فيه هو وجود المذاهب الأدبية ؛ وإليكم البيان .

قامت مناظرة فى الجامعة المصرية بين معالى الدكتور محمد حسين هيكل باشا والأستاذ خليل مطران ، وكان موضوع المناظرة :

هل يكفى الأدب العربى لتكوين الأديب ؟

وكان رأى الأستاذ مطران أنه يكفى ، وكان رأى الدكتور هيكل أنه لا يكفى .

وقد وقف الدكتور طه حسين في صف الدكتور هيكل ووقفت أنا في صف الأستاذ مطران ، فهل كنا جميعاً جادّين في هذا الجدال ؟

هيهات ، فقد كان الدكتور طه والدكتور هيكل أديبين قبل أن يعرفا شيئاً من اللغات الأجنبية ، وكنت أنا والأستاذ مطران من أحرص الناس على التزود من الآداب الأجنبية .

فما معنى هذه المناظرة ؟ ما معناها وليس في المتناظرين من يكتفي بالآداب العربية أو يزهد في الآداب الأجنبية .

إن لهذه المناظرة معنى واحداً : هو حض الشبان على تقليب وجوه الرأي في المسائل الأدبية .

* * *

وكذلك يقال في الجدل العنيف الذي ثار في مصر بين القديم والحديث ، فقد كان الأستاذ مصطفى الرافعي يحمل راية القديم وكان الدكتور طه حسين يحمل راية الحديث .

فهل معنى ذلك أن أدب الأستاذ الرافعي كان صورة لأدب الجاحظ أو ابن العميد ، أو أن الدكتور طه كان يتجاهل الأدب القديم ؟

لا هذا ولا ذاك ، وإنما هي صور من الجدل يكثر صدورها في الصحف المصرية .

ومن هذا الباب كان الجدل بين الدكتور طه حسين والأستاذ

العقاد حول الادب اللاتيني والادب السكسوني ، فليس الدكتور طه ممن يتجاهلون خصائص الآداب السكسونية ، ولا الأستاذ العقاد ممن يتجاهلون خصائص الآداب اللاتينية . وإنما هو جدل يكثر صدوره عن أقلام الأدباء المصريين .

وكذلك الحال في الجدل الذي يثور في مصر أحياناً بين أنصار الترجمة وأنصار التأليف ، فليس في الداعين إلى التأليف من يجهل فضل الترجمة ، وليس في الداعين إلى الترجمة من يجهل فضل التأليف ، وإنما هي ضروب من الجدل المثمر يحسنها المصريون .

ومثل هذا يقال في الجدل الذي ثار حول الأدب المكشوف ، فليس في مصر اختلاف حول استقباح ذكر العورات والخازي ، وإنما هو خلاف في طريقة نشر المؤلفات القديمة ، ففي مصر أدباء يشيرون بنشرها مهذبة ، وأدباء يشيرون بنشرها كاملة مراعاة للأمانة في فهم التاريخ .

وقد ثار الجدل في مصر حول مهمة المجمع اللغوي ، فجماعة يقولون بدرس اللهجات ، وآخرون بإحياء المؤلفات القديمة ، ولكنهم جميعا متفقون على ضرورة الجمع بين الفائدتين .

والقصة ، ما شأنها ؟ ناس يقولون بوجوب الاهتمام بالقصة ، وفريق يقول إنها فن مفتعل في اللغة العربية ، ولكن أولئك وهؤلاء يجمعون بين المذهبين في التأليف .

وخلاصة القول أن النزاع بين الادباء المصريين لا يصدر عن مذاهب أدبية ؛ وإنما هى طلائع لمذاهب أدبية ستستفحل بعد حين.

* * *

ولكن متى بدت تباشير تلك الطلائع ؟

كان المصريون قبل مائة سنة لا يعرفون من موارد الثقافة غير الأزهر الشريف ، فكان الادباء يتشابهون فى الاغراض والأساليب.

ثم أنشئت وزارة المعارف فدخلت على الاذهان والعقول أطياف جديدة من الثقافة الغربية ، وشرع الادباء ينقسمون إلى طائفتين : طائفة أزهرية، وطائفة عصرية ، وأخذت هاتان الطائفتان تقتتلان فى مختلف الميادين .

وأقرب الشواهد لذلك ما كان يثور من الخصومات الأدبية بين كتاب (الجريدة) من جانب ، وكتاب المؤيد واللواء من جانب ؛ وكان ذلك منذ ثلاثين عاما ، حين كان احمد لطفى السيد يقارع عبد العزيز جاويش وعلى يوسف ، وأساس الثقافة عند الأول مدنى ؛ وعند الآخرين أزهرى ، فكان يظهر التفاوت فى الاغراض وفى الاساليب ، بحيث كان يظهر أن الجو الأدبى لم يعد يتنفس فى هواء واحد ، وكاد الناس يدركون أن عقلية من يحمل العمامة تخالف عقلية من يحمل الطربوش .

والاختلاف فى الاغراض ظهر بقوة جارفة يوم ثار الجدل فى

مصر حول السفور والحجاب ؛ فقد كان دعاة السفور من أنصار الثقافة الحديثة ، وكان المتمسكون بالحجاب من شيوخ الأدب القديم .

وكان إنشاء الجامعة المصرية فى سنة ١٩٠٨ بداية الفصل بين القديم والحديث ، فقد كان أكثر الأدباء لذلك العهد لا يعرفون اللغات الأجنبية،فلما أنشئت الجامعة كان فى نظامها أن لا يظفر بألقابها إلا من يؤدون امتحانا فى آداب اللغة الفرنسية أو اللغة الانجليزية ؛ ومعنى ذلك أن الأديب لا يظفر بإجازة جامعية فى الأدب إلا إن تمكن من الاتصال بالآداب اللاتينية أو السكسونية ؛ ونحن نعرف أن ذلك لا يمرّ بسلام ؛ وإنما يدخل فى عقل الاديب وذهنه وقلبه ألوانا من الثورة على الأدب الموروث ؛ ونتائج ذلك محسوسة : فالأدباء المتخرجون فى الأزهر ودار العلوم غير المتخرجين فى الجامعة المصرية ، ويكفى أن تنظروا فى كتابين ألفا فى موضوع واحد هو الأدب الجاهلى ، أولهما للأستاذ محمد هاشم عطية، وثانيهما للدكتور طه حسين ؛ وهما كتابان جيدان ، ولكن المؤلفين يختلفان فى فهم الأدب الجاهلى أشد الاختلاف .

* * *

وقصة الادب المكشوف ليس لها فى مصر وجود ملموس، ولكن يظهر أثرها فى مطبوعات دار الكتب المصرية ، فإن القسم الأدبى هناك يطبع من كل كتاب نسختين :نسخة كاملة ، أو نسخة مدنسة ؛ تنشر

بما اشتملت عليه من العورات والمجون ؛ ولاتباع لغير الخواص ؛ ونسخة مطهرة أو مهذبة تحذف منها أسماء العورات والمجون، وتباع لسائر الناس .

ولم يسلم من هذه الرقابة غير كتابين : الأول عيون الاخبار ، وقد دافعت عنه بنفسي يوم كنت موظفا بدار الكتب المصرية سنة ١٩٢٥ وأقنعت المرحوم الدكتور أبو هيف بابقاء الكتاب على أصله ؛ رعاية لوصية المؤلف رحمه الله ؛ والثانى كتاب الاغانى وقد اشترط السيد راتب أن لا يحذف منه شيء ؛ وكان قدم لوزارة المعارف مبلغاً من المال تستعين به على إحياء ذلك الكتاب .

* * *

أيها السادة

كان النقد الادبى قبل الحرب يحاكم الكتاب والشعراء إلى المعروف من أساليب القدماء ؛ ولكن الحياة الادبية مع ذلك لم تخل من وثبات فكرية بفضل النور الذى بثته الجامعة المصرية ؛ فلما جاءت الحرب غلا الورق غلاء شديدا ، وتخاذلت الصحف والمجلات ؛ وضاقت الميادين أمام الناقدين وخلا الجو للمرحوم المنفلوطى فكان وحده المؤلف وكان وحده المنقود .

وفى أعقاب الحرب ظهر كتاب اسمه (الديوان) وهو أشبه بمجلة دورية يحررها الاستاذ عباس العقاد والاستاذ إبراهيم المازنى ، وكان

الغرض منه هدم الاسماء التى سيطرت على الحياة الادبية ؛ ولا سيما شوقى والمنفلوطى . وبجانب ذلك نشطت مجلة أسبوعية اسمها عكاظ كان من همها أن تدحر هذين الكاتبين ، واستطاع هذا العراك أن يشغل الناس من جديد بالحياة الادبية .

ثم كانت الثورة المصرية التى خلقت مئات من الكتاب والخطباء .

ثم كان الجدل السياسى بين عدلى يكن وسعد زغلول، وهذا الجدل هو وحده صاحب الفضل على الأدب فى الديار المصرية .

وبيان ذلك أن عدلى يكن وأصحابه كانوا يفهمون جيداً أن سعد زغلول يستأثر بالجماهير ، فانشأوا جريدة السياسة وزودوها بالدراسات الأدبية لتستطيع الوصول إلى جماهير القراء ، وقد صح ماتوقعوه فأصبح لجريدتهم قراء ، ثم رأى الوفد المصرى أن يفعل الأدب بالأدب ، فأمدّ جريدة البلاغ بطائفة من حملة الأقلام .

وكذلك أصبح من التقاليد أن يكون فى كل جريدة يومية صفحة أدبية .

ولكى تعرفوا كيف كان يسيطر الأدب فى ذلك العهد أروى لكم القصة الآتية :

كان شوقى رحمه الله ينشر قصائده فى جريدة الأهرام ، ورأت جريدة السياسة أن تنفرد بنشر تلك القصائد ، ولكن ماذا تصنع ؟

أعلنت أنها تدفع خمسين ديناراً للجمعية الخيرية الاسلامية في كل مرة تنشر فيها قصيدة من قصائد شوقي .

وبذلك غنمت القراء الذين كانوا ينتظرون شوقي على صفحات الأهرام .

* * *

أيها السادة

في مصر اليوم رجة اجتماعية ستعود على الأدب بأجزل النفع ، وأنتم تعلمون أن الأدب يستفيد من الخير والشر على السواء . ومن شواهد ذلك الأدب النسوي : فقد ابتدأ برسائل (باحثة البادية) ملك حفني ناصف ، وكانت أبحاثها مقصورة على الجوانب الاجتماعية ؛ ثم جاءت الآنسة مي فأمدت الادب النسوي بأرواح معطرة ، ولكن نشأ في الاعوام الاخيرة حادث أدبي يستحق التنويه ، ذلك هو أدب الآنسة جميلة العلايلي ، فقد أخرجت ديواناً شعرياً يتوقد بأنفاس الحنين ، وهي أول مرة نسمع فيها أن فتاة عربية تنظم ديواناً تغلب عليه الوجدانيات ، ولهذه الآنسة قصص طريفة تمثل بها عواطف النساء العاشقات أصدق تمثيل ، وذلك لون من الأدب الجديد .

أقول هذا وأنا أعرف أن فيكم من ينكر أن تفصح الفتاة عن عواطفها الوجدانية ، ولكني أقف موقف المؤرخ ، ولا حرج على

من يحاول الأمانة فى سرد التاريخ .

وعندنا اليوم فتاة اسمها سهير القلماوى ، وهى أقل جرأة من جميلة العلايلى ولكن يغلب على ظنى أنها ستكسر قيود الرزانة بعد قليل ، إلا أن تحرص على وظيفتها بكلية الآداب فتتكلف الوقار ..

وفى كلية الآداب اليوم حركة لانتخاب «أميرة الشواعر» وأخشى أن نستغنى بها عن «أمير الشعراء» ! !

وبهذه المناسبة أذكر أن المصريين كانوا فكروا فى انتخاب أمير للشعر بعد شوقى ، ورأى جماعة أن يكون ذلك اللقب من حظ الأستاذ عباس العقاد وثار جماعة آخرون منهم الأستاذ محمد الهراوى والأستاذ محمد الأسمر فقد أهدوا اللقب إلى «البرنس» وهو نساخ فى دار الكتب المصرية له منظومات فى التهانى بالافراح والليالى الملاح !! . وقد قُتل ذلك الجد بهذا المزاح .

* * *

أيها السادة

لا تعجبوا من حرصى على تدوين الجانب النسائى فى الحياة الادبية ، فأنا واثق بأن الرجة الاجتماعية التى يمثلها اختلاط الجنسين فى الجامعة المصرية سيؤدى إلى نتائج منها المقبول والمرذول ، ولا مفر من الاعتراف بأن وجود نحو ثلثمائة فتاة بين شبان الجامعة المصرية سيحدث أزمات نفسية وخلقية ، ومن تلك الازمات

المخوفة ياخذ الادب وقوده الذى ظل ينتظره منذ أجيال .

ولكى تعرفوا كيف أسرع التطور فى بلادنا أذكر لكم أنى كنت طالباً فى الجامعة المصرية منذ عشرين عاماً، ولم يكن يزاملنى من الجنس اللطيف فى ذلك العهد غير فتاة واحدة هى الآنسة مى ، وحين يلتحق ابنى بالجامعة فى العام المقبل سيجد بجانبه ثلثمائة فتاة ، فإن صح أن مزاملة فتاة واحدة أثرت فى أدبى فكيف يكون حال ابنى ؟ وقاه الله ونجاه !!

أيها السادة

قد يكون من الخير أن نقرر أن الادباء المصريين بدأوا ينقسمون إلى طوائف ففى الشعراء من يريد قصر شعره على مسامرة الاطفال كالاستاذ محمد الهراوى ، وفيهم من يقف اشعاره على الأغانى كالاستاذ احمد رامى الذى ملأ المشرقين بالحنين على لسان أم كلثوم، وفى الكتاب من لا يعبر عن اغراضه بغير القصص وفيهم من يكاد يقصر ادبه على السخرية من المجتمع كالاستاذ ابراهيم المازنى ، وفيهم من وقف ادبه على الفكاهة كالاستاذ حسين شفيق المصرى ، وعندنا ادباء لا يعرفون إلا إذا علوا منابر البرلمان .

وقد بدأت الاساليب تتنافر وتختلف ، فأسلوب فكرى اباظة ومحمد التابعى غير أسلوب عبدالعزيز البشرى واحمد الزيات .

وكتاب الاهرام لهم مسالك فى التعبير تخالف مسالك زملائهم فى جريدة البلاغ .

والموضوعات التى تدرسها مجلة الرسالة غير الموضوعات التى تدرسها مجلة الصباح .

والسامرون فى الاحياء الازهرية لهم مذاهب فى القول والتعبير تباين المذاهب المألوفة عند السامرين فى شارع مظلوم وشارع فؤاد

وأدباء القاهرة غير ادباء الاسكندرية وغير ادباء اسيوط .

ولكن ما نراه تباينا لايجيز القول بأن فى مصر مذاهب أدبية تشبه الكلاسيك والرومانتيك عند الفرنسيين ، ذلك بأن الادباء المصريين تتطور أذواقهم كل يوم بفضل إقبالهم على مختلف الثقافات الشرقية والغربية ، فالخلاف بين الاساليب هو كالخلاف بين الوجوه لايجعل الرجلين من امتين مختلفتين وإن كان يشهد لكل فرد بالقوة الذاتية .

وهذا التصادم بين المشارب والميول يحير المبتدئين فى بلادنا فلايعرفون كيف يتوجهون ، ولكنه يساعد على قوة الشخصية ، إذ يستطيع الشاب الناضج أن يتفرد فى النهاية بأسلوب خاص .

وقد يكون من الخير أيضاً أن نقرر أن فى مصر كثيراً من

الجرائد والمجلات التى تصدر باللغات الاجنبية ، وهذا يؤثر فى تلوين الثقافة أشد تأثير ، لانه يغرى الادباء المصريين بمتابعة الكتاب الاجانب فى بعض المذاهب ، ولعل لهذا دخلا فى شيوع الصور الرمزية بالمجلات المصرية ، والافكار تعدى بالصحة وتعدى بالمرض فى اكثر الاحيان .

* * *

ايها السادة

لا يسعنى فى هذا المقام أن أغفل ظاهرة أدبية عرفتها مصر فى الأعوام الأخيرة ، فقد كانت أنشئت مجلة شعرية اسمها «ابوللو» ولم تعمر غير عامين ، ولو طال عمرها لأمدت الشعر بكثير من الحيوية ، ولكن الدكتور ابو شادى عجز عن الإنفاق عليها بعد أن أنفق فى سبيلها ما أنفق ، فغربت بعد أن أظهرت طائفة من الشعراء الشبان منهم حسن الصيرفى وصالح جودت وعلى محمود طه ، وبعد أن عرفت الجمهور بعبقرية الدكتور إبراهيم ناجى أصدق شاعر يبكى حظوظ القلوب ويذكر الناس بنبرات ابن الاحنف وابن زيدون .

أتريدون كلمة الحق ؟

لم يبق فى مصر أدب ولا مذاهب أدبية .

إن الاقلام كلها تحولت إلى الجدل السياسى ؛ وكاد المسرح المصرى يموت بالرغم من وجود قصاصين بارعين أمثال محمود تيمور وتوفيق الحكيم .

فإن شئتم أن تعرفوا ماهو المذهب الجديد الذى عرفته مصر من بين المذاهب الادبية فإنى أحدثكم أن ذلك المذهب هو الادب السياسى ؛ والادب السياسى هو كل ماتعرف مصر من غذاء العقول فى هذه السنين العواصف .

والادب السياسى فن جديد فى اللغة العربية ؛ ولا يعرف قيمته إلا من يقرأ البلاغ والكوكب والجهاد والاهرام والمقطم وآخر ساعة والكشكول ، ففى هذه الجرائد والمجلات صنوف من الصبوح والغبوق يدركها أرباب الاذواق .

ولو رأيتم كيف تتصاول المذاهب والآراء فى تلك الجرائد والمجلات لرأيتم العجب العجاب . وأشد ما آسف له أن الادب السياسى فى مصر لايطلع عليه إخواننا فى سائر الأقطار العربية ؛ لأنهم يحسبونه نوعا من الحديث المعاد ، ولو بحثوا لعرفوا أنه صقال للأذهان والعقول .

أيها السادة

قد رأيتم أنى وقفت موقف الواصف لبعض الظواهر الأدبية في الديار المصرية ؛ وما أدعى أنى وفيت الموضوع حقه من البحث، ولكن يكفى أن أكون طفت بكم طوفة لاتخلو من طرافة ؛ وهى طوفة كنت فيها مثالا للدليل الأمين ، والسلام ؟

القلب الغريب

فى ليلة عيد

أخى الاستاذ الزيات

هل تذكر ما حدثتنى به منذ سنين ؟ هل تذكر أنك تشهيت مرة أن توجه إلىّ خطاباً على صفحات البلاغ عنوانه « من غريب إلى غريب » وكنتَ الغريب فى بغداد وكنتُ الغريب فى باريس ؟

ولم تحدثنى عما أوحى إليك أن تفكر فى إنشاء ذلك الخطاب ، فهل أستطيع أن أرجح أن ذلك كان بعد أن نشرتُ أنا رسالة « من غربة إلى غربة بين القاهرة وباريس » تلك الرسالة التى فضحتُ بها مكتوم صدرى ومكنون هواى ؟

على أننى لن أكتب مثل تلك الرسالة مرة ثانية ، فقد انتهى عهد الغربة بالقاهرة ، وقضى الحب أن أشهد كيف تنهمر دموع الملاح يوم رحيلى إلى العراق

انتهى عهد الغربة بالقاهرة ، وحلّ عهد الاغتراب عن القاهرة ، فمن يردّنى إليها ليلة أو ليلتين لأقضى حق التحية تحية المغانى الآهلة التى كانت تتشوف إلى العيد ، لترانى مع العيد !

ليتك ياصديقى تعرف نعمة الله عليك فى بلد لك فيه أهلٌ وأحباب ،

ولا أراك الله حسرتى وعذابى وأنا أتجرع كأس الغربة فى ليلة عيد !

ولكن هل من السياسة أن أعلن غربتى فى بغداد ، وقد لقيتُ فيها أهلاً بأهل وجيراناً بجيران ؟

إن قيل ذلك فأنا أعلن أنى لا أعانى غربة العقل ، وإنما أعانى غربة القلب

وكيف أعانى غربة العقل ومحاضراتى يشهدها المئات من عشاق العلم والبيان ، ولا أخطو خطوة إلا وأنا محوط بالعطف والإعجاب ، ولا أدخل نادياً إلا تلقانى أهله وسامروه بالترحيب والتبجيل ؟

ولكن هل يكتفى مثلى بحياة العقل ؟ ياضيعة العمر إن كتب علينا ألا نظفر بغير الثناء من عقلاء الرجال ! وما أضيق العيش إن كانت لاتلمع بروقه إلا من صرير القلم وسواد المداد !

إن الحياة العلمية ليست إلا خدعة يتلهى بها أرباب القلوب . وهل يخفى عليك ما يعانيه رجل مثلى حين يعود وحيداً إلى منزله بلا أنيس ولا رفيق ؟ هل يعزّيه حينذاك أن يتذكر أنه كان منذ لحظات يعاقر الفكر والرأى وهو يلقى محاضرته على جمهور من العلماء والأدباء ؟

ليتك ترانى وأنا أدخل إلى غرفتى شارد اللب فأزيح الستائر عن النوافذ ثم أطفئ المصباح لأقف وجهاً إلى وجه مع ظلام بغداد .

ويارحمة الله من ظلام بغداد فى لياليها الطوال !

ولكن ما الذى يدعونى إلى معانقة الظلام فى بغداد ؟

لا أعرف ، ولكن يخيل إلىّ أن الظلام يؤنسنى بعض الإيناس ، لأنه يوهمنى أنى فى فترة من الزمن تأنس فيها القلوب بالقلوب ، وتسكن الأرواح إلى الأرواح . وربما كان الظلام فى غرفتى فرصة طيبة أتبين فيها بصيص النور فى منزل قريب أو بعيد فأتمثل أخيلة النجوى والعتاب ، وأتوهم ضجيج المرح فى ليالى الوصال

* * *

أما بعد فهذا غروب اليوم التاسع والعشرين من شهر رمضان . وهذا مكانى على المائدة فى المطعم الذى تخيرته بشارع الرشيد ، وهذه أطياف ترد على القلب ، من أحباب القلب ، أطياف من مصر الجديدة والزمالك ، تلك البقاع التى لم تر فيها النجوم قلباً مثل قلبى ، ولم تسدل ستائرها على هوى أعنف من هواى . . . وليقل من شاء ماشاء !

وأسأل جارى على المائدة : هل ثبتت الرؤيا ؟

فيجيب : سنعرف ذلك بعد ساعة أو ساعتين .

وأخرج فأتصفح الوجوه فى شارع الرشيد بلا نفع ولا غناء ، ثم أميل على الشرطى أسأله :

هل ثبتت الرؤيا ؟

فيجيب : لم تثبت ، ولكن المحكمة تنتظر برقية من النجف

فأدمدم : برقية من النجف ؟ وهل يسر من فى النجف أن يفطر

من فى بغداد ؟ إن كان الأمر لعلماء النجف فسيضيفون إلى الصوم يومين ، ولولا أن يفضحهم الهلال لزادوا الصوم أسبوعين.

وأذهب إلى نادى المعارف لأسمر لحظات مع الزملاء من المدرسين فيفرحون بلقائى ويسألون : كيف غبت أمس ؟ فأجيب: غبت أمس لأحضر اليوم . ولكن حدثونى هل عندكم أخبار عن الهلال ؟ فيجيبون : سنعرف ذلك بعد الساعة العاشرة . فأقول والشمس تغرب فى الخامسة ، فهل يمكن أن يكون بين الخامسة والعاشرة مجال لرؤية الهلال ؟

وبعد لحظة تحوّل إبرة المذياع إلى مصر فأسمع فتاة تباغم المستمعين فتقول : سادتى وسيداتى ، هذا آخر العهد برمضان !

فأقول : ياإخوانى ، ياحضرات الأساتذة، يامسلمين ياأولاد الحلال هذه فى مصر ليلة العيد

فيجيب أحدهم وهو يبتسم : علمت شيئاً وغابت عنك أشياء ، ألم تعلم أننا صمنا يوم الجمعة ، وصام المصريون يوم الخميس ، فهم حتما يسبقوننا إلى العيد ؟

فأقول : من هنا تعلمون أن مصر تقدمت فى كل شىء ، فلها السبق فى الصوم ولها السبق فى العيد . وأنصرف محزون الفؤاد

* * *

هذه غرفتى موحشة لايؤنسنى فيها غير أرواح الموتى من المؤلفين،

وسيكون الغد يوم عمل ، لأن يوم الوقفة لا عطلة فيه فى بغداد ، وإذن فسأعطى غداً درساً فى التفسير ، وهو درس متعب لأنه فى الكشاف ، وفى آية يختلف فيها أهل السنة مع أئمة الاعتزال

وكيف أعدّ هذا الدرس ، ياربَاه ، وأنا أعرف أنها ليلة عيد فى مصر الجديدة وفى الزمالك ، وياويلتاه من لوعة القلب حين أتمثل مصر الجديدة والزمالك ! وغضبة الله على من تمرّ بباله خاطرة ملام وأنا أردد أسماء تلك المغانى ، حرسها الله ، وأدام لأهلها نضرة النعيم

بسم الله الرحمن الرحيم

« يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون »

قال جار الله الزمخشرى ...

هذه طلقة مدفع !

وقال ابن حجر فى الردّ عليه ...

وهذه طلقة ثانية !

وكيف نوفق بين القولين ؟

وهذه طلقة ثالثة !

ولكن ما الساعة الآن ؟

الساعة العاشرة . إذن ليست هـذه مدافع السحور ولا مدافع الرفع ، وإنمـا هى مدافع العيد

* * *

وأطفأت المصباح ، وتلفتّ إلى النافذة لأرى ظلام بغـداد ، وقلت : هـذه ليلة عيد بالإجمـاع ، فَلأُرحْ نفسى من الكشاف ، ولجاجـة صاحب الكشاف ، ولأُقبل على قلبى أتبين ما فيـه من فُطور ونُدوب

وتذكرت أننى كنت أكتب رسالة وجدانية فى كل ليلة عيـد ، ثم انقطعت رسائلى بعد إذ مات أبى يرحمه الله ، لأننى أنفت أن أبـكى بعده على غرض مُضيّع أو هوًى مفقود

ثم بدا لى فى هذه الليلة أن أبى لا يسره فى قبره أن تعيش مهجتى بلا لوعة ، ومقلتى بلا دمعة ، وكان يرحمه الله جذوة من الوجدان

وعدت إلى الظلام أستلهمه وأستوحيه فلم أجد من أحاوره غير الرجل الحزين الذى اسمه أحمد أحمد حسن الزيات

صديقى

هل تذكر فكاهتك الطريفة إذ تحدّث إخوانك أنك عرفتنى أول مرة عن طريق البوليس ؟ هل تذكر أن البوليس دعاك مرة إلى زيارة المحافظ فتوجست خيفة ، ثم رأيت أن الخطب هين لأنك

دعيت لتتسلم رسالة من الشيخ زكى مبارك الذى اعتقلته السلطة العسكرية أيام الثورة المصرية ؟

ألا فلتعلم أن الحظ قضى عليك ألا تتلقى منى رسالة إلا فى ظروف تحيط بها شبهات ، فإن كانت الرسالة الأولى فى عهد ثورة فهذه أيضاً فى عهد ثورة ، وربما كانت هذه أعنف وأفظع لأنها تحدثك عن صديق حزين يناضل الأرق والسهاد فى ليلة عيد

صديقى !

لاتعجب من رجل يضنيه الحزن والابتئاس مع أنه ينهض بأثقل الأعباء ، فدنيا القلب غير دنيا العقل ، والشواغل الجسام لاتلهى الرجل عما يساوره من لواذع الإحساس ، وأنا رجل يؤمن بأن القلب أدق ميزاناً من العقل . وكيف لايكون كذلك وهو يأخذ هدايته من الفطرة ، على حين لايهتدى العقل إلا بالبراهين ، وهى فى الأغلب تقوم على مقدمات لاتخلو من تضليل

صديقى !

هذه الساعة الأولى بعد منتصف الليل ، وستقرأ هذه الرسالة فتذكر أنك أرقت فى ليلة العيد بلا سبب معروف ، فلتفهم حين تقرأ هذه الرسالة أن ذلك الأرق إنما كان هدية أرسلها إليك الغريب فى بغداد ، الغريب الذى يوحى الحزن إلى أشقياء الغرباء

والآن أطفئ المصباح لأعانق الظلام فى المدينة السحرية التى شقى بلياليها ملايين الرجال فلا أرى غير بصيص ضئيل لمصباح أقامته الحكومة على شاطئ دجلة ، فأفهم أننى أخاطب الأموات لأن مصابيح الحكومة لاتدل على شىء ، ولايهتدى بها غير لصوص الجيوب .

الآن تهدأ بغداد بعد أن تسدل أستارها على الغافين من السعداء والبائسين ، ويبقى المسهّد الغريب الذى لايعرف ربيع القلب ، ولا نعيم الجفون .

فى هذه الليلة تهدأ جنوب ، وتقلق جنوب ، وجنبى هو الجنب الحائر تحت سماء بغداد .

فى هذه الليلة تتلفت عيون فلا ترانى ، عيون كنت لها أمتع من إغفاءة الفجر ، وأنضر من بياض الصباح ، فى هذه الليلة تشتاقنى أكباد رقاق علمتها كيف تطيب ليالى الأعياد .

ولكن لابأس ، فسنعيش حتى نردّ ديون الهوى ، وسيعلم من أبكاهم الفراق أن الدمع لاينفع وسنرجو أن لايسمحوا لنا بعد هذه المرة بالتعرف إلى محطة باب الحديد .

أخى الأستاذ الزيات .

لاأنتظر منك دمعة عند قراءة هذا الخطاب ، ولكن لى إليك رجاء ، فاحفظ عهد أخيك ولا تمش فى شوارع القاهرة إلا مشية

الخاشعين ، فليس فى تلك المدينة بقعة إلا ولى فيها صبوات ، وليس فيها شارع ولا مشرب ولا ناد إلا ولى فيه أحباب وخلان .

ولو شئت لكلفتك تبليغ التحية إلى أصفياء القلب فى مصر الجديدة ، وفى الزمالك ، ولكنّ مثلك وأسفاه لا يؤتمن على نقل التحية إلى أسراب الملاح ، فلتكن (الرسالة) رسولى إلى من أذالوا غاليات الدموع يوم رحيلى إلى العراق ؛ والسلام عليهم وعليك من الغريب الحزين

العروبة فى مصر

محاضرة ألقاها المؤلف فى نادى المثنى

أيها السادة

منذ أيام ألقيت محاضرة فى نادى القلم العراقى عن المذاهب الأدبية فى مصر ، ارتجلتها ارتجالا ، لأن الوقت لم يتسع لتدوينها ، و أنا كما تعلمون مشغول ، وكان فى النية أيضا أن أرتجل هذه المحاضرة ، وقد عرف ذلك صديقى صاحب جريدة البلاد فأرسل أحد زملائه لتلخيصها ، ولكنى رأيت بعد عصر اليوم أن الموضوع الذى أتكلم فيه موضوع دقيق ، وأن من الواجب أن أدوّن محاضرتى وأن أقف عند الذى دوّنت ، حتى لا توجد فرصة للتفسير و التأويل

وأسارع أيها السادة فأنص على أن محاضرتى لا صلة لها بالمعانى السياسية ، فليس فى بغداد مصرى يحق له أن يتكلم فى السياسة غير سعادة الأستاذ عبد الرحمن بك عزام وزير مصر المفوض فى العراق ، وإنما أتكلم باسم الأدباء المصريين كلام الزميل الصادق الذى لا يعرف غير الحق .

وبعد هذا التحفظ أقول : إن صلات مصر بالأمم العربية ترجع

فى حقيقتها إلى عنصرين : عنصر السياسة وعنصر الاخوة ، والسياسة لهـا وجهان الوجه الدولى والوجه الأدبى ، وأعترف صراحة بأن الوجه الدولى من السياسة لايربط مصر بالأمم العربية ، فمصر لاتملك من الوجهة الدولية أن تجهز الجيوش لمناصرة الأمم العربية وهى كذلك لاتنتظر هـذه المعونة من الأمم العربية ، وكلكم يذكر أن البوارج الإنجليزية احتلت الجمارك مرة فى عهد وزارة المغفور له سعد زغلول ومع ذلك لم يقل أحد فى مصر إن الأمم العربية كان عليها أن تقف فى صـف مصر بمـا عندها من جيوش البر والبحر والهواء ، فذلك أيها السادة أمل نرجو أن يحققه المستقبل ، أمّا الآن فنحن وأنتم نعرف ما يحيط بنا من المعضلات ، ونرجو أن ينصرنا الله على الأعداء

أما الوجه الأدبى من السياسة فمصر تعرفه حق العرفان ، وهل يصح فى ذهن أحد أننا فى مصر ننظر إلى المفوضية العراقية أو الوكالة العربيـة كما ننظر مثلا إلى السفارة البريطانية أو السفـارة الإيطالية ؟ هيهات ، إن هـذا كلام لايقوله إلا حاقد أو جهول

اسألوا سفـيركم فى مصر يحدثكم عما يلقاه من كرم المصريين ، واسألوا سفير الحجاز والأفغان وإيران يحدثوكم أنهم يعيشون فى مصر عيش السعـداء لأنهـم بين إخوان يعرفون واجبات الإخاء ويفهمون قيمة العواطف العربية والإسلامية

بل اسألوا أبناءكم الذين يتعلمون فى مصر، اسألوهم يحدثوكم أن الأساتذة فى الجامعة المصرية والأزهر ودار العلوم يشدّدون عليهم فى الامتحان ليثقوا بأنهم يصلحون لخدمة بلادهم فى قوة وأمانة ، بل اسألوا كل من يتصل بمصر فى سبيل المنافع الاقتصادية من أهل سورية ولبنان وفلسطين وحلب واليمن والحجاز وتونس وطرابلس والجزائر ومراكش وجاوة والهند ، اسألوا كل إنسان يتكلم اللغة العربية من الوافدين على مصر : كيف حاله فى مصر ؟ وإنى لواثق بأن المنصفين منهم سيجيبونكم بأن مصر هى البلد الوحيد الذى يعرف قيمة الأخوة العربية والإسلامية .

* * *

أيها السادة

إن مصر هى أعظم موئل للعروبة ، ومن واجب العربى الصادق ان يدعو الله لسلامة تلك البلاد من كل عادية حتى تظل ينبوعا تتفجر منه المعارف العربية .

ومع أن مصر أعظم موئل للعروبة باعتراف الجميع فهناك شبهات يجب تبديدها فى هذا المقام ، هناك إشاعة تقول إن مصر فرعونية وتقول إن الذى أذاع هذه الفكرة هو كاتب مصرى اسمه سلامة موسى ، وأرجوكم أن تصدقونى أيها السادة إذا أكدت لكم

أن هذا الكلام اخترعه ناس فى غير مصر وسمع به الأستاذ سلامة موسى كما سمعه غيره من المصريين ، ومن هذا ترون أن الدسيسة جاءتنا من الخارج ، جاءتنا من المستعمرين وأتباع المستعمرين ، وأنتم تعرفون جيداً أن المستعمرين قد ملأوا بدنانيرهم جيوب فريق ممن يكتبون باللغة العربية ، والمستعمرون يفهمون جيداً أن الأمم العربية تمنح مصر حق الزعامة الأدبية فهم يسلكون جميع المسالك ليسوّءوا سمعة مصر بين الأمم العربية . وأجهل الناس يعرف أن العروبة إن انعدمت فى مصر فلن تقوم لها قائمة إلا بعد أعوام طوال يوم يصبح العراق وفيه عشرون مليوناً من السكان وله ميزانية تبلغ مائة مليون

والمصريون لا ينكرون أنهم ورثوا بلاد الفراعين وأنهم من أجل ذلك يسمون مصريين ، وهل يضير العروبة أن يتشبث المصريون ببلادهم وأن يبذلوا فى سبيلها كل شىء لتبقى تلك البلاد ملكا خاصا للغة العربية والدين الإسلامى ؟

ما الذى يضير العرب أيها السادة إذا رأونا نهتم بالآثار الفرعونية وكلكم يعرف أن مصر تفردت من بين الأمم بأثمن مجموعة من الآثار والفنون عرفتها الإنسانية ؟ نحن فى مصر نزور آثار الجيزة وسقارة والأقصر وأسوان لنؤمن بأن مصر فى طبيعتها صالحة لقيام أعظم امبراطورية ، فهل يسوءكم أن نسمّر أقدامنا فى تلك الأرض وأن نجعلها إلى الأبد — بإذن الله — من أملاك العروبة ؟

حدثونى أيها السادة ماذا يسوءكم من تمجيدنا لنهر النيل ؟ نحن نحبه لنحرص عليه ونموت فى سبيله إن عدا عليه العادون ، فهل يسوءكم أن يبقى النيل لأمة عربية توحد بارئ الأرض والسموات ؟

نحن عرب ولكننا مع ذلك مصريون ، وأنتم عرب ولكنكم مع ذلك عراقيون ، وسكان الجزيرة عرب ولكنهم مع ذلك حجازيون أو يمنيون ، فأرجوكم أيها السادة أن تزنوا الأمور بموازينها ولا تظلمونا من غير موجب فإن الحب أساسه الإنصاف

* * *

وهناك شبهة أخرى هى كلمة (الأدب المصرى) وقد بددت هذه الشبهة حين تكلمت فى نادى القلم العراقى ، فكلمة الأدب المصرى فى اللغة العربية ترادف كلمة الأدب الأمريكى فى اللغة الانجليزية وكلمة الأدب البلجيكى فى اللغة الفرنسية ، فالأدب الامريكى هو أدب إنجليزى ولكن كتابه وشعراءه أمريكيون ، والأدب البلجيكى هو أدب فرنسى ولكن كتابه وشعراءه بلجيكيون ، وكذلك الأدب المصرى فهو أدب عربى ولكن كتابه وشعراءه مصريون .

وقد سمعتم أن الأستاذ الدكتور طه حسين اقترح إنشاء كرسى للأدب المصرى فى كلية الآداب بالجامعة المصرية فهل معنى هذا أن الكرسى المنشود سيجلس عليه أستاذ لا يدرس غير (المواويل) التى

يتغنى بها المغنون فى قهوات الحلمية القديمة ؟ هيهات، إنما هو كرسى يهتم من يجلس عليه بدرس الكتاب والشعراء والمؤلفين الذين أنجبتهم الديار المصرية وهم يعدون بالمئات، ولهم فضل عظيم على الثقافة العربية، وما أظنكم تبخلون علينا بإنفاق ألف دينار فى كل سنة لدرس الأدباء الذين نبغوا فى مصر ونحن ننفق ألوف الدنانير فى كل أسبوع لدرس الأدباء الذين نبغوا فى سائر الأقطار العربية .

***

أيها السادة

إسمعوا هذا الحديث :

منذ أيام جاء إلى دار المعلمين العالية فراش من كلية الحقوق وترك لى نسخة من جريدة الرأى العام التى تصدر فى بغداد فعرفت أن أحد الموظفين هناك أرسلها إلىّ لغرض خاص فقلبت الجريدة فرأيت فيها تصريحا للأستاذ مصطفى عبدالرازق عن الوحدة العربية ورأيت تحت ذلك التصريح عبارة مكتوبة بالحبر الأحمر هذا نصها « ليتأمل الدكتور زكى مبارك ! »

وقد تأملت وتأملت ثم تأملت . فماذا فى تلك العبارة ؟ فيها أن الأستاذ مصطفى عبد الرازق يقول إن مصر تقف من الوحدة العربية موقف المشاهدة لا موقف الفاعلة .

وهوكذلك ، ولكنى عرفت من سياق العبارة أن الأستاذ مصطفى عبد الرازق ألقاها باللغة الفرنسية لأنها نشرت فى جريدة انجليزية أعنى أنه قرّر أن مصر ليس لها مع الأمم العربية موقف يسمى Action وهذه كلمة حق ، فالظروف لاتساعد مصر على تجييش الجيوش فى سبيل الوحدة العربية ، وهذا إثم لا تحتمله مصر وحدها وإنما هى مصيبة دولية تشترك فيها جميع الأمم العربية .

ومع ذلك هل سكت المصريون على كلمة الأستاذ مصطفى عبد الرازق ؟ لا ، فقد هجموا عليه وخطأوه بعبارات قوية نشرتها جريدة العقاب منذ أيام .

مع أن عبارة الأستاذ مصطفى عبد الرازق ليس فيها عند التأمل ما يريب ، وأقول بصراحة إن مصطفى عبد الرازق من مفاخر العرب والمسلمين ، ولو كان فى الأمم العربية عشرة من العلماء على نمط مصطفى عبد الرازق لكان العرب من أغنى الناس فى عالم العقل والبيان .

***

أيها السادة

هل تحبون أن أحدثكم عن مصر العربية ؟ قولوا إنكم تحبون ذلك !!

إن مصر اليوم هي الشاهد على حيوية العرب : فالصحافة المصرية أقوى من الصحافة الفرنسية والصحافة الإيطالية والصحافة الألمانية وليس هذا بالقليل يا أدباء بغداد . فى مصر اليوم مطابع لا تقل قوة عن مطابع باريس ولندن وروما وبرلين ، وهى مطابع عربية ، لا إفرنجية ولا إنجليزية ولا جرمانية ، فى القاهرة معهد اسمه الجامعة المصرية ، وهو بعون الله ورعايته لا يقل قوة عن جامعة لندن أو جامعة باريس أو جامعة برلين .

إن متوسط ما تخرج مطابع القاهرة باللغة العربية اثنا عشر كتاباً فى كل يوم بغضّ النظر عن مطابع بور سعيد والمنصورة وطنطا والاسكندرية وبلقاس وشبين وأسيوط ، وبغضّ النظر عن المطابع الخصوصية مطابع العلماء والأدباء .

إن مصر هى البلد الوحيد بين البلاد العربية ، البلد الوحيد الذى يعيش فيه حملة الأقلام عيش المياسير ، وقد جرّبت ذلك بنفسى فكنت أغنم عشرات من الدنانير فى الأسبوع الواحد من قلمى ، ولى بيت فى مصر الجديدة أنفقت عليه ألفى دينار كسبتها من سنّ القلم فى عامين اثنين ، ولو تيسر هذا فى العراق والحجاز وسورية لأصبح العرب سادة العلم والبيان

أيها السادة

أنا عربى أولاً ومصرى ثانيا ، ولو شئت لقلت إن أبى من أصل

عربي صريح ، وأهل سنتريس يعرفون ذلك ، ولكني أرفض التودّد المتكلف وأقول إني مصرى . وما تسوءني هذه النسبة ، فالمصريون عرب فى أقوالهم وأفعالهم وشمائلهم ودينهم ومذاهبهم ، وأدعو الله عز شأنه أن يجعل مصر أبد الدهر من أملاك اللغة العربية لغة القرآن .

أيها السادة

هل تؤذيكم هذه الصراحة ؟

اعذرونى فأنا أتكلم فى بغداد ، التى أعزت العقل والمنطق يوم كان الناس يعيشون فى دياجير الجهل والغفلة والحمق والغباء .

وأنا فى الواقع تلميذ بغداد قبل أن أكون تلميذ القاهرة أو باريس . فإن رابتكم صراحتى فلا تلومونى فاللوم على أسلافكم الذين شرعوا مذاهب العقل والمنطق .

أيها السادة

إن مصر عربية فى كل شىء ، عربية فى لغتها ودينها وأخلاقها .

إن مصر عربية ولكنها لاتقول فى كل لحظة إنها عربية لأن الكريم لايقول فى كل لحظة إنه كريم ، ولو فعل ذلك لأضافه الناس إلى أهل المن الممقوت .

إن أهل مصر كأهل الحجاز لايقولون إنهم عرب ، لأن توضيح الواضح من المشكلات

أيها السادة

اسمحوا لى أن أقول بصراحة إن التشكيك فى عروبة مصر لايقوم به إلا ناس يخدمون المستعمرين ويخدمون المبشرين ، والعراق لحسن الحظ منزه عن هذه الأهواء ، إن مصر هى التى استطاعت أن تفرض على فرنسا أن تؤمن بأن اللغة العربية لغة حية فتكتفى بها فى امتحانات البكالوريا الفرنسية ، وهى التى استطاعت أن تفرض على عصبة الأمم أن تجعل اللغة العربية لغة رسمية دولية ، وهى التى استطاعت أن تجعل الأزهر مرجعا لجميع المذاهب الإسلامية بلا استثناء ، وذلك لون من الحرية الفكرية كانت مصر أول من شرعه بين جميع الأمم الإسلامية

أيها السادة

إن مصر هى بلادكم وبلاد كل ناطق بالضاد من جميع الديانات ، إن مصر بلاد كل من ينطق باللغة العربية ولو تمذهب بالوثنية ، فمن العقوق أن تسمعوا فيها كلام الخونة من عبيد المستعمرين الذين يريدون أن يوهموكم أن مصر انسلخت من العروبة وأنها لاتعرف غير أصولها من الفراعين .

أيها العراقيون

أنتم الشعب الذى يعتمد عليه فى حكومة العقل والمنطق ، وقد سمعتم أن مصر لاتعطف على الأحزان العربية وحدثكم المغرضون

أن مصر لم تحزن على نكبة فلسطين مثلا ، فليقم من أعضاء نادى المثنى جماعة للموازنة بين مانشرته الجرائد المصرية فى الانتصار لقضية فلسطين وبين مانشرته الجرائد العربية ، وحينذاك تعرفون أن المصريين كانوا أكثر الناس غيرة على تلك القضية ، قضية العروبة وقضية الإسلام .

أيها السادة

فى مصر كثير من مظاهر العروبة ، بل كل مافى مصر ينطق بعروبتها كما قال الدكتور محجوب ثابت ، ولكن عيب مصر أنها لاتقول فى كل لحظة إنها عربية . وأؤكد لكم وأنا صادق أن القاهرة ليست اعز علىّ من بغداد ، ولكنى مع ذلك أرجوكم أن تزوروا القاهرة لتقفوا على مافيها من الحيوية العربية التى تتمثل فى الأزهر والجامعة المصرية والمجمع اللغوى والفرقة القومية والتى تتجسم فى وزارة المعارف المصرية

أيها السادة

إن المستعمرين وصنائعهم يريدون أن يوهموكم أن مصر تخلت عن العروبة ويريدون أن يزهدوا العرب فى الثقافة المصرية ، لأنهم يفهمون أن أدباء مصر فى هذه الأيام لايقلون قوة وفحولة عن أدباء انجلترا وفرنسا والمانيا وإيطاليا ، أدباء مصر هم اليوم رجال الفكر والبيان ولو كره المستعمرون

أيها السادة

إن العروبة فى مصر بخير وعافية ، ولا يعوزها إلا شىء واحد هو أن يثق بها أبناء الأمم العربية ولا سيما أهل العراق . رعى الله مصر ورعى العروبة وحفظ العراق

آمين آمين لا أرضى بواحدة   حتى أضيف إليها ألف آمينا

خطاب المؤلف

فى حفلة تكريمه فى بغداد

أيها السادة

أقدم إليكم أصدق آيات الثناء ، ثناء القلب لا ثناء اللسان ، فقد حاولت أن أعدّ خطبة تناسب مقامكم المحمود ، ولكنى لم أصل إلى بعض ما أريد ، وكان ذلك حالى فى جميع المرات التى شرفنى فيها أحرار الرجال بحفلات التكريم ، فلم يبق إلا أن أرجوكم قبول هذه الكلمات ، وقد دوّنتها وأنا بين الحيرة والاستحياء .

لم يكن فى مذاهبى الأدبية ما يبعث على خلق الأنصار والأصدقاء فقد قضيت نحو عشرين سنة وأنا أحمل راية النضال ، فلم يبق رجل معروف إلا وبينى وبينه أوتار وحقود ، مع استثناء بعض المتفضلين بإقامة هذا الاحتفال .

فكيف اتفق أيها السادة أن تقام لى حفلات التكريم فى القاهرة والاسكندرية وباريس وبغداد ، وأن ألقى الكرامة فى كل مكان ، بالرغم مما اشتهرت به من رعونة القلم وشراسة اللسان ؟

لهذه الظاهرة النفسية تأويل ، فالناس يعرفون أنى فى جميع

الأحوال جندى من جنود الأدب ، وخادم من خدام العروبة ، وحارس من حراس لغة القرآن .

فهم حين يسمعون اسم زكى مبارك لايتصورون ذلك الشخص الجافى الذى لايفرق بين العدو والصديق ، ولا يعرف كيف يلبس السدارة أو كيف يلبس الطربوش ، ويحمل القبعة على نحو ما كان يحمل العمامة ، ولا يدرك الفرق بين الملابس العادية والملابس الرسمية ، وإنما يذكرون حين يثار اسم زكى مبارك أن لهم كنوزاً من الأدب الرفيع هو من حراسها الأمناء ، وأن لهم طلائع من الآمال الكبار هو من دعاتها الأوفياء ، وأن لهم تاريخاً مجيداً هو أسيره ومجنون ليلاه .

ايها السادة

لقد لقينى أحد الأدباء فى جريدة البلاد منذ أيام وقال : إن كثيراً من أهل بغداد يقولون إن فى شخصية زكى مبارك شيئاً يوجب الحب ، فهل لك أن تدلنا على ذلك الشىء ؟

فأجبت : اسألوا شاعركم العباس بن الأحنف الذى يقول :

لو أنّ القلوب تجازى القلوب لما كان يجفو حبيب حبيبا

فأنا أحبكم يا أهل بغداد ، وليس من المستغرب أن تحبونى من حيث لاتعلمون سبب الحب .

وما أزعم أنى أحببت بغداد والعراق حب المدلهين ، وإنما

أذكر أن قلبي خفق خفقة كاد يطفر لهـا الدمع حين وقع بصرى على دجلة أول مرة ، وأذكر أنى شربت ماء الفرات صرفا ، شربته ممزوجا بالطين ، فبدا لى أشهى وأعـذب من الرضاب المعسول ، وأذكر أنى ألقيت محاضرة بالاذاعة اللاسلكية فثارت من حولهـا العواصف وتنكر لهـا فريق من الأدباء والعلماء فطربت وقلت : الحمد لله الذى أحيانى حتى جرى اسمى بالملام على ألسنة أهل العراق

* * *

ومن العدل أن أعترف بأن أهل بغـداد جروا على فطرتهم النبيلة فجزونى حباً بحب وإخلاصاً بإخلاص، فلم يصح ماتوقعت من أن انتقالى من القاهرة إلى بغداد سيكون انتقالا من نضال إلى نضال

فهل تسمحون بالاشارة إلى بعض ماجزتنى بغداد ؟

لقد راعنى أن أجد فى دار المعلمين العالية شباناً نجباء يستمعون دروسى ، وكأنهم صورة من صور العطف والذكاء ، وأعظم نعمة فى الدنيا أن يقف الرجل موقف المعلم لشبان مهذبين أذكياء ، وأنا واثق أن لن يعادينى أحـد من هؤلاء التلاميذ ، ومطمئن إلى أنى لا أعيش بينهم عيش الغريب بعد أن طالت شكواى من الغربة فى القاهرة وسنتريس .

وراعنى أيها السادة أن يكون لى زميل كالدكتور عقراوى ، زميل يحضر محاضراتى مع أهله ، ثم يختصمان فى سبيلى وهما على

المـائدة ، فتنتصر هى عند الغداء وينتصر هو عند العشاء .

وراعنى أن أجد فى دياركم رجالا من أهل العلم ، أمثال الأستاذ طه الراوى والدكتور فاضل الجمالى ، رجالا يعرفون الأخوة الأدبية فيزيلون عنى كل وحشة ويذهبون عن قلبى متاعب الاغتراب .

وقد تفضلت الطبيعة العراقيـة فأتحفتنى بأنفس ماتملكون وهو ليل بغداد ، ولن أترك لكم هذا الليل ، وأصارحكم بأنى سأنهبـه ثم أطويه فى جيبى وأنقله إلى ضفاف النيـل .

ولـكن أى ليل ؟ إنه فى هذه الأيام لايعرف إنسانآسواى ، فإن شعر أحدكم بأن لياليه مضيّعة فليحقد علىّ كيف شاء فأنا الذى أنتهب من عينيه سحر الليل ، ليل بغداد .

ولهذا الليل أيها السادة أحاديث ، فقد عرفت به كيف استطاع علماء العراق أن يملأوا الدنيا علماً وأدباً ، وكيف كان الرجل يستطيع أن يؤلف مائة كتاب ويعلم ألوف التلاميـذ ، ويساجل النجوم بأشعار باقية على الزمان .

ليل بغداد هو الذى سيخلق زكى مبارك من جديد ، ليل بغداد الطويل الذى يصل فى بعض الأحايين إلى سـبع وسـبعين ساعة وسـبع دقائق ، ليل بغداد الذى حمل المـكتبة العـامة على رفع شـكواها إلى وزارة المعارف لتنقذها من الجاحظ الجديد الذى اسمه زكى مبارك .

وما أنكر أيها السادة أنى عرفت فيما سلف ليلا أطول من ليل بغداد ، وهو ليل باريس ، ولكن ليل باريس على طوله كان طيّع الصباح بفضل ما هنالك من ملاه وفتون ، أما ليل بغداد فلا يعرف شيئاً من ذلك ، هو ليل العلم ، وسيصيرنى وا أسفاه من كبار العلماء !

وخلاصة القول أنى سعيد فى بغداد ، ولا يضايقنى إلا شىء واحد : هو وجود جماعة من الاساتذة المصريين فى هذه البلاد ، أساتذة ينافسوننى أخطر منافسة بفضل ما رزقوا من غزارة العلم وحصافة العقل ، ولكن يعزينى أنكم لن تطالبونى بمثل ما يقدمون من صالحات الأعمال وطيبات الجهود ، ففيهم رجل سبقنى إلى الدنيا باكثر من خمسين سنة وهو الأستاذ محمود عزمى ، أطال الله حياته وبارك فى عمره ، وبلغه ما يسمو إليه من كرائم الآمال

* * *

أيها السادة

هل لكم أن تسمحوا لى بالترويح عن نفسى قليلا ؟ لا بدّ للمصدور أن ينفث ولى أمل عزيز أخشى أن يخيب

لقد رحلت عن مصر وأنا مصمم على الاستبسال فى الدعوة إلى إنشاء جامعة عراقية ، فلما وردت العراق لم أجد من يشجعنى على تحقيق ذلك الأمل النبيل ، وصارحنى بعض الرجال بما يعترض إنشاء الجامعة العراقية من عراقيل

فأنا أنتهز هذه الفرصة لتسجيل هذه الرغبة بطريقة علنية وأصافح يمناى أنصارها الاوفياء ، وأدعوكم إلى الكتابة عن هذه الامنية فى كل يوم ، والكلام عنها فى كل مجتمع والالحاح بها على جميع الوزراء ، واعلموا أن من العار أن تخلو بغداد من جامعة ، وباسمها الخالد تتعطر الافواه فى جامعات الشرق والغرب

إنّ الحجة فى أيدينا أيها الزملاء ، فعندنا نواة الجامعة العراقية ، عندنا النواة السليمة لأربع كليات ، فلنبادر بتأسيس الجامعة العراقية بصفة رسمية ، ولنبادر بخلق الصلات العلمية والادبية مع الجامعة المصرية وجامعة باريس ، ولنقرر منذ هذه الساعة أن نفتتح الجامعة بمهرجان مشهود فى آذار المقبل ، شهر الأزهار والرياحين

أيها الصحفيون الشرفاء

لقد كنتم عند ظن الوطن الغالى فى ظروف كثيرة ، فشدوا من عزائمكم لنصرته هذه المرة ، وحققوا أشرف غاية لحملة الأقلام وهى إعزاز العلوم والآداب والفنون

أيها الزملاء

لقد كرمتمونى بهذا الاحتفال الرائع ، فهل تعرفون متى أردّ لكم هذا الدين النبيل ؟ سأردّه يوم يتقرر بفضل مسعاكم إنشاء الجامعة العراقية ، ويومئذ لا أكتفى فى تكريمكم بألوان الحلوى وأكواب الشاى ، وإنما أعقر لكم الذبائح من عرائس الشعر الجميل .

النبي الصبور[1]

كان أستاذنا سيد بن على المرصفى رحمه الله مشهوراً برقة الدين، والشهرة برقة الدين بلية يرزأ بها النوابغ فى الشرق، وقد صحبت ذلك الأستاذ سبع سنين، وكنت فى تلك السنين شابا مستقيم الأخلاق، وكنت أخاف أن يعديني برقة الدين. فكنت أحترس وأحترس..

ولكن الذى وقع كان أعجب وأغرب، فقد صحبت هذا الشيخ وأنا مسلم ولم أفارقه إلا وأنا مؤمن، فكيف أخذت الإيمان عن ذلك الزنديق ؟

كان الشيخ لايذكر النبي إلا بعبارة : «سيدنا رسول الله»

وكنت أظنه يتهكم أو يتظرف، لكثرة ماسمعت من اتهامه برقة الدين .

ولكن هذه العبارة لم تكن مقصورة على الدرس : فقد كان يقولها كلما ذكر اسم الرسول، وكنت أسمعها منه فى البيت وفى الطريق وفى كل مكان ألقاه فيه .

وفى إحدى المرات التى كان يسخر فيها من شيوخ الأزهر

---

(١) كتبت هذه الكلمة لمجلة الديوان البغدادية

— وكان يسخر منهم فى كل وقت — فى إحدى تلك المرات هجمت عليه فقلت : ولكن أنت ياأستاذ سرقت من شيوخ الأزهر عبارة : «سيدنا رسول الله »

فقال : أنا لاأقول «سيدنا رسول الله» تقليداً للمشايخ ، وإنما أقول ذلك عن ذوق وإحساس . فالنبي محمد هو فى قلبي وعقلى «سيدنا رسول الله»

ومنذ تلك اللحظة بدأت أفهم كيف تلصق التهم بالنوابغ زوراً وبهتانا .

* * *

أنا أبغض الاعلان عن إيمانى بغضاً شديدا ، لأنى أخشى أن يحسب فريق من بنى آدم أنى أتزلف إليهم ، أخشى أن يحسب المتجرون بالدين أنى أحب أن أقاسمهم مايربحون من خسران !

ولكن ماذا أصنع وصاحب هذه المجلة يخدعه حسن الظن فيثق بإيمانى ويدعونى لكتابة كلمة عن سيدنا رسول الله بمناسبة المولد الشريف ؟

أعترف كارهاً بأنى مؤمن ، وفى سبيلك يارسول الله أسجل هذا الاعتراف

ولكن ماهى الشمائل التى تصلنى بسيدنا رسول الله ؟

إن هذا الرجل عظيم فى كل نواحيه ، ولكن فى شمائله ناحية منسية هى الصبر الجميل .

وخلة الصبر فى سيدنا رسول الله أنقذتنى من الموت نحو عشرين مرة فقد كانت تمرّ بى أزمات أعانى فيها من لؤم الناس ما يشوقنى إلى الموت . كنت أتسامى إلى الخير ويصدنى عنه ما عند الناس من عقوق . كنت أطمح إلى البر ويصرفنى عنه ما عند الناس من جحود، كنت شيخاً كسائر المشايخ لا يقدم كلمة النصح إلا لمن يقبّل يمناه كنت مخلوقا صغيراً لا يتعب فى سبيل الخير إلا إن ضمن الجزاء .

ثم هدانى سيدنا رسول الله

نعم هدانى سيدنا رسول الله

فبفضله عرفت أن الشر عنصر أصيل فى حياة الإنسانية ، ولو لم يكن الأمر كذلك لما جاز لهذا الروح الطاهر النبيل أن يقضى حياته كلها فى هموم وكروب وأحزان ؟

ومن أنا فى جانب سيدنا رسول الله ؟

لقد كان يزرع البر ويحصد العقوق ، فما الذى يمنع من أن أتشبه به فأزرع البر لأحصد العقوق ؟

لقد جعل العرب أمة عزيزة بعد أن استذلهم الفرس والرومان ومع ذلك اتهمه فريق منهم بالكذب والافتراء .

وأنا أحاول أن أغنى اللغة العربية بحيث ينسى أبناؤها ما يفتنهم

من أدب الإنجليز والفرنسيس والألمان والطليان ، ومع ذلك أجد من يمضغ لحمي بلا تورع ولا استحياء.

لقد صبر النبي على قومه، فهل أصبر على قومي ؟

هنا أتشوف إلى التأسي بسيدنا رسول الله .

* * *

قلت في صدر هذه الكلمة إن صحبتي للشيخ المرصفي قوت إيماني ولكن صوت الشيخ المرصفي الذي قرع أذني أول مرة سنة ١٩١٣ لا يزال يعاودني ، فما أدري كيف اتفق له وهو مؤمن أن يتوجع وهو ينشد قول يحيي بن طالب :

يزهّدني في كل خـــير صنعته

إلى الناس ماجربت من قلة الشكر

وأنا أحب أن أترك هذا الأدب لأتأدب بأخلاق سيدنا رسول الله ، أحب أن أتخلق بأخلاق هذا الرجل ، فأخدم أعدائي ، أحب أن أتطبع بطباع هذا الرجل فأواسي خصومي ، أحب أن أكون كالشجرة يخبطها الناس بعنف لتلق إليهم ثمارها ، ثم تعود فتورق وتزهر وتثمر ليعود الأشقياء إلى خبطها من جديد .

* * *

ولكن كيف السبيل إلى الاقتداء بسيدنا رسول الله ؟

في مكتبتي بمصر الجديدة خمس نسخ من المصحف الشريف .

وكان معى فى باريس نسخة من المصحف الشريف .

وقد أخطأت نحو نفسى أبشع خطإ حين قدمت بغداد وليس معى نسخة من المصحف الشريف

ولكن لابأس فقد استعرت نسخة من المصحف حين قهرتنى الهموم فى بغداد ، وفى هذا المصحف أقرأ هذه الآية :

« إنا كفيناك المستهزئين »

فأعرف أن حمايتى فى ضمان ربى

وأقرأ هذه الآية :

« ولا تك فى ضَيق مما يمكرون »

فأعرف أن من واجبى نحو نفسى أن أبتسم ، وربما كان هذا من واجبى نحو ربى .

وأقرأ هذه الآية :

« فاصبر إن وعد الله حق ، ولا يستخفنك الذين لايوقنون » .

فأفهم أن الحق سينتصر ولو بعد حين ، وأحفظ رزانتى وألزم وقارى .

وما أقصد بغداد ولا أهل بغداد ، فليس للعراق من وجهة العروبة وجود خاص ، وإنما هو عضو من ذلك الجسم الهائل الذى تجتمع به الأمة العربية ، وما ألقاه من الشر فى العراق قد لايصدر عن العراق ، فالأقطار العربية تتجاذب الخير والشر ،

والعرف والنكر والرشد والغى ، والسهم الذى يصيبنى وأنا على ضفاف دجلة قد يكون راميه صديقاً يقيم على ضفاف النيل .

سهم أصاب ورامیه بذی سلم من بالعراق لقد أبعدت مرماك

وذو سلم قريب بعض القرب من العراق فكيف يتفق للمقيم على ضفاف النيل أن يصيب من فى العراق ؟

لقد ترقت وسائط الحرب ، فاحترس ياصاح ، ثم احترس ياصاح.

* * *

أيها القارئ :

هل عندك فكرة تخدم بها وطنك ؟

هل عندك رأى ترفع به أمتك ؟

هل أنت رجل فيه خصائص الرجال ؟

أيها القارئ :

حدثنى من أنت ؟ فإن كنت إنساناً تافهاً فلا خوف عليك ، فأسعد المخلوقات هى الأنعام ، والجو لا يتسع حق الاتساع لغير الذباب .

وإن كنت من أهل الرأى والأدب والبيان فاسمع نصيحتى .

إسمع نصيحتى بلا ثمن ، فأنا كالشمس التى توزع النور بالمجان .

إسمع ياغافل ، ثم اسمع ياغافل ، إسمع ياجهول ، ثم اسمع ياجهول ،

لن تصل إلى شيء إلا حين تصبر على لؤم من تفكر فى هدايتهم كما صبر سيدنا رسول الله .

لن يصل العزاء إلى قلبك إلا حين تذكر تعزية الإله العظيم لنبيه الكريم .

هل تعرف تلك التعزية ؟ هى هذه الآية الكريمة :

«لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين » .

مصادر الادب القديم

ومراجع العلم الحديث

حضرة الصديق العزيز الأستاذ سامى الكيالى

سألتمونى عما أرى فى إحياء الأدب القديم وما أرى فى نقل المؤلفات الأوربية إلى اللغة العربية ، وهاتان مشكلتان حار فى حلهما كثير من المفكرين ، وإنما وقعت تلك الحيرة لإنه لابدّ للباحث من الرجوع إلى مصادر الأدب القديم ومراجع العلم الحديث

ويؤلمنى أن أصرح بأنّ العزائم تراخت فى هذه الأيام عن إحياء الأدب القديم ، ويكفى أن تذكروا ماصنعت مطبعة بولاق بالقاهرة لتعرفوا أنه لم يتفق لأية هيئة علمية أو أدبية أن تصنع ماصنعت تلك المطبعة فى بضع سنين ، ومن المحزن أن المؤلفين فى تاريخ الأدب للمدارس الثانوية يسكتون عن تاريخ تلك المطبعة وتراجم مصححيها سكوتاً تاماً ، ولو وفقهم الله إلى الحديث عنها لرجونا أن يخلق الشوق إلى إحياء الأدب القديم فى بعض النفوس

وما رأيك إذا حدثتك أن الجيل الذى سلف قام بأعباء ستعجز عنها سائر الاجيال ، إن لم يرفع الغبار عن بعض مانعرف من القلوب ؟ لقد قام ذلك الجيل بطبع « تاج العروس » فهل تنتظر أن

يطبع ذلك المعجم المعجز مرة ثانية ؟ لقد قام الجيل السالف بطبع شرح «الإحياء» فهل يخطر ببالك أن ذلك الشرح سيطبع مرة ثانية ؟ هيهات هيهات

إن معجم «لسان العرب» وهو أعظم معجم عرفته اللغة العربية طبعه فيما سلف رجل ثم كان جزاؤه أن يموت تحت أثقال الديون ، فهل فى أدباء هذا العصر من فكر فى كتابة فصل ممتع ، أو قصة شائقة ، عن حياة ذلك الشهيد ؟

وشرح ابن أبى الحديد على نهج البلاغة الذى نشرته مكتبة الحلبى فيما سلف ، وكتاب «الأم» الذى ألفه البويطى ونسب خطأ إلى الشافعى ونشره الحسينى ، وكتاب المخصص لابن سيده ، أترى تلك المؤلفات تنشر مرة ثانية على أيدى هذا الجيل الكسلان ؟ !

هناك فكرة ترمى إلى أن يقوم المجمع اللغوى فى مصر بإحياء الأدب القديم ، وهذه الفكرة لها خصوم ولها أنصار ، فإن انتصرت يوما فسيحيا الأمل فى بعث الأدب ، أما الجهود الحاضرة ، جهود الأدباء الذين ينشرون مايقدرون على نشره من قديم المؤلفات ، فهى جهود مشكورة ولكنها لن تصل بنا إلى مانريد . وحسبك أن تذكر أن أدباء هذه الأيام لاينشرون من المؤلفات القديمة إلا مايعرفون أنه قريب من أذهان المتأدبين لتعرف أن هذا النوع من النشر سيقف عند الكتب التى تكثر فيها الأشعار

والأسمار والأحاديث ، ثم يعجز عن طبع الكتب العلمية التي لا تجد جمهوراً كبيراً من القراء

وقد جربت هذا بنفسي فأحييت كتاب زهر الآداب وأحييت « الرسالة العذراء » أما زهر الآداب فقد راج وطبع مرتين ، وأما الرسالة العذراء فلا تزال نسخها مكدسة في بيتي ، ولا أعرف أين أصرّفها ، لأنها تبحث مسألة أدبية دقيقة لا يهتم بها غير الخواص ، والخواص في الأمم العربية لا يحيا بهم كتاب ، لأنهم يدّعون الإحاطة بكل شيء ، وأكثرهم يضنّ على نفسه بكتاب ثمنه خمسة قروش!

وما جربته بنفسي جربه أكثر المعاصرين ، فهم يقفون فيما ينشرون عند الكتب التي يفهمها الجمهور ، ويحجمون عن نشر الكتب التي تنفع الخواص

وهل هناك أعجب من قصة السيد رشيد رضا مع كتاب دلائل الإعجاز ؟ لقد حدّثنا في مقدمة الطبعة الثانية أنه لولا عناية وزارة المعارف لظلت الطبعة الأولى مهجورة لا تعرف غير الصناديق ، وكذلك كان حال كتاب « أسرار البلاغة » الذي لم تنفد طبعته الأولى ، مع أنه نشر منذ ثلاثين عاما أو تزيد . . . فيا صاحب مجلة الحديث تذكّر أن الأدب القديم لن يظفر بالحياة إلا إن وجدت له هيئة حكومية تسترخص في سبيله الألوف المؤلفة من الدنانير ، وتفرضه على الطلبة ، والأساتذة أيضاً ، إلى أن يخلق الذوق الأدبي

الذى يحبب إلى الأفراد قيمة التضحية فى هـذه السبيل

* * *

وأما نقل المؤلفات الأوربية إلى اللغة العربية فلى فى شأنه اقتراح قديم أخذت به وزارة المعـارف المصرية فى عهد الوزير الأسبق محمد حلمى عيسى باشا وألفت لجنة لتنفيذه ، ثم سكتت عنه بعد أن فارقها ذلك الوزير . وخلاصة ما اقترحته على الوزارة أن تفرض على كل طالب من أعضاء البعثات أن يترجم إلى اللغة العربية كتابين من أمّهات الـكتب فى العلم الذى يخصص فيه ، ثم لا تعدّ بعثته قد تمت إلا بعد أن يؤدى هـذا الواجب ، أى لا يمنح ترقية أو علاوة بعد عودته إلا يوم يتضح أنه نقل إلى أمّته شيئاً من العلم بترجمة كتابين عظيمين .

وكان من فروع هذا الاقتراح أن تقوم الوزارة بطبع تلك المترجمات ثم توزعهـا على المدرسين والموظفـين والمتأدّبين بثمن مقبول ، وكان من رأيي أن تخصم الحـكومة من كل موظف عشرة قروش فى كل شهر ، ثم تعطيه فى مقابل ذلك نحو عشرة كتب فى كل عام ، وبذلك تفرض الثقافة العلمية على جمهور الموظفين ، ثم تنتقل العـدوى العلمية إلى أبنـائهم وإخوتهم ومن يتصلون بهم من الشباب والـكهول .

ولا أزال أعتقد أن هـذا الاقتراح سهل التنفيذ ، فهل يمكن بعثه مرة ثانية بفضل نشره على صفحات الحديث ؟

أرجو إن راقكم هذا الرأى أن تكتبوا فى تأييده مرة أو مرتين ، فإن الذكرى تنفع المؤمنين ، والسلام .

الاسمار والاحاديث[1]

فى ليالى رمضان

أيها السادة

إن الشوق إلى السمر فى رمضان هو شوق قضت به طبيعة الحياة لأن الناس يكادون يمسكون عن الكلام فى أيام الصيام من فرط التعب والإعياء، فإذا جاء المغرب وأفطروا رجعت إليهم الحيوية، وتشوفوا إلى مطلول الأحاديث. والإنسان حيوان ناطق، كما تعرفون، ناطق بالفكر وناطق باللسان، والكلام عند الإنسان هو مادته الأولى من اللهو واللعب وهو مسلاته وملهاته فى أكثر الأحايين

أضيفوا إلى هذا أن الناس يحتاجون فى ليالى رمضان إلى انتظار السحور، وهم لا ينتظرونه ساكتين، وإنما يتعاونون على السهر بأطايب الأسمار والأحاديث

ومن الحق أن نذكر أن الكلام يستعمل أيضاً فى تزجية أيام الصوم، والتاريخ يحدثنا أن علماء المسلمين كانوا يقطعون أخريات النهار بالجدل والمناظرة فى الشؤون الدينية واللغوية، ومن شواهد ذلك ما حدثنا الصاحب بن عباد من أنه كان يرى العلماء يتجادلون

---

(١) أول محاضرة ألقاها المؤلف بالاذاعة العراقية

فى قصر ابن العميد بعد العصر فى رمضان ، فإذا اقترب المغرب انقلبوا إلى بيوتهم ، وكانت هذه الحال مما ضايق ابن عباد ، فنذر إن أقبلت عليه الدنيا ليحجزن العلماء إلى ما بعد الفطور ، ثم قضى الحظ أن يكون وزيراً فكان العلماء يحضرون عنده بعد العصر فى رمضان للجدل والمناظرة ، فإذا أذن المؤذن مُدّت لهم الموائد فأكلوا وشربوا ثم قضوا السهرة إن شاءوا فى السمر والحديث

ومن قبل ابن العميد وابن عباد كانت المساجد تمتلىء بالناس بعد العصر فى رمضان ، وكان الواعظون والقصاص يلهون الناس عن متاعب الصوم بفضل ماينثرون عليهم من العظات والأقاصيص . ولو راجعنا التاريخ لحدثنا عن شواهد ذلك من أخبار المساجد فى البصرة والكوفة وبغداد

ولاتزال هذه السنة متبعة فى الديار المصرية . ورحمة الله على الشيخ محمد غريب الذى كان يلهينا ويشجينا بشرح الأحاديث فى مسجد سنتريس ، ورحمة الله على الشيخ الرفاعى الذى كان يأتى بالعجب وهو يلقى العظات بعد العصر فى مسجد سيدنا الحسين

وكان لعلماء القاهرة سنة مرضية ، فقد كان منهم من يذهب إلى المسجد بعد السحور ثم يحدث الناس إلى صلاة الصبح ، ولهم فى ذلك نوادر يضيق عن سردها هذا الحديث

ولا أستطيع أن أزعم أنى قادر على وصف مايقع فى بغداد من

الأسمار والأحاديث فى ليالى رمضان ، فإنى لم أشهد فيها شيئاً من هذا النوع ، ولا أزال بفضل انقطاعى للدرس وانعزالى عن الناس كالشاعر الذى يقول :

يا أيها السائل عن منزلى ... نزلت فى الخان على نفسى
آكل من خبزى ومن كسرتى ... حتى لقد أوجعنى ضرسى

فاسمحوا لى أن أحدثكم عما يقع من ذلك فى البلاد التى يرويها النيل ، وأكاد أجزم بأنّ جميع الناس فى القرى المصرية يقطعون أمسياتهم فى تبادل الزيارات ، ولهم فى ذلك طرائق لطيفة تتمثل فى الوفود التى تنتقل من بيت إلى بيت ومن دوّار إلى دوّار ، والدوّار فى بلادنا هو المضافة الكبيرة التى يسمر فيها الأهل والأقربون ويتلقون فيها الضيفان

أما القاهرة فلها أحوال ، فقد كانت إلى نهاية الجيل الماضى تعرف التزاور فى البيوت ، ثم قلّت هذه العادة الحسنة رويداً رويداً حتى كادت تتقلص ، ولم يبق فيمن أعرف من ينتظر الناس بمنزله فى ليالى رمضان إلا العدد القليل

فمنذ خمسة عشر عاما كان فى القاهرة منزل الصوفانى بالحلمية الجديدة ، وكانت لذلك المنزل تقاليد ، وإنما خصصت ذلك المنزل بالذات لأن رمضانياته كان لها أثر فى الحياة السياسية والاجتماعية وفى هذه السنين لا أعرف فى القاهرة منزلاً يحافظ على تلك

التقاليد غـــير منزل عبد الرازق وهو المنزل الذى يعمر اليوم بالأخوين النبيلين على عبد الرازق ومصطفى عبد الرازق ، فى ذلك المنزل تلتقى الوفود فى كل مساء ، وفيه تجرى أطيب الأسمار وأظرف الأحاديث ، وفى ذلك المنزل تلقى من تشاء من الرجال فتحادث الشيخ الزنكلونى ولطفى باشا السيد والدكتور منصور فهمى والدكتور طه حسين .

وهناك منزل فى حىّ السكرية هو منزل القاياتى ، وقد خلا من الغطاريف البهاليل ، ولم يبق فيه من الخير إلا وجه الشاعر المطبوع السيد حسن القاياتى . ومن طرازه منزل السيد عبد الحميد البكرى الذى كان مرجع الصوفية إلى عهد قريب والذى شب فيه صاحب صهاريج اللؤلؤ ، نضر الله مثواه .

* * *

فإن سألتم وأين يلتقى أدباء القاهرة فى ليالى رمضان فإنى أخبركم بأن ذلك لا يقع إلا فى المقاهى والأندية ؛ ولكل أديب مشهور مقهى خاص ؛ فالشاعر محمد الهراوى ينتظر إخوانه فى مقهى لونابارك . واللغوى محمد وحيد الأيوبى ينتظرهم فى مشرب السلام، والصحفيون يسمرون فى بار اللواء . وكذلك تهجر البيوت وتوصل المقاهى فى ليالى رمضان .

ولكن من العدل أن ننص على أن تلك المقاهى سيكون لها

تأثير عميق فى الأدب الحديث ، وهل يمكن تناسى صولات الجدل فى قهوات شارع عماد الدين؟ هل يمكن أن نتناسى قهوة ريجينا حيث يسمر الممثلون والفنانون والصحفيون ؟ هل يمكن أن نتناسى بار اللواء وفى أجوائه رنّت أصوات محمد هلال ومصنور فهمى ومحجوب ثابت وحفنى محمود ومحمد خالد وأنطون الجميّل وداود بركات ؟

إن تلك المقاهى خليقة بأن تعدّ فى طليعة الأسواق الأدبية التى تذكر بالمربد وعكاظ ، وهى بفضل من تعرف من الكتاب والخطباء والشعراء والفنانين والمفكرين خليقة بالبقاء ، ففيها تجرى الطرائف من أطايب الأسمار والأحاديث ، وفيها تحيا فنون الأدب الرفيع .

وما يصح أن توصف به مقاهى القاهرة ينطبق تمام الانطباق على مقاهى الاسكندرية ، فهناك القهوة التجارية التى يسمر فيها أدباء الثغر على ذلك الشاطئ الجميل .

ولأسمار الاسكندرية لون خاص ، فشعراء الاسكندرية هم اليوم يتفردون بإحياء فن الدعابة الأدبية ، وهى دعابة طريفة يتفق لها فى أحيان قليلة أن تقارب الهجاء ، وليالى الاسكندرية لها فى أنفس القاهريين مكان ، ومنهم من يرحل إلى هناك ليقضى ليلة أو ليلتين فى الاستماع إلى محاورات الأساتذة عبد اللطيف النشار

وعثمان حلمى وعلى البحراوى وخليل شيبوب ولا سيما بعد أن انتقل الدكتور أبو شادى إلى شاطئهم الساحر فأهدى إليه مادة نفيسة من الجدل العنيف .

هنالك أيها السادة يقع الشعراء بعضهم فى بعض ، ويتقارضون الهجو فى المحضر والمغيب بألسنة عذاب فصاح . ومن شمائل أولئك الشعراء صدق العطف على أدباء القاهرة فهم يلقونهم بالترحيب ويمتعونهم بأطايب السمك وأطايب الحديث .

ولا بدّ من الإشارة إلى أن لسمار القهوة التجارية فى الاسكندرية أشباهاً فى القاهرة ، هم السمار الذين يعرفون لجنة الترجمة والنشر والتأليف ، حيث تطيب النكتة على ألسنة أحمد أمين وعبد الحميد العبادى ومحمد عوض ، وحيث ترهف الآذان من أمثال الأساتذة أحمد زكى وأحمد حسن الزيات .

ولسمار الاسكندرية أشباه غير هؤلاء . وهم سكان البعكوكة الأرضية بدار الكتب المصرية ، حيث يلتقى الأساتذة محمد الهراوى وأحمد رامى وأحمد الزين وعبد الله حبيب .

ولكن هذه البعكوكة نهارية ، فياليت شعرى كيف يصنعون فى رمضان !

* * *

أما الأندية الأدبية فهى منثورة فى مختلف الحواضر المصرية ،

وأشهرها جمعيات الشبان المسلمين ، وأندية الموظفين ، وهى مختلفة الألوان فمنها مايخوض فى شؤون المجتمع ، ومنها مايخوض فى شؤون الأدب ومنها مايشرح أصول الدين ، وفيها تيارات اجتماعية وسياسية يصعب الكلام عليها فى هذا الحديث ، ويكفى أن نذكر أن حياتها الليلية تعتمد على السمر الطريف ، وتهتم فى الأغلب بسماع المحاضرات أو الإقبال على ماينشر المذياع من أغان وأحاديث .

* * *

بقى أن نشير إلى الجرائد الهزلية فى مصر ، فلها لون طريف فى أيام رمضان .

لقد كان من عادة الناس فى مصر أن يختصوا هذا الشهر بنوع من الحلوى اسمه قمر الدين ، وهو دائماً مادة الفكاهة فى الجرائد الهزلية ، وقد اتفق مرة أن أرسل أحد الموظفين هدية إلى حضرة صاحب العزة عوض بك إبراهيم وكيل وزارة المعارف ، فعدّها رشوة وأبلغ الأمر إلى النيابة ، فكتب الأستاذ حسين شفيق المصرى يقول : إن هذه من أقوى دلائل النزاهة فى عوض بك إبراهيم ، ولا سيما إذا تذكرنا أن الهدية كانت فى رمضان وأنها من قمر الدين !

ونشرت إحدى الجرائد عن رجل مشهور أنه تناول الغداء فى القناطر الخيرية ، وكان ذلك فى رمضان ، فكتب أحد الأدباء فى

تأنيبه يقول : ألم تسمع أننا فى رمضان ؟ ألم تسمع وحوى وحوى أيوحه ؟ ألم يطبخوا فى بيتكم قمر الدين ؟

ولكن قمر الدين ، مع طلعته البهية ، تقلصت دولته ، وحلت محله الكنافة ، على وجهها أزكى التحيات ، فمن شاء منكم أن يزور مصر فليكن ذلك فى رمضان ، ليمتع عينيه بمنظر الكنافة ؛ فلها وجه خمرىّ جميل !

وقد يكون من الفكاهة أن أحدثكم أن الكنافة تقوم فى مصر بعمل قومىّ جليل ، فإخواننا المسيحيون يدعون كثيراً لتناول الكنافة مع إخوانهم المسلمين فى رمضان ، وأكثرهم يتوهم أن جنة المسلمين ستكون مملوءة بالكنافة ، وأنا لذلك أرجو أن يهديهم الله جميعا للإسلام فيجتمعوا على الكنافة هنا وهناك .

* * *

سيداتى وسادتى

تلكم كلمة موجزة عن أسمار رمضان ، فإن راقتكم فبها ونعمت وإن لم ترقكم فاعذرونى ، فقد فارقت فى مصر أصدقاء أعزاء ، منهم السيدة كنافة والسيد قمر الدين ، والمرء حين يبعد عن أعزائه تفارقه بلاغة القلم وفصاحة اللسان !

من صديق الي صديق

أخى الأستاذ مدحت عاصم

أتذكر المثل القديم : واحدة بواحدة جزاء

أنت تذكر هذا المثل ولا ريب ، فلتعرف أنى سأجزيك مفاجأة بمفاجأة ، وكلمة مفاجأة كلمة جافية ، ولكنهم اصطلحوا عليها لتؤدى معنى الكلمة الفرنسية (Surprise) تلك الكلمة اللطيفة التى كنت أجد فيها أطيب الجزاء على ما أقدم من الهدايا لمعشوقاتى فى باريس

والمفاجأة هى أن تكون أوّل قارئ لهذا الخطاب فى جريدة الصباح ، لأن محطة الإذاعة هى أوّل من يقرأ جريدة الصباح ، وهل نسيت ياشيطان يوم كنتم ترسلون من يترقبها فى ميدان الأزهار لتطلعوا قبل سائر الناس على مايقال فيكم ؟ وهل نسيت أنكم مع ذلك لم تنتفعوا أبداً بما يوجه الناقدون إليكم ؟ وهل نسيت أنكم هجرتمونى هجراً غير جميل لأنى أُغرمت بتعقبكم فى جريدة البلاغ ؟

المفاجأة هى أن تقرأ خطاباً لم تكن تنتظره على صفحات الصباح وذلك هو الجزاء على المفاجأة التى روعتنى بها فى بغداد

وأشهد أنى كنت أترقب كل خيال ، وأتشوف إلى كل وهم ، وأنتظر كل مستحيل ، إلا أن أتلقى فى بغداد خطاباً من الفنان مدحت عاصم ، أخى وصديقى ومولاى

وإنما كان الأمر كذلك لأنى نفضت منك يدى منذ أعوام طوال . واليوم من هجرك كألف سنة مما تعدّون

نفضت يدى منك لأنك طغيت وتمرّدت ، ونسيت ماقضينا من الأسمار فى الليالى السود والبيض ، حين كان أهلك الأكرمون لايعرفون السبيل إلى قلبك المتمرد إلا بشفاعة الدكتور زكى مبارك أشرف صديق عرفه أهلك فأحبوه ، واطمأنت إلى مروءته تلك السيدة النبيلة وذلك السيد النبيل ، وأنت تعرف من أعنى

وفى خطابك عبارات لايقولها إلا رجل فى مثل كرمك ونبلك فاسمح لى أن أسجل بطريقة علنية أنّ روحى كان له تأثير قوىّ فى الفن القهار الذى تذيعه أنامل الفنان مدحت عاصم ، فليس من القليل أن يكون لروحى فضل على فنان مثلك ، وإنى لأعرف أننى أدخلت البهجة والأريحية على العصر الذى ظهرت فيه ؛ ولكننى لن أجد من يذكر فضلى غير آحاد ، وأنت أولئك الآحاد

فهل أستطيع أن أطمئن إلى أنك لاتبدأ ألحانك بمحطة الإذاعة قبيل منتصف الليل إلا لأن سهراتنا الوجدانية كانت لاتبتدئ إلا قبيل منتصف الليل ؟

هل أستطيع أن أطمئن إلى أنى أخطر ببالك حين تمزج دموعك بألحانك ؟

هل أستطيع أن أطمئن إلى أنى كنت مصدر الوحى لأكثر ماتذيع من الألحان ؟

هل أستطيع أن أطمئن إلى أننا سنسمر مرة واحدة بعد الألف فى ذلك المنزل الجميل ؟

مدحت - أفى الحق أنك رجعت إلى منزل الأهل ؟ أفى الحق أنك شبعت من الشطط والجموح ورجعت إلى ذلك المنزل الجميل الذى كانت تظلنا ظلماؤه فى غفوات الليل ؟

إنك تذكر فى خطابك أنك رجعت إلى تلك الحديقة ، فهل هذا صحيح ؟

وهل تذكر ، ياجاحد ، تلك الحديقة ؟

هل تذكر كيف كنت أرجوك أن تطفئ الأنوار لنتمتع بظلام الليل ؟

لقد آن الأوان لأحدثك عن السبب ، فقد كان يسرنى أن تلعب أناملك على العود فى الظلمات لأخفى عنك دموعى ، دموع الوجد الذى يثيره فنك المطلول .

ثم جدّت أحداث وخطوب نسيتك فيها ونسيتنى ، إن كان النسيان يجوز على قلب مثل قلبى ، ولعل الأستاذ حسن السندوبى ، الأديب الساخر ، لايزال يذكر أننى أتعبت قدميه فى ليلة شاتية

لنصل إلى منزلك ، وما وجدناك ، وقد ظل يسخر مني زمنا غير قليل ، ولعله لايزال يسخر من سذاجتي إلى اليوم !

مدحت ، لقد بدا لك أن تقارن بين فني وبين فنك ، فني في البيان وفنك في الألحان ، وأنت ترى أنني اجترفت ما وقف في طريقي من حواجز وأسداد ؛ فاسمح لي أن أسجل أنني لم أنتصر وحدي ، وإنما انتصرت معك ، فأنت أيضا من المنتصرين ، على ماتدّعيه لنفسك من الخمول ، وهل من القليل أن يبقى مكانك في محطة الإذاعة بضع سنين وهي أخطر وكر من أوكار الدسائس ؟ إن إخوانك — وأنا منهم — أحجموا عن مناصرتك فمضيت تشق طريقك بيديك ، وسيذكر عالم الفن ، إن كانت له ذاكرة ، أنك كنت في طليعة النوابغ .

مدحت ، لك في عنقي ديون ، فقد أوحيت إلى قلبي كثيرا من المعاني . ولكني سأجزيك خير الجزاء حين أقدم إليك المذكرات الطريفة التي خطتها يمناك في التشوق إلى أخيك .

وبعد ، فهل أستطيع أن أسألك عن حال الصديق السخيف الذي يسمونه الموسيقار محمد عبد الوهاب ؟ هل أستطيع أن أسألك ماحاله في دنيا غرامه الأثيم ؟

لقد نسي هذا الصديق السخيف فضلي عليه ، ونسي موقفنا فوق بحيرة أنجان ، ونسي أيامنا في باريس وهو يخرج الوردة البيضاء ،

ونسى القصيدة التى نظمتها فيه وأنا فى القطار من باريس إلى ليون، ويظن هـذا الصـديق السخيف أن كسب المـال أفضل من كسب القلوب ، تبت يداه ، ماأشقاه !

هل أستطيع أن أسأل عن صحة المغنية (حياة محمد) التى وعـدتها فأخلفتها وما وعدتنى فأخلفتنى ؟ هل أستطيع أن أسأل عن رباعى العقاد ؟ هل أستطيع أن أسأل عن الفتاة التى تلقى محاضراتها عندكم بصوت أرق من بغام الظباء ؟

مدحت ، حـدثنى عن لحيتك ، لعنها الله ، ألا تزال فى صحبتك ؟ والأستاذ سعيد بك لطفى كيف حاله ؟ وعزيز رفعت ، وعلى خليل، والصديق الغادر عبد الحميد الحديدى ، كيف حال هؤلاء الأعزاء ؟ وشارع علوى أين يقع ؟ وبار اللواء أين يكون ؟ وخلدون أين يجلس ؟ وحفنى محمود أين يلعب ؟ والشناوى أين يغرد ؟ وجبريل أين يمزح ؟ وهيكل أين يؤمن ؟ وطه حسين أين يشك ويرتاب ؟ ؟

أرانى اشتقت إليكم ، وأقسم ماقادنى الشوق إلا إلى ناس هم مثال الغدر والجحود والعقوق .

صورة آمال ....

صديق رئيس تحرير البلاد

تفضلتم فطلبتم منى صورة العشماوى بك وصورة كريمته آمال وأستطيع أن أمن عليكم فأقول إن وقتى لم يكن يتسع لطلب هاتين الصورتين ، فإنى مشغول جداً ، ويكفى أن تعرفوا أنى أشغل مطبعتين من كبريات المطابع فى بغداد ، ولكنى صحفى قديم ، صحفى يعرف حقوق الزملاء ، ويرى من واجبه أن يعينهم على حقوق صاحبة الجلالة كلما دعاه الواجب . وأنا أقدم إليكم صورة العشماوى بك ، أما كريمته آمال فقد رفضت إعطاء صورتها بقوة وعنف ، ودعاها أبوها إلى مطاوعتى فلم تجب ، وتلطف فقال لها إن الدكتور زكى مبارك مصرى كبير تجب طاعته فلم تطع ، وأصرت على أنها فتاة لا ترضى عن نشر صورتها فى الجرائد ولو دعاها إلى ذلك ألف رجل من أمثال الدكتور زكى مبارك ، فما رأيك ياصديقى إذا قدمت إليك من تلك الفتاة صورة قلبية هى أدق وأصدق من الصورة الشمسية ، لتعرف أن الأدباء لايسلم من «خيرهم» مخلوق ؟

أنا أعرف أنها ستغتاظ ، ولكن ماذا يضيرنى من ذلك ؟ هل تستطيع إفساد مابينى وبين أبيها ؟ هيهات ! هل يضيع الحظ السعيد

فى امتلاك منطقة من قلبها الخفاق ! وكيف وهى لاتزال طفلة وأنا أومن بأن المرأة لاتستطيع أن تنقل القلب من مكان إلى مكان إلا بعد الثلاثين ؟ ،

هاك ، ياصديق ، صورة الآنسة آمال :

فتاة غريرة بكليـة الحقوق ، لها وجه أسمر يشهد بأن السمرة قد تـكون أكثر جاذبية من البياض ، ولهـا لسان عذب يرشحها لأن تـكون أفصح الفتيات ، ولها فم يضمن كنزاً ثميناً ، ففيه ثنايا لؤلؤية قليلة الأمثال ، وبالرغم منى أن أصرح بأنى لا أملك التغزل بتلك الثنايا اللؤلؤية ، لأن والد تلك الفتاة من أساتذتى ، وللأساتذة على تلاميذهم حقوق ، وإن كنت لا أدرى كيف يـكون التغزل من المحـــــرمات .

والآنسـة آمال على جانب عظيم من الذكاء ، وما يسرنى أن أشهد لها بذلك ، ولـكنى مصور أمين .

وهى تجلس على المـائدة فى المكان الذى يقابل مكان أبيها فلا تدرى لمن الصدر : أهو الأستاذ العشماوى أم الآنسة آمال !

ولو كان أبوها من أهل الغطرسة لقلت إن المقادير تنتقم منـه فتحكم فيه طفلة لا تملك غير صباحة الوجه وسلامة الذوق وقوة الذكاء ، ولـكنه رجل يمثل الأدب وطيبة القلب ، فـكيف جاز أن تتحكم فيه تلك الطفلة السمراء ؟ .

ومن خصائص تلك الفتاة أنها تحب أباها حباً شديداً ، ولكن محبتها إياه تتمثل فى التمرد والعصيان ، فهل تدرك بفطرتها أنه كان من عبيد الجمال فى صباه ؟ .

ولهذه الطفلة التى أبغضها غرام عجيب بتعقب آثار الكتاب والشعراء والمؤلفين ، وقد أرغمتنى سامحها الله على أن أقدم إليها جميع الجرائد العراقية ، فتكلفت فى ذلك ما تكلفت ، وكنت أحسب أنى سأشغلها يوما أو يومين ثم هالنى أن تستوعب ذلك المحصول كله فى نصف ساعة ، وأن ترهقنى فى بقية السهرة بنقد صحافة العراق .

والآنسة آمال نحيفة جداً ، وربما كان السبب فى ذلك أنها قضت أربعا وعشرين ساعة فى طريقها من الشام إلى العراق فسرقت نحافة الجسم من غزلان الصحراء .

والعجيب من أمر هذه الآنسة أن تكون من أعضاء المؤتمر الطبى ، فهل رأيتم أغرب من ذلك ؟ .

فماذا تريد أن تصنع ؟ هل تشترك فى الطب للأكباد والقلوب ؟ .

أحب أن أعرف ماذا تصنع هذه الفتاة فى المؤتمر الطبى وقد كوت كبدى ، كوته بالغيظ لا بالحب ، فلست من المجانين حتى تفتننى فتاة لا تملك غير قوة الذكاء وحلاوة الحديث ، وإن شهدت ملامحها بأنها ستكون من غرائب الجمال .

أما بعد فقد آذتنى تلك الآنسة أعنف إيذاء ، حين رفضت أن

تعطيني صورتها . فلتعرف الآن أني أكرم منها وأسمح لأني أقدم إليها صورتها بلا ثمن ، وكل ما أرجوه أن تغتابني في حضرة أبيها ، لأني أحب أن أذكر عنده ولو بملام

آمال ، آمال

لا تغضبي ولا تعتبي ، فلن تفرغي من دروسك العالية في كلية الحقوق ولن تبلغي مبالغ النساء حتى يكون اسمي (بابا زكي) وأنا منذ اليوم (بابا) له زوجة وخمسة أبناء .

فياأيتها الفتاة الغالية ، وياقرة العين لرجل هو أكرم أساتذتي وأعز أصدقائي ، تذكريني حين تعودين إلى الجامعة المصرية ، تذكري أني أحب أن أقبّل تلك الجدران ، وأني أشتهي أن أكحل عيني بتراب الجيزة والزمالك ، تذكري يا آمال أن الدمع يفيض من عيني كلما تذكرت أن لي طفلة لها وجه مثل وجهك الجذاب ، ولها جبين مثل جبينك المشرق ، وفي شمائلها عناد مثل عنادك المحبوب ، تذكري أيتها الفتاة أني رأيت وجه مصر الغالية حين رأيت وجهك الغالي ، تذكري أني عذرت أباك حين رأيته يعطيك طاعة المحب لمن يحب ، فلي أبناء كنت عند هواهم في جميع الأحوال .

اعذريني أيتها الآنسة النبيلة إذا قدمت صورتك لجريدة عراقية فمن الخير للمرء أو المرأة أن يذكر ولو بالشر في أرض العراق حفظك الله لوالديك ، ورعى إخوتك الأعزاء ، والسلام .

دروس الادب

فى المعاهد العالية

المعروف أن المعاهد العالية للتخصص : فهذا معهد يخرج الأطباء ، وذاك معهد يخرج الرياضيين والمهندسين ؛ وذلك معهد يخرج رجال الأدب أو رجال التشريع .

والتخصص من مزايا هذا الزمان ، ومن آفات هذا الزمان

هو من المزايا لأنه يقصر طوائف من الناس على طوائف من العلوم ، فنعرف إلى من نتوجه ومع من نتحدّث ، فيذهب من يشكو الرمد إلى طبيب العيون ، ويمضى مهيض الساق إلى الجرّاح ، ويتوجه الممعود إلى الطبيب المختص بالأمراض الباطنية ، وكذلك يفعل من تحرجه معضلة هندسية ، أو مشكلة قانونية .

وهو من الآفات لأنه يورث الناس ضيق الذهن ، وفقر العقل وخمود الإحساس ، فالمهندس لا يرى من واجبه أبداً أن يفكر فى تهذيب ذوقه بالنظر فى بعض المؤلفات الأدبية أو الفنية ، والمشرّع لا يرى من واجبه أبداً أن يحرص على تثقيف عقله بالنظر فى بعض المصنفات الرياضية أو الطبية ، والأديب يرى أنه لم يخلق إلا لدرس آثار الشعراء والكتاب والوقوف على ألوان الأساليب .

وقد انتهز المتخصصون فرصة الغفلة الفاشية فى هذا العهد فأعفوا انفسهم من كل مايعود بالنفع على الذهن والعقل والذوق ، فصار الأديب يجالس الطبيب فلا يحس أنه يخاطب رجلا من أهل هذه الأرض ، وإنما يخاطب مخلوقا من سكان المريخ ، وصار أستاذ الأدب ينكر على طلابه أن يوجهوا إليه سؤالا فى مشكلة نحوية أو صرفية ، لأنه فيما يزعم غير مسئول عن علوم المبرد والكسائى وسيبويه ، وإنما هو رجل تخصص فى درس آثار الكتاب والشعراء والخطباء ، وصار المحامى أو القاضى لايسوءه أن يجهل الأوليات من المسائل الأدبية أو العلمية .

* * *

ذلك تصوير لمزايا التخصص ومساويه ، وتصوير لأحوال المتخصصين فى هذا الزمان .

وأقول بصراحة إنى ثائر على التخصص الذى يصل بأصحابه إلى ذلك الحد من ضيق العقل ، وقد حملت على هذا الضرب من التخصص أعنف الحرب ، وكلفت نفسى ماتطيق وفوق ماتطيق فى الطواف بعلوم كثيرة كان لها أثر ظاهر فيما أخرجت من المؤلفات الأدبية والفلسفية ، وأحب أن يكون طلاب العلم والأدب فى هذا الزمن من الثائرين على الإسراف فى فهم التخصص ومن المقبلين على المشاركة فى جميع الفنون ، وإليهم يساق البيان :

كان أقطاب العلماء فى الزمن القديم يجهلون التخصص ، أعني أنهم لم يكونوا يقصدون إليه قصداً ، وإنما كانوا ينتهون إليه وفقاً لوحى الفطرة والطبع ، فالعلماء الخالدون من أمثال أرسطاطاليس وأفلاطون وابن سينا والفارابى وابن رشد والجاحظ وابن خلدون والقلقشندى ومحمد عبده وعبد العزيز جاويش ، هؤلاء العلماء فى التاريخ القديم والمتوسط والحديث لم يكونوا يعرفون التخصص ، وإنما كانوا يفهمون أن من واجبهم أن يطلعوا على ما يمكن الاطلاع عليه من المعارف الإنسانية .

ولا يجهل أحد أن أمثال أولئك العلماء كانوا على جانب عظيم من التفوق والبصر بحقائق الحياة .

وقد أشرت إلى أنهم انتهوا إلى التخصص بوحى الفطرة والطبع ولم يسمحوا لأذهانهم وعقولهم بأن تنصرف عمداً عما تتطلع إليه الأذهان والعقول ، فكان لثقافتهم الواسعة أثر فيما تخصصوا فيه ، وكان اطلاعهم الشامل يفتح لهم فيما تخصصوا فيه أبواباً للبراعة والسبق والتفوق .

وهل يستطيع المتحذلقون من شبان اليوم أن يفقهوا كيف كانت ثقافة ديكارت وباسكال ؟

وهل فيهم من يدرك كيف كانت ثقافة سبنسر أو كيف كانت معارف أناطول فرانس ؟

وما أدعو إليه اليوم كنا حاولناه مرة فى الجامعة المصرية ، ثم أخفقنا بفضل الحذلقة التى تغلب على شبان هـذه الأيام ، فقد كان تقرر أن لا يدخل الطالب كلية الحقوق إلا بعد أن يمضى سنتين فى كلية الآداب ، وأن لا يدخل الطالب كليـة الطب إلا بعد أن يمضى سنة فى كلية العلوم ، وسارت الجامعة المصرية على هذا النظام أعواما قليلة ، ظهر أثرها فى طوائف من المحامين والأطباء . ثم أسرف الطلبة فى الصرخ فأعفتهم الجامعة من ذلك النظام المفيد ، ومن الواضح أن ذلك النظام كان فى جوهره حرباً على الإسراف فى فهـم التخصص ، فقد كانت الجامعة تفهم أن طالب الحقوق لا يمـكن أن يبرع فى فهم أسرار القوانين إلا إن أمضى سنتين فى كليـة الآداب يدرس فيهما علوم اللغة العربية وعلم النفس وعلم الأخلاق ويتعمق بعض التعمق فى اللغات الحية وفى الجغرافيا والتاريخ

وكانت الجـامعة تفهم أن طالب الطب لا يعتمد عليه إلا إن أمضى سنة فى كلية العلوم يدرس فيها الطبيعة والـكيمياء والرياضة درس الفهم والتثبت ليـكون فى المستقبل من الأطباء العلماء .

* * *

ونحن اليوم نحاول أن نضع للحياة العلمية فى العراق أصولا من التقاليد الصالحات ، فهل ترون من الخير أن نحقق ما عجزت عن تحقيقه الجامعة المصرية ؟

ما الذى يمنع من ذلك ؟ أفى الحق أن وزارة المعارف العراقية قد تلاين الطلبة كما صنعت وزارة المعارف المصرية ؟

ولكن إلى أن يتحقق ذلك الغرض المنشود أرى أن يفرض درس الأدب العربى على جميع الطلاب فى المعاهد العالية ، وإليكم موجبات هذا الاقتراح

أولاً — نحن فى العراق نحاول جهد الطاقة أن نعيد مجد الأسلاف فى حيواتهم العلمية والأدبية والفلسفية ، وكان أسلافنا جميعاً معروفين بالتفوق فى اللغة العربية . فما كان فيهم طبيب ولا مهندس ولا مشرع إلا وله آثار نظمية ونثرية تشهد ببراعته فى الأدب والبيان .

ثانياً — نحن نحاول نقل العلوم الحديثة إلى اللغة العربية : وهذا يوجب أن يكون الرياضيون والمهندسون والمشرعون والأطباء قادرين أتم القدرة على التعبير باللغة العربية تعبيراً يذكّر بابن سينا وابن رشد وابن البيطار والغزالى والكمال بن الهمام وإمام الحرمين .

ثالثاً — سيكون أكثر أبنائنا من شبان العراق مدرسين فى المدارس الثانوية والمعاهد العالية ، وهؤلاء لا مفرّ لهم من أن يشعروا تلاميذهم بأنهم يتكلمون لغتهم العلمية ، كما يتكلم المدرسون الأوروبيون لغتهم العلمية .

رابعاً — سيكون أكثر أبنائنا من شبان العراق مسئولين عن تثقيف الجمهور ، وهذا الجمهور لغته العربية ، وهو فى بعض أحواله يفهم لغته بأدق مما يفهمها المتحذلقون من شبان هذا الزمان .

* * *

أما بعد فانه من العيب أن يقع ما عبته مرة على أستاذ مصرى ألف كتابا فى علم النفس فكانت مراجعه كلها إنجليزية ، ولم يشر مرة واحدة إلى رسائل إخوان الصفاء ، مع أن فى تلك الرسائل كثيرا من أمهات المسائل فى علم النفس وعلم الأخلاق .

ومن العيب أن يقع ما سمعت من أن مكتبة كلية الحقوق فى بغداد ليس فيها نسخة من شرح فتح القدير على الهداية ، ومن العيب أن يستغرب بعض الطلبة فى دار المعلمين العالية أن أكلفه درس مسألة فقهية ، مع أن الفقه جانب من الأدب يصور مشكلات المجتمع فى الحواضر الإسلامية .

ومن هذا يرى القرّاء أن أفق الأدب أوسع مما يظنون ، وأنه واجب كل الوجوب فى تثقيف جميع الطلاب .

الفن المصرى في العراق

صديق

أقدم إليك أصدق التحيات ، وأذكر بالحمد الجزيل تلك التحية النبيلة يوم حضرت ومعك جميع الأساتذة المحررين بالصباح لتوديعى بمحطة القاهرة يوم الرحيل إلى العراق .

وبعد فقد كان فى النية أن أحدثكم عن معركة أدبية أثارتها مجلة الصباح فى بيروت ولكننى اليوم أسارع فأحدثكم عن الفن المصرى فى العراق ، وأؤجل الحديث عن تلك المعركة إلى حين .

وأرجو ألا تدهش حين ترانى أتحدث عن الفن المصرى بروح العطف ، فقد علمتنى الغربة أشياء كثيرة ، أهمها التلطف فى الحديث عن المواطنين الأعزاء ، وهل تصدق أن اسم الدكتور طه حسين لايجرى على لسانى فى بغداد إلا معطراً بأطيب آيات الثناء ؟ هل تصدق أنى أقول فى بغداد إن الدكتور طه حسين أديب عظيم وإنه دان الأدب العربى أثقل الدين ؟

ذلك أدب تعلمته فى الاغتراب ، فقد رأيت أن الرجل الكريم لايليق به أن يذكر مواطنيه وهو غريب إلا بالخير ، ولا ينبغى له أن يتحدث عن قومه بغير الثناء .

وأعود فأقول : إن أغانى أم كلثوم هى اليوم أجمل زاد يتزود به أهل الوجدان فى العراق ، فحيثما حللت ، وحيثما تلفت ، سمعت صوت أم كلثوم ، فهذه المطربة المصرية هى فى هذه الأيام الريحانة الندية التى تشتاقها الأرواح والقلوب فى جميع أرجاء العراق .

وقد جلسنا نسمر منذ ليال مع الأستاذ فؤاد جميل سكرتير الإذاعة بوزارة المعارف فقال :

سنفاجئكم بعد ليلتين بأعجوبة ترتاح لها النفوس والأذواق !

فقلت : وما عسى أن تكون تلك المفاجأة ياصاح ؟

فقال : ستكون السهرة كلها فى إذاعة أغانى نشيد الأمل للآنسة أم كلثوم .

وكان خبراً ساراً فرح به السامرون .

* * *

فإن سألتم : وما هى الأغانى الكلثومية التى يطرب لها العراقيون فى هذه الأيام ؟

فإنا نجيب بأن لأم كلثوم صوتين يذاعان مرات كثيرة فى كل يوم ، أما الصوت الأول فهو الدور المحبوب :

«على بلد المحبوب وديني»

وهذا الدور صار من الأدوار الشعبيــة فى العراق ، فهو على

ألسنة الفتيان والفتيات وعلى ألسنة الصناع والتلاميذ ، وهو ملهاة الشباب والكهول فى بغداد ، فإذا رأيت ناساً متجمهرين أمام قهوة أو سينما أو مرقص فاعلم أنهم لم يتجمعوا هناك إلا لأن أم كلثوم تقول فى صوت ناعم حزين :

يامسافر على بحر النيل   أنا ليّه فى مصر خليل

من حبه مابنام الليل

أما الصوت الثانى فهو دور « إفرح ياقلبى »

وأهل العراق يعجبون بهذه المعانى :

«أقطف معاه زهر الحياه   مادام هواك وافق هواه»

وأنا أيضاً معجب بهذه المعانى ، ولكن أين الأحباب ؟ وأين أصفياء الروح الحزين ؟

* * *

أنتقل بعد هذا إلى لون آخر من الفن المصرى وهو الفن السينمائى ، ففى هذه الأيام تعرض فى سينما الحمراء رواية المجد الخالد وهو الفيلم الناطق الذى أخرجه الممثل يوسف وهبى ، فهل تصدقون أن هذا الشريط أسر مشاعر البغداديين ، وهل تصدقون أن فيهم من يقترح على الحكومة المصرية أن تخرج منه نسخة أوروبية على نفقاتها ثم تذيعه فى العالمين ليرى أهل المشارق والمغارب كيف يؤمن الناس بالوطنية فى أرض الفراعين ؟

وقد نشرت جريدة البلاد مقالا لكاتب اسمه إبراهيم المعروف قال فيه :

« عرضت أمس هذه الرواية الطريفة ، السامية المعنى ، وبالرغم من سعة الصالة فقد غصت بالمتفرجين من كافة الطبقات ، فبلغ الازدحام أشده ، وكنت ترى الجماهير الغفيرة تزدحم على أبواب الحمراء من نساء ورجال وشيوخ وأطفال . أما موضوع الرواية فلا أريد أن أتحدث عنه ، إذ يكفى أن تكون هذه الرواية من تأليف نابغة التمثيل العظيم الأستاذ يوسف وهبى ، ولا إخال أحداً يجهل هذه الشخصية الفذة التى تجتمع فيها كافة عناصر الفن والعبقرية الخالدة . . . فنشكر إدارة الحمراء كل الشكر لجلبها أمثال هذا الفيلم الرائع الذى يمكن الاستفادة منه لما فيه من العظات والعبرة والدروس الوطنية العالية » .

تلك كلمة قصيرة عن الفن المصرى فى العراق ، سنتبعها بأمثالها كلما لاحت فرصة ، والسلام .

زكى مبارك فى لبنان

صديقى

تحيتى إليك وإلى شارع الهرم ومصر الجديدة والزمالك وشارع فؤاد .

وبعد فقد كانت جريدة المكشوف نشرت كلمة طيبة تحت عنوان « الدكتور زكى مبارك فى طريقه إلى العراق » ثم لخصها الكاتب المفضال الذى يحرر الصفحة الأدبية والاجتماعية فى الصباح ، ولكن ظهر أن تلخيص تلك الكلمة لم يرض كاتبها الأول فاندفع يهجم على الصباح وعلى الدكتور زكى مبارك فى جريدة المكشوف بأسلوب غير مقبول .

فاسمحوا لى وأنا محور هذا الجدل أن أزن المسألة بميزانها الصحيح فأقول :

لم تكن ظروفى فى مصر تشجعنى على السفر إلى العراق فقد كنت شرعت فى طبع كتاب التصوف الإسلامى ، ولكن أصدقائى فى مصر خوفونى عواقب الرفض ، وقالوا إن خصومك سيزعمون أنك غير صادق فى الدعوة إلى الأخوة العربية ، فهاج فى نفسى غرام العروبة وأجبت الرغبة النبيلة التى أعلنتها الحكومة

العراقية ، ونظرت فرأيت زملائي من الأساتذة المصريين يحرون الوصول إلى العراق من أقرب طريق فأبيت مرافقتهم وصممت على المرور بالبقاع الكريمة : فلسطين وسورية ولبنان .

ولما نزلت بيروت قضى الحظ السعيد أن أرى أديبين فاضلين هما روحى فيصل وأحمد شبلى ، فلقيت منهما كرما لا يستغرب من أهل لبنان ، ثم مضيت فسلمت على من استطعت التسليم عليه من رجال القلم والبيان .

وما كدت أقضى أسبوعا واحداً فى بغداد حتى تلقيت نسخة من جريدة المكشوف وفيها كلمة طيبة عن الدكتور زكى مبارك ، وفى ذيلها عنوان الكاتب الأديب ، ومضت أسابيع وجاء عيد الفطر فجاءتنى تحية كريمة من ذلك الكاتب . فأخذت أستعد لكتابة خطاب أشكر له فيه ذلك الفضل الذى لا يستغرب من أهل لبنان .

وقبل أن أضع الخطاب فى صندوق البريد تلقيت نسخة جديدة من جريدة المكشوف فرأيت ذلك الكاتب نفسه يهجونى ويهجو مجلة الصباح ، مع أنه تلقانى فى بيروت على غير معرفة سابقة بأحسن آيات الترحيب .

والآن أسأل نفسى : أفى الحق أن الذين يهجوننى فى لبنان هم أنفسهم الذين أكرمونى فى لبنان؟ وهل فسدت الدنيا إلى هذا الحد فينتقل المرء من الصداقة إلى العداوة فى أسبوعين ؟

أفى الحق أن المودة فى لبنان مودة عابرة كسحابة الصيف ؟ أفى الحق أن الأديب الذى تلقانى مرحباً فى جريدة المكشوف هو نفسه الذى نشر الهجوم على زكى مبارك ومجلة الرسالة ومجلة الصباح ؟

اسمع ياصديقى

إن هذه التقلبات تغزو قلوبنا بالحسرة على ماصارت إليه آداب الناس فى البلاد العربية ، ولكن لاتحزن ولا تجزع ، فأولئك الناس لايمثلون البلاد العربية ، وإنما يمثلون أشخاصهم الفانية ، وقد لقيت فى بغداد رجالا كادوا ينسوننى وطنى وأهلى ، وذلك الكاتب نفسه يعترف بأن الصباح له فى بيروت قراء مدمنون ، والإدمان على قراءة المجلات المصرية هو فى ذاته تمجيد للبلاد المصرية .

إسمع ياصديقى

إن مصر تنفق ألوف الدنانير فى كل أسبوع لنشر اللغة العربية فهى تتحمل تضحيات فى سبيل العروبة يعرفها كرام الرجال ، فلم يبق إلا المغرم الهين وهو أن نحتمل الأذى فى هذه السبيل .

وأنا بالرغم من كل ماحدث أذكر الذين لقيتهم فى لبنان بكل جميل ، رعاية لعواطف صادقة عانيت فى سبيلها ماعانيت ، ورعاية لإخوان أعزاء يسوءهم ألا أكون من المحبين لذلك البلد الجميل ، والسلام عليهم وعليك من ضيف العراق .

الجامعة العراقية

لقد آن للمفكرين فى العراق أن يسألوا أنفسهم عما صنعوا فى سبيل الجامعة العراقية ، فإنى أخشى أن يطول أمد التريث والتسويف فتمر أعوام وأعوام قبل أن يتحقق هذا المشروع الجليل.

ولقد يكون عجيباً أن يوجد ناس يحتاجون إلى من يقنعهم بوجوب إنشاء جامعة فى بغداد ، فهذا أمر كان يثير الجدل فى مصر منذ خمس وثلاثين سنة ، ومعاذ الأدب أن يثور الجدل حوله فى العراق بعد أن تمتع بالاستقلال

ولكن الأعجب أن لا تجد هذه الحقيقة على وضوحها من يتحمس لها تحمسا قوياً فينقلها من عالم الفكر إلى عالم الوجود

الأعجب هو أن يصبر ناس على حرمان بغداد من حظ أدبى تتمتع به جميع العواصم فى العصر الحديث .

قد تقولون إن الجامعة العراقية موجودة بالفعل ، بدليل ما فى بغداد من المعاهد العالية ، وأنا لا أنكر ذلك . ولكنى أؤكد أن الصورة التى أنشدها تختلف عن الصورة الموجودة أشد الاختلاف . وإليكم البيان :

عندنا مثلا دار المعلمين العالية ، وهى معهد عال بالتأكيد ، ولكن

شخصيتها ستقوى وتستفحل حين تصبح كلية من كليات الجامعة العراقية ، وستصبح أيضا فى أمان من التقلبات ، فلا تكون مرهونة بإعداد من نحتاج إلى إعدادهم من المدرسين فتفتح مرة وتغلق مرة وفقاً للظروف ، وإنما تظل كلية ثابتة تجاهد فى سبيل الآداب والعلوم والفنون .

وستتغير أيضا نفسيات الطلاب ، فلن يكونوا كالطلبة الذين نعرف وتعرفون ، لن يكون همهم أن يصاحبونا ثلاث سنين محدودة المواقيت ليظفروا بمناصب التدريس فى المدارس الثانوية ، ثم يذهب نشاطهم العقلى فلا يكون فيهم باحثون ومؤلفون .

نريد إنشاء الجامعة العراقية لتغيير هذه النفسيات ، فقد أصبح من الواجب أن يفهم أبناؤنا أن التعليم العالى ترخص فى سبيله السنون الطوال ، أصبح من الواجب أن نفهم جميعاً أنه لامفر من أن يكون عندنا مئات من الشبان المثقفين ثقافة عميقة بحيث نستطيع أن ننتفع وننفع بتبادل الأساتذة مع كبار الجامعات

فى العراق اليوم عدد من الرجال الذين كوّنوا أنفسهم ، ولكن هؤلاء فى الأغلب يشغلون مناصب إدارية تحول بينهم وبين الانقطاع للتدريس والتأليف ، وهم قد نشأوا فى جيل غير هذا الجيل ، نشأوا فى زمان يعرف قيمة اللذة العقلية ، ولن يسمح الدهر بوجود

نظائرهم مرة ثانية ، لأن المغانم المادية صارت أكبر ما يتطلع إليه شبان هذا الزمان .

فلا بدّ من التفكير الجدّى فى تهيئة جوّ جديد تتنفس فيه المطامع العلمية والأدبية ، لابدّ من فتح آفاق جديدة تتنسم هواءها عزائم الشبان الذين يسرهم أن يكونوا من أقطاب العلم والبيان .

إن العراق لا ينبغى له أن يصبر طويلا على القناعة العقلية التى يعيش فى ظلالها شبان هذه الأيام ، إن العراق سيتذكر دائما أنه كان فى طليعة الأمم التى أحيت العلوم والآداب والفنون ، وسيطالب أبناءه بأن يرفعوا رايته بين رايات الأمم التى تواجه العصر الحديث بما هو أهله من القوة والطرافة فى المذاهب والآراء .

ولكن كيف ننشىء الجامعة العراقية لنحسن إنشاء الجيل الجديد؟

يخيل إلىّ أننا لن نواجه المصاعب التى واجهتها مصر حين أنشأت الجامعة المصرية ، فقد كان الجمهور فى مصر سنة ١٩٠٦ ينقسم إلى فريقين يقال لأحدهما أمة ولثانيهما حكومة ، وكانت حكومات تلك العهود تراعى ذوق الاحتلال ، والاحتلال لم يكن يسره أن يكون فى مصر جامعة ، وكان يخشى أن تنشأ طوائف من المزوّدين بالثقافة العالية ، وهذا الصنف من الشبان يكون شوكة تخز الاحتلال

وقد فطن الفريق الذى يمثل الأمة إلى هذه الحقيقة فأعلن يأسه من الحكومة ، ودعا الجمهور إلى الاكتتاب العام لإنشاء جامعة مصرية ،

فلم تمض غير أشهر معدودات حتى صارت فكرة الجامعة المصرية حقيقة واقعية تلمسها الأيدى وتراها العيون .

وقد أتعب المحتلون أنفسهم فى حرب الجامعة المصرية ، وتقوّلوا عليها الأقاويل ، ولكن الجامعة ظلت تكافح حتى انتصرت وعاد خصومها بغنيمة القنوط .

فهل حالنا اليوم فى العراق كحال إخواننا المصريين فى سنة ١٩٠٦ ؟

ليس فى العراق اليوم فريق يقال له أمة وفريق يقال له حكومة ، وإنما هو كتلة واحدة بحيث يستوى الحاكم والمحكوم فى التسابق إلى خدمة البلاد .

معنى هذا الكلام أيها القراء : أننا ننتظر أن تكون الحكومة هى القوة التى تنتظر منها المبادرة إلى إنشاء الجامعة العراقية ، وستكون الحكومة بمعونة الله عند ظنكم الجميل

ولكنى أرجو أن تسارع الأمة إلى معاونة الحكومة ، أرجو أن يكون للنواب والأعيان وكبار الملاك والتجار والموسرين يد مشكورة فى تأسيس الجامعة العراقية ، أرجو أن يمد الجمهور يده الكريمة لينفخ فى هذا المشروع روح الحياة فإنه يحتاج إلى كثير من الأموال

وإنى لموقن بأنّ فى أرجاء العراق نفوساً تتطلع إلى المجد ، وهذه فرصة نفيسة يجب اغتنامها ، فليس من القليل أن تسجل أسماء

المتبرعين فى كتاب ذهبى يصبح على الزمن من أشرف وثائق التاريخ

والجمهور الذى أدعوه إلى الاكتتاب لإنشاء الجامعة العراقية يدخل فيه الوزراء والموظفون ، لأنهم لا يمثلون الحكومة إلا فى دوائرهم ومكاتبهم ، وهم بعد ذلك من صميم الشعب الذى وثق فيهم وأسند إليهم القيام بجلائل الأعمال

فما رأيكم فيما أقترح أيها الصحفيون ؟

ما رأيكم فيمن يدعوكم لنصرة الوطن الغالى ، الوطن الذى تعوّد منكم البر والوفاء ، الوطن الذى يعرف أن الصحافة هى قلبه النابض ولسانه المبين ؟

هل أرجو أن يكون للصحافة الفضل الأوّل فى إنشاء الجامعة العراقية ؟

هل أرجو أن تدعوا الجمهور إلى الاكتتاب العام بحيث تستطيع الحكومة أن تبنى للجامعة داراً عالية الشرفات تذكّر بدار الجامعة المصرية ؟

أيها الصفحيون الشرفاء

أنا لا أطالبكم بعمل مرهق ، وإنما أرجوكم أن تشغلوا أقلامكم بهذه القضية شهرين اثنين ، فإن فعلتم — وستفعلون — فستضعون الأساس للمنافسات العلمية والأدبية والتشريعية بين جامعة القاهرة

وجامعة بغداد ، وقد آن أن يعرف الجمهور أن المنافسة العلمية هى السناد الوحيد الذى تنهض به المعارف العربية

أيها الزملاء

تذكروا أن الجامعات ليست من أعمال الحكومات وإنما هى من أعمال الشعوب،فادعوا قراءكم وجماهيركم إلى تقديم الهبات والأوقاف لمشروع الجامعة العراقية ، حتى يقال إنّ الأمّة سبقت الحكومة ، فإنّ الحكومات لا تسبق الأمم إلا فى عصور الضعف ، ومعاذ الله أن يكون أهل العراق من الضعفاء

أيها الزملاء

أدعوكم إلى المبادرة لمناصرة هذا المشروع الجليل ، وأتشرف بتقديم خمسة دنانير تكون فاتحة مباركة إن شاء الله لقوائم الاكتتاب

أيها الزملاء

هناك تردّد فى إنشاء الجامعة ، لأنّ ناساً يقولون بوجوب التفكير فى تعميم التعليم الابتدائى قبل إنشاء الجامعة ، وأقول بصراحة إنّ الأمم لا ترقى بفضل انعدام الأمية وشيوع القراءة والكتابة ، وإنما ترقى الأمم حين توجد فيها صفوة ممتازة تتفوق فى العلوم والآداب والفنون . وكيف يمكن أن يكون انعدام الأمية هو الشاهد على

تقدم الشعوب ونحن نعرف أن هناك ملايين يقرأون ويكتبون ثم تمر الأعوام وهم غافلون لا يطلعون على شيء ؟

إنما تنهض الشعوب حين يكون فيها مئات لا ملايين يسايرون روح التقدّم فى الشرق والغرب ويقودون بلادهم إلى التفوق والسبق فى الميادين العلمية والاقتصادية والاجتماعية

إنّ الغرض من هذا الاكتتاب هو بناء دار الجامعة العراقية ، ليشعر الشعب بأنه استطاع أن يقيم شاهداً على صلاحيته لحياة الفكر والعبقرية، ويومئذ لا ترى الحكومة بدأ من استصدار مرسوم ملكى بإنشاء الجامعة وتكوين ما يحتاج إليه العراق من مختلف الكليات

أيها الزملاء

إنّ العراق يفيض بالشعر ، ولكن هناك قصيدة نحب أن نسمعها فى العراق ، قصيدة كالتى سمعها أهل مصر منذ أكثر من ثلاثين عاماً ، حين تقدّمت الأميرة فاطمة هانم إسماعيل فخلعت جمع حليها وقدمتها هدية لبناء الجامعة المصرية ، ومن المؤكد أنكم ستجدون فى العراق قصائد من هذا النوع ، ستجدون نبيلات يقدمن حليهن لبناء الجامعة العراقية ، وستجدون من أعيان الألوية رجالا كرماء يزينون صدر بغداد بدار عظيمة تكون ملاذ العقول فى عاصمة الرشـيد .

أخت بغداد والاستاذ محمود عزمى

صديقى

نشرت مجلة الدنيا كلمة طريفة عن إصابة الأستاذ محمود عزمى بأخت بغداد، وأخت بغداد الظريفة اللطيفة هى قرحة تترك بالجسم وسما ظريفا لطيفاً يتميز به أهل العراق .

وقد شاء صديقنا الأستاذ طاهر الطناحى أن يداعبنى فى كلمته الطريفة فقال :

«وبقى دور صديقنا الدكتور زكى مبارك ، ولا بدّ أن يكون له نصيب إن شاء الله من « أخت بغداد » وأغلب ظنى أن لدغته لن تكون إلا من أنثى ، لأنه شاعر وله شهرة فى الغزل بالجنس اللطيف تحبب هذا الجنس فيه ولو كان من البعوض » .

ولكن إصابة الأستاذ محمود عزمى بأخت بغداد لها تاريخ يستحق التسجيل . وإليكم البيان :

كان طلبة كلية الحقوق فى بغداد أقاموا حفلة تكريم للكشافة السورية ، وفى تلك الحفلة ألقيت خطبة ، فلما وقف الأستاذ عزمى ليلقى كلمة الختام نوه بخصائص الحفلة فقال : «وتمتاز هذه الحفلة

بأنها أول حفلة للشباب اندس فيها خطيب كهل هو الدكتور زكى مبارك » .

فحقدت عليه ، وانتظرت الفرصة للانتقام ، وأنا فيما يظهر رجل حقود !!

وبعد أسابيع أقام لى أفاضل الأدباء فى بغداد حفلة تكريم ، وشاء كرم الأستاذ عزمى أن يشرفنى بخطبة يلقيها فى ذلك الاحتفال .

ورأيت الفرصة قد سنحت للانتقام منه بلباقة سحرية فقلت ما معناه :

« أرجو أن يعذرنى أهل العراق إذا عجزت عن الوصول إلى قلوبهم على نحو ما صنع الأساتذة المصريون ، فهم أوفر منى علما وأدبا ، وفيهم رجل سبقنى إلى الدنيا بأكثر من خمسين عاما ، وهو الأستاذ محمود عزمى » .

وفى اليوم التالى نشرت خطبتى بجريدة البلاد ، وصدق أهل العراق أن الدكتور عزمى يكبرنى بخمسين عاما ، ولم يروا فى هذا ما يوجب الاستغراب ، لأن الدكتور عزمى أشهر منى ، وأقدم منى ، وأنا أستاذ وهو عميد .

وبعد أيام من ذلك التاريخ كنا مدعوين لتناول الشاى عند سعادة الأستاذ ساطع الحصرى وكان فى المجلس معالى الأستاذ رستم حيدر ، وجرت بينى وبين الأستاذ عزمى مناقشة قلت فيها بترفق :

من واجبى ياسعادة الأستاذ أن أتلطف معك رعاية لسنك !!.

وكانت دعابة ثقيلة توجع منها معالى الأستاذ رستم حيدر ، لأنه من سن الأستاذ عزمى .

* * *

ثم شاءت المقادير أن تلوح الفرصة التى ينتقم بها الأستاذ عزمى فقد أصيبت رقبته بأخت بغداد ، وأخت بغداد مرض لا يصاب به غالباً إلا الشبان ، فمضى يقول فى الأندية والمجالس : إن إصابتى بأخت بغداد هى الدليل على شبابى ، وما أظن الدكتور زكى مبارك يصاب بها لأنه كهل .

واليوم أضع الأمر فى نصابه فأقول :

إن الأستاذ عزمى يغالط ، ويغالط ، ثم يغالط .

هو يعرف أنى أصبت بأخت بغداد منذ أول يوم تنسمت فيه هواء بغداد ، فإن كان يجهل ذلك فليتذكر أنى ابتليت بهوى ليلى المريضة فى العراق .

شاعرية زكى مبارك

ياسيد فؤاد

ماهذا الذى تصنع ؟

إنى لاأزال أبحث عن لحظة فراغ لأنقض تعليقاتك على مقالتى الماضية ، وسترى كيف أرجع إليك رجعة السيل ، فإن عندى كلمة قاسية لايجرؤ على كتابتها رجل غيرى ولا يجرؤ على نشرها رجل غيرك .

وأبادر الآن بهدم مانشرتموه لأحد الأدباء من الاستخفاف بشاعرية زكى مبارك . وما كان يهمنى أن أهدم مابنى ذلك الأديب فمثلى يحب أن تكون للناشئين أوهام وأحلام ، ولكنى خشيت أن يصدق القراء كل ماينشر فى مجلة «المكشوف» وقد وقع ماخشيت. فنقلت مانشرتم جريدة «الرأى العام» فى بغداد .

والطريف فى هذه القضية أن تنشروا أكثر من خمس مقالات فى الرد على الآنسة نجلا عبد المسيح لأنها وقعت فى أكبر خطيئة حين قررت أن رأيها فى الدكتور زكى مبارك لاينقض بسهولة !

وكان الظن بأدبكم أن لاتشجعوا القراء على مناوشة تلك الفتاة. فالدكتور زكى مبارك هو صاحب كتاب النثر الفنى الذى لم تعرف

مثله اللغة العربية ، لا فى القديم ولا فى الحديث ، ولا تؤاخذنى ، ياسيد فؤاد ، فلست بالرجل المغرور ، وسيأتى يوم تنظر فيه كتاب النثر الفنى وتعرف أن الدكتور زكى مبارك دان اللغة العربية بذلك الكتاب ، وعند الله جزائى .

لاتؤاخذنى ، ياسيد فؤاد ، إنى أشعر بالألم اللاذع حين يجىء كاتب من كتابكم فيسمينى «أمير الشعر والبيان» على طريق السخرية ولو كنت سلكت المسالك التى تعرفون لكنت اليوم من أقطاب الوزراء واسترحت من إمارة الشعر والبيان .

وأنا والله غير نادم على مااخترت لنفسى من مذاهب الحياة ، ولكننى أعانى مضاضة اللوعة كلما تذكرت أن جهودى فى خدمة الأدب العربى لم تجد من يحفظ الجميل .

أترك هذه الشجون وأدخل فى لباب الموضوع فأقول :

إن الناقد اعترض على التسمية الفرنسية للديوان لأنى سميته (Poèmes Erotiques) .

ولو كان درس علم البيان فى حداثته أو فى صباه لعرف كيف يندرج الجزء فى الكل ، وأكتفى بهذه الإشارة راجياً أن يعود «فيذاكر» علم البيان :

ثم وقف حضرته عند قول زكى مبارك :

أطوف بالحسن تصبينى بدائعه ... كما يطوف معنّى القلب بالدمن

فلا تثير مغانيـــه ونضرته في ظل ذكراك غير الهم والحزن

فقال : إن الدمن هي المزابل .

وأنا ياسيد فؤاد لم أكن أعرف أن الدمنة هي المزبلة ، وهل كانت كذلك في قول صاحب المعلقة المشهورة :

أمن أم أوفى دمنة لم تـكلم بحومانة الدراج فالمتثـــلم

هل كانت الدمن هي المزابل في قول الشريف الرضى :

دع من دموعك بعد البين للدمن غداً لدارهمُ واليوم للظعن

وهل كانت الدمن هي المزابل في قول أبي نواس :

لمن دمن تزداد طيب نسيم على طول ما أقوت وحسن رسوم

تجافى البـلى عنهن حتى كأنمـا لبسن على الإقواء ثوب نعـــيم

وهل كانت الدمنة هي المزبلة في قول ابن سنان الخفاجي :

خليليّ قد عمّ الأسى وتقاسمت فنون البلى عشاق ليلى ودورها

فلا دار إلا دمنـة ورسـومها ولا نفس إلا لوعـة وزفـيرها

أنا ياسيدي شاعر ، رضيتم أم كرهتم ، والدمنة في كلام الشعراء الحضريين والبدويين هي الدار العافية ، فاسألوا عن صنعة ذلك النـاقد لتعرفوا كيف جاز له أن يسمى الدمن مزابل . وما أحب أن أزيد !

ثم ماذا ؟ ثم اعترض حضرته على قول زكي مبارك :

لولا مثالك في باريس ألمحـه في طلعة البدر أو في نضرة الفنن

ماصافح النوم أجفانى ولا احتملت

جوانحى ما أثار البين من شجن

واستغرب أن يكون للعاشق عزاء فى الأقمار والأفنان .

ويظهر أن هذا الأديب الناشئ لم يطلع على كتاب «مدامع العشاق» ولو كان اطلع عليه لعرف أن الشعراء يتعللون بالأوهام وأن جحدراً يقول :

أليس الليل يجمع أم عمرو وإيانا فذاك لنا تدانى

نعم وأرى الهلال كما تراه ويعلوها النهار كما علانى

وعجب حضرته من أن أقول :

نسيتم العهد واسترحتم من لوعة الحافظ الأمين

وقال : « لله ما أبشع هذه الميم فى مخاطبة الحبيب ! »

ولو كان حضرته اطلع على كتاب «مدامع العشاق» لرأى أن هذه الميم تقبّلها أبو صخر الهذلى وهو يخاطب محبوبته فيقول :

بيد الذى شغف الفؤاد بكم تفريج ما ألقى من الهم

ولو شئت لقدمت إليه ألف شاهد من هذا النوع .

ثم ماذا ؟ ثم رمانى بالسرقة لأنى قلت :

أحبك ياظلوم ولا أبالى أأكرم فى غرامك أم أهان

فإن بخل الزمان بكم علينا فصبراً للذى صنع الزمان

ورأى أنى أخذت هذا المعنى من قول عنترة :

أحبــــك ياظلوم فأنت منى   مكان الروح من جسـد الجبان

مع أن المعنى مختلف تمـام الاختلاف ، وهل تـكون السرقة لأنى اشتركت مع عنترة فى عبارة «أحبك ياظلوم» ؟

إن كان هذا صحيحاً فمـا رأى هذا الناقد المبتدئ فيما قيل من أن عند العرب أربعمائة قصيدة تبتدئ بعبارة «بانت سعاد» ؟

ثم عجب حضرته من أن أقول :

لقد أسرفت فى حـبى   كـذلك يفعل الصب

نعم عجب من أن يحاسب الشاعر نفسه على الإسراف فى الحب كأن الشاعر يحرم عليه أن يرجع على نفسه بعتاب أو ملام .

وتأذى حضرته من كلمة «كذلك» فهل تسمحون بأن أقترح عليكم أن تبيعوا مايملك هذا النـاقد من حاسـة الذوق ؟ إنه يملك موهبة لو بعتموها لأغنتكم عن مصايف لبنان !

ثم ماذا ؟ ثم أتعب نفسه فى فهم هذه القطعة :

يا طفــــلة الحسناء   والدرة   العصماء

ماطـــرفك النعسانُ   وخـــدك   الفتانُ

إلا   بقايا   الأمّ   ذات اللثات الحـــمّ

* * *

أشــبهتها فى الدلّ   وجفنها   المعتـــل

وردفها   الثقيـــل   وخصرها النحيـــل

فاستوصفيها الحبا واستودعيها الربا

فقد تناهى العمرُ ونال منها الدهرُ

* * *

يا زهرة فى العين ونغمة فى الأذن

وطفلة فى المنظر وغادة فى المخبر

لا مسّك الغرامُ فإنه ظلاّمُ

أتعب الناقد نفسه فى فهم هذه القطعة ولم يفهمها ، وما أحسبه سيفهمها إلا بعد سنين ، ولو كانت المصادر تحت يدى لأريته كيف فهمها كبار النقاد من أمثال الأستاذ عبد الكريم الكرمى أديب فلسطين .

وقد أراد حضرته أن يقارن بين هذه القطعة وبين قطعة قالها شاعر لبنانى فى المهجر ، والموضوع مختلف ولكن الناقد لا يعرف ، فطفلة المهاجر اللبنانى كانت بنت ثلاث سنين ، أما الطفلة التى قلت فيها قصيدتى فكانت فى سن حضرة الناقد حرسه الله ! فإن تفكيره يشهد بأنه ابن عشر سنين !

وبعد فماذا تريد ، ياسيد فؤاد ؟

أنت بين أمرين : الأول أن تكون سيئ النية ، وهذا ما أستبعده كل الاستبعاد .

والثانى أن تريد أن أكون محرراً فى مجلة «المكشوف» بالمجان

وأنا والله مستعد لمعاونتك فقد شقيت بالقلم كما شقيت ، وأنا شـــديد العطف على أصحاب الصحف والمجلات وأسميهم «شهداء الأقلام» على وزن «شهداء الغرام» كتب الله لك السلامة والعافية ونجانى من مغالطاتك !

وقد نسيت أن أنص على اسم الأديب الذى نقد ديوانى فى «المكشوف» فلأذكر أن اسمه حليم كنعان ولو كان جنى على نفسه كما جنيت على نفسى حين قضيت عشرين سنة فى الحياة الجامعية حتى ظفرت بإجازة الدكتوراه ثلاث مرات لسميتـه الدكتور حليم كنعان ، ولـكنه سخر من أن أكون «دكتوراً» فليكن من واجبى أن أدعو الله أن يرحمه ماعاش من خطر الألقاب فقد كانت سبب بلائى .

والسلام عليكم ، وعلى بيروت أيضا !

* * *

قرأت ملاحظتكم على الكتاب الذى شرعت فى تأليفه عن (المجتمع العراقى) وابتسمت حين رأيتكم تعجبون ممن يحكم على الحياة العراقية بعد خمسة أشهر فى بغداد .

ابتسمت لأنكم صدقتم من حكم على أدب زكى مبارك ، مع أنه لم يصاحبه فى بيروت غير لحظات قصيرة ضاعت بين التسليمات والتحيات .

وقديماً قيل: واحدة بواحدة جزاء!

إذا كان الشاعر إلياس أبو شبكة عندكم فسلموا عليه .

وحدثني أحد أعضاء المؤتمر الطبي أن بعض المجلات في لبنان تغتابني ، فإن كان ذلك صحيحاً فإني أعتمد على مروءتكم في إرسال مايكتب عني لأصحح مافيه من أخطاء ، فقد أكون في ذات نفسي بريئاً مما يفتري الظالمون .

أراني الله وجوه أنصاري وخصومي بخير وعافية ، والسلام .

غريب الهوى في عيد القمر

أتذكر ياقلبي ؟

أتذكر أن من الناس من يقول : (عيد الأضحى) ، وأن منهم من يقول : (العيد الكبير) ، وأن أهل سنتريس يقولون : (عيدالقمر) كأنما عزّ عليهم أن يبقى القمر بلا عيد ؟

ليت شعرى أظلّ أهلى وأهلك يسمونه عيد القمر ، أم تغيرت من بعدنا الأسماء ؟

كان لى أهل ، وكان لك أهل ، ياقلبي .

أما أهلى فبخير ، وإن كنت أتوجع كلما ذكرت أن أولئك الأهل خلا ناديهم من وجه أبى ؛ وكان لك أهل ياقلبى ، ولكن أخبارهم غابت عنى منذ أزمان . فإن كانت عندك أخبار فحدثنى عنهم ، فما أحب لك أن تعيش فى دنياك عيش الغريب !

لاتكتم عنى شيئاً ياقلبي ، فما لك فى الدنيا آس سواى . أما رأيت كيف كانت أحاديث الناس فى هذا المساء ؟ فما لقينى أحد من أعضاء المؤتمر الطبي إلا سألنى عن صحة ليلى . وما أذكر أبداً أن أحداً سألنى عنك ! وكذلك جاز أن يسأل الناس عن صحة القاتل ويسكتوا عن فجيعة المقتول . والويل كل الويل للمغلوب .

* * *

إن ليالى الأعياد ترجعنى إليك ياقلبى .

فهل تذكر يوم كنا طفلين ، حين كان من المألوف أن يزور الناس المقابر وفى أيديهم المصابيح ؟ وهل تذكر أننا سألنا مرة عن الحكمة فى حمل المصابيح فى الليلة المقمرة ، ليلة عيد القمر ، فكان الجواب أن الأموات يأنسون بالأضواء ؟

فهل تسمح بأن أحمل مصباحاً فى هذه الليلة ، وأخرج معك لزيارة المدفون من أوطارك وأحلامك ؟ ولكن أين المقابر التى دفنت فيها أوطارك وأحلامك حتى أونسها بضوء المصباح ؟ أين ؟ لا أين ، فإنى أخشى أن تكون المقادير صنعت بأحلامك مايصنع البحر بما يدفن فيه من سرائر القلوب .

حدثنى أين دفنت أحلامك ، فإنى أعرف أنك قليل البخت فى دنياك . ولو كان لك بخت لما جاز أن تبيت مشرد الأمانى فى ليلة عيد

قلبى ، قلبى !

يرحم الله غربتك بين القلوب !

قلبى !

أتذكر ماصنعتُ فى سبيلك ؟

لقد فررت بك من سعير الحب فى القاهرة ، ونقلتك إلى بغداد : دار السلام ، فهل كانت بغداد يا قلبى دار سلام ؟ أم كان اسمها من أسماء الأضداد ؟

لقد تجهمت أبشع التجهم حين وقع البصر عليها أوّل مرة ، واستقبلتني بوجه يتطاير منه شرر القسوة والوعورة ، فقلت : لابأس ، فهي هدنة يستجم فيها قلبي ، ليقوى على مناضلة العيون حين يرجع إلى القاهرة : ولكنك استوحشت وأخذت تفتش عن «عيون المها بين الرصافة والجسر» وقد انخدعت لك فتركتك ترود مراتع الغزلان وأنا آمن ، فقد كنت سمعت أنّ بغداد لم يبق فيها للحب سامر ولا أنيس ، ثم وقعت الواقعة ، وأسرتك عيون المها بعد أسبوعين اثنين من قدومنا بغداد

قلبي !

لقد كان يعز عليّ أن تخرج من بغداد بلا هوى ، فمن الفضيحة لبغداد أن لا تكون فيها عيون ترمى فتصيب ، ولكني ما كنت أحب أن أحملك جريحاً محطماً إلى الأنامل الرقاق التي تعبت في تضميد جروحك بين مصر الجديدة والزمالك . وما كان يخطر بالبال أن تكون دار السلام دار حرب ، وأن تتألب ظباؤها على قلب أعزل كان يرجو أن لا يعرف البلاء وهو ضيف العراق

من كان يظن أنّ هذه المدينة الجافية التي لا تعرف غير وصل النهار بالليل فى سبيل الرزق أو المجد ، من كان يظن أن مثل هذه المدينة تعيش فيها مباسم وعيون لاتتقى الله فى الناس ؟ من كان يظن أن ينعدم كرم الضيافة فى بغداد حتى يستبيح ظباؤها انتياش قلب

غريب لا يملك من وسائل الدفاع غير الأنين ؟

أهذا جزاء الصنع الجميل فى بغداد ؟

أهذا جزاء من يملأ الصحف العربية بالثناء على العراق ؟

سيعود ناس إلى أوطانهم صحاح القلوب ، وأعود إلى وطنى بقلب ممزق لم تبق منه غير أطياف من الأشلاء

* * *

بغـــداد !

لقد كاد يسفر الصبح ولم تَغفُ عيناى . أكذلك تكون ليالى الأعياد ، يابغداد ؟ ليتنى أعرف أين يقيم اللصوص الذين سرقوا النوم من جفونى ! ليتنى أعرف أين يقيم أولئك اللصوص فأنتقم منهم أشنع انتقام بتقبيل جفونهم فى غفوات الليل !

بغـــداد !

خـذى من نومى ماتشائين ، بل خـذى من دمى ماتشائين ، فلن أنسى ماحييت تلك المؤامرة الوجدانيـة : مؤامرة العيون : عيون المها ، على قتلى ؛ فإنّ من الشرف أن يكون المرء قتيل المها فى بغـــداد

إى والله ! هـذا الصبح يتنفس وما غفت عيناى . فهـل تعرف الظباء التى كانت تعترض طريقى لتصرعنى أننى لا أزال بين الأحياء؟

أنا أدعوها إلى مناضلتى مرة ثانية ، وموعدنا بَهْو أمانة العاصمة يوم الأربعاء

* * *

أحبابى فى مصر الجديدة والزمالك

ناموا هانئين وادعين ، وانهبوا ماشئتم من أحلام الأمانى ،

فسأغفر لكم جريمة النسيان والعقوق

أحبابى فى بغداد !

تذكروا أن الشاعر لم يَعْنِ أحداً غيرى حين قال :

وكل محبّ قد سلا ، غير أننى غريبُ الهوى ، ياويح كل غريب

الى ليلى المريضة فى الزمالك

ســـيدتى

أقـدم إلى قلبك النبيل أطيب التحيات وأشرف العواطف ، وأشكر لك تلك الكلمة الرقيقة التى خطتها أناملك اللطاف على صفحات الصباح . فقد شرحت بها صدرى وأقنعتنى بأن مصر لاتزال بحمد الله معدن الذوق .

وهـذه الغمزة موجهة إلى الشخص الذى تعرفين ، الشخص الذى اسمه محمد . . . والذى اطمأن إلى غيبتى عن مصر فأخذ يشطح وينطح على هواه ، والذى اطمأن إلى أنى رجـل تقتـله الشواغل العلميـة فى بغداد بحيث لايستطيع الدفاع عن نفسـه لو أراد ، فهو يصول وحده ويجول

وإذا ما خـلا الجبان بأرض ‏ ‏ طلب الطعن وحده والنزالا

ومن الغرائب أن يستعين بالدكتور سـعيد عبده وأن يحتال فى فى تأليب الأدباء على طبيب ليلى المريضة فى العراق .

ولو كان خصما واحداً لاتقيته ‏ ‏ ولـكنـه خصم وثان وثالث

ولـكن لابأس ، ففى يدى قلم أحدّ من السيف أؤدب به هؤلاء «الخناشير» وسوف تعلمين

وأعود إليك ياسيدتى فأقول :

إن همك كله انصرف إلى إقناعى بأنك موجودة ، وأننى زرتك بالفعل مع محمد وسعيد ، ولكنك لم تذكرى العنوان لأعرف بالضبط من تكونين ، فقد اشتغلت بطب القلوب سنين عدداً ، وتشرفت بعيادة نحو سبعين مليحة من ملاح الزمالك ، ويسرنى أن أسجل أنى كنت دائما بلسما شافياً ، وأن البهجة كانت تحل حيث حللت ، وأن الأفراح كانت تقام فى الأفئدة والقلوب حيث توجهت

فياسيدتى ، من أنت فى أولئك الملاح ؟ فقد تكونين أجمل من عرفت ، وأشرف من عرفت ، وأكون نسيت .

وهل يستحيل النسيان على رجل مثلى ؟ لقد عشت دهرى أتقرب إلى الله بتدليل الملاح ، ولا أدرى ماذا أنفقت من مالى ومن شبابى ، وكل ما أذكر من تفاصيل الحساب أننى كنت فتى كريما فلم أعرف الخيانة ولا الغدر ولا النميمة ، ولو شئت لقلت إننى لم أعص الله قط ، ولكن من يصدقنى ؟ وهل من معصية الله أن نتغنى بالوسامة والصباحة والجمال ؟

ومعاذ الأدب أن أقول إننى رجل صالح ، فالرجل الصالح هو الذى لا يؤذى أحداً أبداً ، وأنا قد آذيت الأدباء ، لعنة الله عليهم ، ولكن يعزينى أنى راعيت الأدب مع الله فلم أقدم أية إساءة إلى وجه جميل ، أما الأدباء فهم شياطين ودمهم مباح .

سيدتى

من أنت ؟ ذكرينى فقد نسيت

أتكونين تلك الإنسانة التى جلست معى على الشاطئ فى ليلة مقمرة وأعلنت أنها لاتثق بأمانتى ثم بكت وانصرفت ؟ أتكونين تلك الإنسانة التى عبرت معى النيل فى زورق ولامتنى على عدم العناية بهندامى ؟

أتكونين تلك الإنسانة التى كانت تداعبنى مداعبة ثقيلة فتثنى على الدكتور طه حسين ؟

أتكونين تلك الإنسانة التى كان وجهها يتدفق بالنور حين ترانى ، ثم ترفض أن أقبل يديها لنجرب كيف يكون أنس الروح بالروح ؟

أتكونين تلك الإنسانة التى لطمتنى بكتاب مدامع العشاق ثم داسته بقدميها لأعرف أنى عاشق خائن لايفهم آداب المحبين ؟

أتكونين تلك الإنسانة التى علمت أنى مدين فقدمت لى حليها لأسدد بها ديونى ؟

أتكونين تلك الإنسانة الغادرة التى انتظرتها ساعة عند محطة الحمامات بمصر الجديدة لأتزود منها بنظرة قبل رحيلى إلى العراق ولم تحضر ، واكتفت السفيهة ببرقية تهنئنى بها على الوصول سالما إلى بغداد ؟

من أنت ياسيدتى ؟ من أنت ؟

ذكرينى فقد نسيت ، ولو شئت لقلت إننى رجل أراد أن يحرس الجمال فأضاعه الجمال

وهنا أنتقل من الرفق إلى العتاب

أفى الحق أنه يجوز لك أن تقولى إن ليلى المريضة فى العراق امرأة أجنبية ، وأن غرامى بها إيثار الأجنبيات على المصريات ؟

لا ، ياسيدتى ، فهذه نزعة خبيثة تنافى أدب العروبة ، فالمرأة العراقية شقيقة المرأة المصرية ، وستمر أجيال وأجيال قبل أن تسدد مصر ديونها للعراق

تعالى إلى بغداد أسبوعا أو أسبوعين لتسمعى صوت مصر فى العراق ، تعالى وانظرى كيف يكرمنا أهل هذه البلاد . تعالى وانظرى كيف أحبس نفسى فى بيتى فراراً من الكرم والجود ، فما دخلت مقهى ولا ملهى ولا مطعما إلا وجدت حسابى مدفوعا بدون أن أعرف من الذى دفع ، حتى أصبحت لاأدرى أين أتوجه ، والماء العذب يهجر للإفراط فى الخصر : كما يقول أبو العلاء .

لقد آن ياسيدتى أن تعرفى أن المرأة العراقية كلها روح ، كلها قلب ، كلها فؤاد

المرأة العراقية هى كما نقول فى مصر «ربة بيت» وحنانها مصدر الدروة لزوجها وأبنائها ، والتبرج الممقوت لايعرفه نساء العراق ،

وليس فى بغداد شارع واحد تتبذل فيه المرأة ، كما يقع واأسفاه فى بعض شوارع القاهرة ، وإنما يعيش أهل بغـــداد متجملين ، فلا ينقلهم الحب القاهر إلى الخروج على شريف الآداب

لاتذكرى المرأة العراقية إلا بالخير ياسيدتى ، وتذكّرى أن للمرأة العراقية أحساباً وأنساباً ، وأنها تكرم نفسها عن التبذل فى المشارب والملاعب والمراقص ، وتؤثر أن تظل دائماً مصباح البيت .

ســـيدتى

قلت لك إننى انتقلت من الترفق إلى العتاب

فعلى أىّ قاعدة من قواعد الذوق جاز لك أن تقولى إننى فارقت شـــبابى ؟

اسألى عن أهلى ياسيدتى لتعرفى أنى من قوم تشيب نواصيهم ولا تشيب أبدانهم ولا قلوبهم

ومعاذ الأدب والذوق أن أنبهك إلى خطأ ستندمين عليه يوم أعـــود

ولكن متى أعود؟

اشتقت إلى الضلال فى الزمالك

اشتقت إلى المنزل الذى لم تسدل ستائره على قلب أشرف من قلبى

اشتقت إلى المنزل الذى كانت تحيينى أحجاره حين أشرفه بقدمى ،

اشتقت إلى الإنسانة الغالية التى كانت ترانى أعظم نعمة عرفها الوجود

اشتقت إلى الجدائل المعطرة التى أخذت منها « خصلتين » أدفع بهما قسوة الوحشة فى أيام الاغتراب

ولكن من صاحبة هذه الجدائل ؟

من هى ؟ من هى ؟

لن تعرفى ولن يعرف اللئام الذين يلاحوننى على صفحات الصباح .

ولو سألنى فاطر الأرض والسموات، لأنكرت وكتمت ، فليس فى الدنيا كلها غير عاشق واحد يكتم أسرار الملاح هو صاحب النثر الفنى ، الرجل الذى تعرفين ويعرفون

ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟

ثم تقولين إننى عجزت عن مداواتك ، وعجز معى الدكتور سعيد عبده والأستاذ محمد . . وإنّ شفاءك وقع على يدى الشاب الظريف .

وأنا لا أستبعد ذلك فالله عز شأنه قد يضع سره فى أضعف خلقه

وما يسوؤنى أن ينجح الشاب الظريف فهو تلميذى ، ولو لم يكن تلميذى لما أمكن أبداً أن يكون شاباً ظريفاً

ولكن كيف جاز لهذا الشاب الظريف أن يخرج على الأدب فيداوى مليحة عليلة بدون أن يستأذننى ؟

وكيف جاز لك أيتها السيدة أن ترضى عن ثورة التلامذة على أساتذتهم ؟ ألم يبلغك منشور وزارة المعارف ؟

سيدتى .

من أنت ؟ من أنت ؟ أحب أن أعرف من أنت لأنفض منك يدى إلى الأبد . فقد كان الظن أن يكون الموت أحب إليك من الخروج على الذوق . والذوق هو أثمن ماتملك المرأة . وهو عندنا قبل المال وقبل الجمال

سيدتى

لقد سألتنى أن أحمل عنك التحية إلى ليلاى بالعراق . وأنا أعتذر عن نقل هذه التحية . لأن ليلاى بالعراق ضحت بعافيتها فى سبيلى وأبت أن تظهر لأعضاء المؤتمر الطبى . وقررت أنّ الغرق فى دجلة أحب إليها من الخروج على الأدب مع طبيبها الخاص

مولاتى

إن كان فى هذه الرسالة شىء يسوء فاعذرينى ، فقد ألفت الشطط فى مخاطبة الملاح ، لأنى عشت مدللا بين الملاح . وأنا مع هذا أفهم قيمة التضحية التى تقدمها سيدة حين تخاطب رجلا ، أنا أفهم جيداً أنك صاحبة الفضل . وأعرف أنّ المعصم الجميل لايتحرك لكتابة كلمة مثل كلمتك إلا وهو متفضل . ومثلى يحفظ الجميل ولاينساه . وكل ما أرجوه أن تصونى قلبك فلا يعرف أسراره شاب ظريف ولاشاب سخيف وأرجو ألا تكويك التجارب فتذكرى نصيحتى بعد الأوان ، والسلام

طبيب ليلي يوصى بنظارة طبية

للدكتور محمد صبحى بك

قالت جريدة العقاب البغدادية :

«من طريف مايذكر فى حفلة افتتاح المؤتمر الطبى العربى أن الدكتور زكى مبارك الأديب العربى الكبير وأستاذ الأدب العربى فى دار المعلمين العالية حضر الافتتاح بصفته دكتور «أبدان» لادكتور «آداب» وقد قال عن نفسه إنه حضر لمداوة ليلى المريضة فى العراق .

والنكتة فى الموضوع ليست بما ذكر أعلاه، وإنما هى فى مركز الدكتور فى الحفلة : فقد شوهد وهو يرتدى السدارة العراقية ويتقدم إلى الأطباء المصريين والسوريين مصافحا إياهم ومضيفا إلى ذلك هذه العبارة :

باسم العراق أحييكم .

وقد تقدم إلى أحد أصدقائه المعروفين من كبار أطباء مصر وتلقاه بهذه العبارة الرقيقة فقال الطبيب : أنا الدكتور محمد صبحى . .

فقال له الدكتور زكى مبارك : من أى بلد قدمت ؟ وفى أى فرع تخصصت ؟

فأجاب : أنا مصرى أشتغل بطب العيون . .

فقال له الدكتور زكى مبارك : هل تسمح لطبيب ليلى أن يشير عليك بحمل نظارة طبية ؟

فتنبه الدكتور صبحى وتلقى صديقه الدكتور مبارك المختفى تحت السدارة بالعناق والتقبيل .

وسرت هذه النكتة بين أعضاء المؤتمر فكانت حديثهم فى الصباح والمساء .

حيران حيران

حضرة الأستاذ محرر مجلة الهداية الإسلامية .

أقدم إليك أطيب التحيات ، وأذكر أنك تفضلت فطلبت منى كلمة للعدد الخاص ، وكنت أنتظر أن تعفينى من هذا الواجب ، لأنك تعرف مايثقل كاهلى من الشواغل الثقال ، وكنت أنتظر أيضاً أن أعفى نفسى ، ولكنى رأيت لكم أصدقاء فى الموصل يذكرونكم بالخير ، ويحبون أن يكون لى فى مجلتكم مكان ، ومن هؤلاء الأصدقاء أخوكم الأستاذ بشير الصقال .

موضوع هذا المقال مأخوذ من أغنية عراقية تقول : حيران حيران !! وحيرتى مزعجة مضنية لأنى أحب أن أكون من المصلحين ، ولكنى لاأعرف أين أتوجه ، ولا أتبين مايجب أن أصنع

ولم تكن حيرتى حيرة فردية ، وإنما هى حيرة إسلامية ، فالإسلام اليوم فى غربة موحشة ؛ ولكنه مع ذلك فى يقظة يحسب لها خصومه ألف حساب .

وإنما كان الأمر كذلك لأن المسلمين يملكون أخصب بقاع الأرض ، وهم يشرفون على أعظم البحار ، ويملكون نواصى

المشرق والمغرب ، ولو نفضوا عجاج الكسل عن رؤوسهم لسيطروا على العالم من جديد

ولكن هناك أوهام فردية واجتماعية تشل أعضاء الأمم الإسلامية ومن رأيى أنه يجب الاهتمام بتبديد تلك الأوهام ، وأنا أعتقد أن هناك دسيسة خطرة جدا يراد بها تمزيق الأمم الإسلامية ، وهذه الدسيسة لا يحبطها الإسراف فى التغنى بالماضى ، وإنما يحبطها أن تحارب بقوة وعنف ، وتقوم هذه الدسيسة على أساس القوميات العربية أو الإسلامية ، فمن أوهام اليوم أو دسائس اليوم أن العروبة شىء والإسلام شىء . فأين المصلح الجرىء الذى يجهر بأن الإسلام هو الذى أعز العرب وأن النبى عليه الصلاة والسلام لم يكن بطلا عربيا وإنما كان بطلا إسلاميا ؟

وقد جهرت بهذه الحقيقة مرات فى بغداد ، واحتملها منى العراقيون لأنهم يعرفون أنى مخلص ، والعراقيون يحتملون كل شىء من أهل الإخلاص

من رأيى أيها الأخ أن الإسلام لا ينهض إلا بنهضة اللغة العربية وأن من واجبنا أن ننشئ المدارس فى الهند والصين والأفغان وإيران وفى سائر البلاد التى يعيش فيها المسلمون لنقيم قواعد الأخوة الإسلامية على أساس متين

من رأيى أن يكون لنا « عصبة أمم » تفكر فى وصل الحاضر

بالماضى وتقنع الشرق بأنه ليس أقل حيوية من الغرب

من رأيى أن تكون لنا « عصبة صوفية » تؤمن بالله وحده وتستعد للجهاد فى سبيل الله لا فى سبيل المنافع الدنيوية .

من رأيى أن تكون لنا «عصبة أدبية» تغنى اللغة العربية بالأدب والبيان وتشعر شبابنا بأنهم يعيشون فى حماية لغة هى أغنى من الانجليزية والفرنسية .

من رأيى أن يقوم فريق من الأدباء المصلحين بتعليم أهل الشرق أن الإسلام لم يكن دعوة قامت بالسيف كما يشيع المرجفون وإنما هو هداية صريحة قامت لإنقاذ أمم العالم من الظلم والطغيان .

أيها الصديق : تذكّر ثم تذكّر

تذكّر أن أمم الشرق لن تصبر طويلا على مايريد لها الغرب . إن الغرب يريد أن يظل الشرق حقولا يزرعها كيف يشاء، وقطعانا يصرّفها حيث يريد .

وللإسلام غاية واحدة : هى أن يكون المسلمون سادة أنفسهم .

وقد خدعنا الغرب بما عنده من مدنية .

فلنخدعه نحن بما عندنا من مدنية .

عنده نور الكهرباء، وعندنا نور العدل .

عنده الزخرف ، وعندنا الحقائق .

عنده الاستعمار ، وعندنا الاستبسال .

نحن نريد أن نسيطر على ما نملك ، وما نحب أن نسيطر على الغرب بغير الحق .

أيها الصديق

تذكّر ثم تذكّر :

تذكّر أن الإسلام قوة وتذكّر أن نابليون حاول أن يكون امبراطور المسلمين لينتفع بقوة المسلمين ، وتذكر أن غليوم الثانى حاول أن يكون امبراطور المسلمين لينتفع بقوة المسلمين ، وتذكر أن موسيلينى يحاول اليوم أن يكون امبراطور المسلمين لينتفع بقوة المسلمين .

وما كان المسلمون من السوائم المهملات حتى يفكر فى رعايتهم عاهل الفرنسيس أو الألمان أو الطليان

المسلمون قوة عاتية وسيعرفون كيف يؤدبون الطاغين والمستبدين .

أيها الصديق

لقد تأمّلت فى هندامك فرأيتك تلبس لباسا شرقيا تحته لباس غربى ، فاعرف أن هذا اللباس الغربى هو الذى حرمنا من نعمة الصلاة ، وسيأتى يوم نعرف فيه أن الملابس الشرقية القديمة هى أصلح الملابس لأهل الشرق

أيها الصديق

لا تضق ذرعا بهذا الخطاب فقـــد كتبته فى ظلال الحيرة ، والحيرة هى أول خطوة فى سبيل اليقين

« يا أيها الذين آمنوا اصـبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلـكم تفلحون »

محمد العشماوي في بغداد

صديقي رئيس تحرير البلاد

طلبتم منى كلمة عن سعادة الأستاذ محمد العشماوى بك وكيل وزارة المعارف المصرية ، وأجيب بأنّ احتياجكم إلى من يحدثكم عنه ، مع معرفتكم بأكثر رجال مصر ، هو الصفة الأصيلة فى صفات ذلك الرجل النبيل ، فهو رجل لايحب أن يعرفه أحد من الناس . هو رجل لايعرف غير العمل ، والمطمح الأعظم فى نفسه أن يكون من النافعين لا من المشهورين

فإن لم يكن بدّ من ذكر شيء من تاريخه فإنى أذكر أنه من قدماء الأساتذة بكلية الحقوق ، وهو يشغل منصبه فى وزارة المعارف المصرية منذ سنين .

وإن لم يكن بد من ذكر بعض مذاهبه فى الحياة فإنى أذكر أنه رجل خلص خلوصاً تاماً من التعصب السياسى ، فهو صديق لجميع الأحزاب ، فلايتولى وزارة المعارف وزير من أى حزب إلاعرف أنّ العشماوى رجل لا غنى عنه لأنه يخدم مصر ولا يخدم الأحزاب

ومن الوجهة الادبية والذوقية أذكر أنّ العشماوى أكبر نصير للآداب والفنون .

ومن الوجهة القومية أذكر أن العشماوى من أصدق أصدقاء العروبة ، وهو يدعو إلى توحيد المناهج الدراسية فى الأقطار العربية

ومن الوجهة الاجتماعية هو خير الآباء ، ويكفى أن تنظروا كيف يصحب ابنه وابنته فى جميع الرحلات لينعموا بعطفه الأبوى الشريف

فإن سمعتم أنّ فى مصر قلقاً على مصير اللغة العربية فتذكروا أنّ محمد العشماوى هو باعث ذلك القلق ، لأنه يبغض أشد البغض أن تقع كلمة من العامية فى دفاتر التلاميذ

صديقى

لقد كنت أرجو أن تكون أيام هذا الرجل فى العراق فرصة أؤدى له فيها خدمة يذكرنى بها حين أرجع إلى القاهرة ، ولكنّ الحكومة العراقية انتهبته منى انتهاباً ، وأقبل عليه فضلاء بغداد فغمروه بالمأثور عنهم من الكرم واللطف ، بحيث لم يبق لمثلى فى خدمته مجال

وكنت أود أن أكتب له ترجمة مفصلة ، ولكنى أخشى أن لا يرضيه ذلك ، فاكتفوا منى مشكورين بهذا القليل ، والسلام .

بين الآباء والابناء

— ١ —

قد يعتقد الكثيرون أنني عند ما أكتب عن أبي أو أتحدث عنه ، إنما أكتب ما أكتب وأقول ما أقول متأثراً بما بين البنوة والأبوة من صلات. ولكنني في الواقع إذا كتبت اليوم عن أبي فإنما اكتب عن صدق ، فأنا الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يتحدث عن الدكتور زكي مبارك كرجل من رجال التربية والتعليم .

نشأ أبي نشأة ريفية في وسط عائلة قوية الجانب؛ لا تعرف غير القوة والجبروت ؛ فاكتسب صلابة الرأي ، وقوة الارادة ، وبعد النظر ، وسلامة الذوق . . . ثم تحول إلى المدنية الحديثة في إبان شبابه ، فلم يتأثر إلا بأصولها الحقيقية ، فجمع مع سلامة العقل ، سلامة الجسم ، وقوّة الروح ، وصفاء الضمير . فكان لذلك أثر كبير في تربيته وتعليمه ، وقد راضنا أبي على القوة ، فنشأنا بفضل الله أقوياء ، وقد كتب عن ذلك يقول [1] «أترونني أبكي على أطفالي ؟ هيهات ! لقد ورّثتهم خير ميراث حين ربيتهم على العنف والقسوة ، وحين أفهمتهم أنّ العالم لا يسعد فيه غير الأقوياء ، فإن تسلحوا بالقوّة فقد

---

(١) في مقاله المشهور الذي عنوانه (عند ما يواجهني الموت)

انتفعوا بما ورّثتهم، وإن استسلموا للضعف فعليهم ألف لعنة ، وأنا منهم برىء

وقد عوّدت أطفالى أكل اللحم فى كل يوم لينشأوا على قسوة الحيوان المفترس ، فإن لانت نفوسهم بعد ذلك فعلى أنفسهم جنوا ، وللضعيف الضيم والهوان

وقد نشأت فى قوم أقوياء ، وكان أبى أشجع رجل رأته عينى ، وكان أجدادى وأعمامى من نماذج القوة والبطش ، ولم يكن فيهم رجل مظلوم ، وإنما كانوا دائماً ظالمين ، فإن شاء أبنائى أن يكونوا لأبيهم وأجدادهم وأعمامهم ، فالدنيا أمامهم واسعة الأرجاء ، وإن ضعفوا فليذهبوا غير مأسوف عليهم . . . وفيهم بحمد الله فتيان يقرأون هذا الكلام ، فليعرفوا أنّ أباهم عاش عزيز الجانب لأنه كان قوى النفس ، وليتذكروا أن أباهم لن يموت يوم يموت إلا وهو أشجع الرجال »

وقد يدهش الكثيرون إذا عرفوا أنّ أبى مع قوّته وجبروته ، رجل كله كتلة من الإخلاص والوفاء والكرم ، فطالما ظللنا بسحائب العطف وسقانا أكواب الشهد وغمرنا بكرمه وحنانه ، وأقسم صادقاً أنّ أبى لم يجرح إحساسى مرة واحدة فى حياتى وإن كنت مخطئاً ، بل كان يعاملنا معاملة تدل على حسن التصرف وبعد النظر فهو يدفعنا إلى بحر الحياة لنجرب حلوها ومرها ، ثم يراقب

أعمالنا عن بعد ، فإن أخطأ أحدنا أعاده إلى الصواب بكل شفقة ورأفة قائلا «أنا لا أرضى لكم بغير التفوق المطلق لأن الرجل المتوسط لا يستطيع العيش فى العصر الحديث» وكان لهذه التربية أثرها فى أنفسنا ، فأنا لا أذكر يوماً عبث فيه أخى الصغير فى حضرة أبى مع أن أبى يعامله معاملة كلها عطف وحب وإخلاص ، ويخيل إلىّ أن هذه الطريقة من طرق التربية تبعث فى نفس الطفل أصدق آيات الإخلاص والولاء لأبيه ، وأروع صور الوفاء لوالديه ، وتعوده الاعتماد على النفس والشعور بالشخصية .

وقد راضنا أبى كذلك على العمل وهو رجل عمل بمعنى الكلمة فقد يقضى فى أيام فراغه وفى إجازات الصيف ثلاثة أيام متواصلة لا يغادر خلالها مكتبه بل يظل ساهراً ليصل الليل بالنهار فى العمل والتحصيل . ولعل القارئ يوافقنى على ذلك إذا اطلع على كتاب النثر الفنى . ورجل هذه أخلاقه يبعث فى روح أولاده حب المثابرة والكفاح بكل تأكيد . وكان من جراء ذلك أن ورثت عنه هذه العادة ، فلا أكون مبالغاً إذا قلت إننى كنت فى التعليم الثانوى أقوم بجانب دراستى المدرسيه بالكتابة فى الصحف ، ودراسة الهندسة اللاسلكية والكهربائية والميكانيكية بجانب الشعر والقصص والموسيقى .

وقد عودنا أبى الصبر ومواجهة الحقائق ، فهو رجل قلما ييأس ،

وإنما يواجه الحقائق بالحقائق فلا أنسى مطلقاً مساء يوم وفاة جدى رحمه الله فقد عاد أبى من سنتريس فى مساء ذلك اليوم يحمل الينا الخبر المشئوم ويبدى أسفه بقوة جبارة تغلب بها على حزن نفسه، وكبت بها عواطفه

وقد سافر أبى إلى العراق ولا أنسى ساعة وداعه، فقد وقفت أبكى كالطفل بينما راح هو يبتسم

وبعد فهذه صورة سريعة صادقة عن أبى رجل التربية، فإليه وحده أبعث بأصدق تحية .. وإليه أرفع آيات الحب والإخلاص.

ابنه الوفى

سليمان زكى مبارك

— ٣ —

صديقى

لقد شاء لك وفاؤك أن تمتعنى بخطاب خاص تبدد به ما فى صدرى من ظلمات، وكأنك لم تكتف بالأفراح التى يذيعها الصباح يوم وصوله إلى بغداد.

وقلت فى خطابك:

«أهنئك بأن لك خليفة فى الأدب والعلم والذوق والأسلوب

الإدراك هو سليمان زكى مبارك »

فهل تدرى أيها الصديق أن هذا الخطاب أزعجنى ؟

هل تعلم أنه ساءنى أن أعرف أنك ستنشر له كلمة عنى ؟

أنا أشهد غير مخدوع ولا مفتون أن هذا الشاب عنده بوارق من الفكر والذكاء

ولكنى أنظر إلى مصيره نظر الخوف والجزع ، لأنه يسارع إلى الشهرة كما يصنع اكثر الشبان فى هذا الجيل ، والشهرة المبكرة تفتن الشبان أشنع الفتون ، وتصرفهم عن التخلق بأخلاق الأبطال .

فإن كنت فى ريب من ذلك فتذكر أن فى مصر شباناً تعجلوا الوصول إلى الشهرة فوصلوا إليها قبل الأوان ، ولكنهم سيعيشون أطفالا ويموتون أطفالا ، وسيكون مصيرهم مصير الصحفى الذى اشتغل بالتحرير فى الجرائد المصرية أربعين سنة ثم مات قبل أن يشهد القراء بأنه صار من الكتاب !

وكان عندك فى جريدة «الصباح» محرر أنقذته أنا من هذا المرض ، فقد كان أخرج ديواناً شعرياً منذ سنين ، وطنطنت به الجرائد والمجلات ، ولكنى أبيت أن أشير إليه فى مقالاتى بجريدة البلاغ ، فلما عاتبنى قلت له : لن أعرفك إلا يوم تظفر بالدبلوم من كلية التجارة . ومن حقى أن أعتز بأنى أنقذت هذا الشاب من جنون

الشهرة فكانت النتيجة أن يظفر بدرجة عالية من درجاب الجامعة المصرية

ولعل من واجبي أن أتجاهل مكانته الأدبية إلى أن يصبح من رجال الاقتصاد

لقد ذهب ابنى سليمان منذ أعوام إلى جريدة البلاغ لينشر بعض اختباراته فى اللاسلكى فرحبت به الجريدة ، ولكنى تدخلت لوقف مقالاته ، فكيف جاز أن تشجعه فى غيبتى ؟ أنا ياصديقى أبغض هذا النوع من التشجيع

إن هذا الشاب يريد أن يتشبه بأبيه ، ولكن فى أى باب ؟ إنه يريد أن ينشر مقالات وأقاصيص فى الصحف والمجلات كما يصنع أبوه

فهل يعرف هذا الشاب المفتون أن أباه أحرز خمس شهادات عالية أصغرها شهادة الليسانس فى العلوم الفلسفية والأدبية ؟

وهل نسى هذا الشاب المفتون أنه رسب فى البكالوريا وهو يعيدها وقد يكون الجرى وراء الشهرة الكاذبة سبباً فى أن يرسب مرة ثانية ؟

قد يراجعنى هذا الشاب فيقول : وأنت أيضاً ياأبت رسبت فى امتحانات الليسانس مرتين !!

وهذا حق، ولكن اللجنة التى أسقطتنى مرتين فى امتحانات

الليسانس كانت مؤلفة من اسماعيل رأفت ومنصور فهمى وطه حسين

فمتى يكون من حظك أيها الشاب المفتون أن تسقط فى امتحانات الليسانس أمام لجنة مؤلفة من أمثال هؤلاء الرجال ؟

ومتى يكون حظك أن تظفر بإجازة الليسانس كما ظفر أبوك وهى مذيلة بأسماء كهذه الأسماء ؟

إنّ هذا الشاب عمل بالمثل الذى يقول «غاب القط فالعب يافار» فهو قد انتهز غيبتى بالعراق وأهمل دروسه ومضى يركض بين المطابع لينشر كتاباً فى اللاسلكى ، ولو كان من أصحاب القلوب لعرف أنى أقوم مفزوعاً من نومى فى كل ليلة ، لأنى لا آوى إلى فراشى إلا وأنا مشغول البال عليه ، فمن أى الصخور صيغ قلب هذا الشاب المفتون ؟

صديقى

ما كنت أحب أن ينشر مثل هذا فى جريدتك لولا يقينى بأنه يحارب نزعة خبيثة يعانيها الشبان فى هذه الأيام ، وقد يكون فى قرائك من يعانى من الآلام بعض ماأعانى ، فالذين فى مثل حالى يتمنون أن يكون لهم أبناء نجباء وأنا أخشى أن يخوننى الحظ فيكون أبنائى غير نجباء

كنت أتمنى أن يصنع أبنائى بعض ماصنعت مع أبى ، فما أذكر أنّ أبى بات ليلة وهو مؤرق الجفن بسببى ، وقد هتف باسمى مئات

المرات وهو على فراش الموت .

أما بعد فقد هذبت ألوفاً من التلاميذ ، وأدخلت النور على ملايين العقول فى المشرقين والمغربين ، وأنا مع ذلك أتشهى أن يكون لى من صلبى ولد نجيب .

فإن صح رجائى فى بعض أبنائى أو فى جميع أبنائى فتلك نعمة من الله

وإن خاب رجائى فى بعض أبنائى أو فى جميع أبنائى فتلك أيضاً نعمة من الله

ألم يجرب الله إيمانى فابتلانى بأخطر الأرزاء والخطوب ؟

لقد طوّفت بالشرق والغرب فى الدفاع عن لغة القرآن

لقد ابتدعت مئات الأقاصيص لأحبب الناس فى لغة القرآن

لقد تفرّدت بالزهد فى الوصولية لأقيم الشاهد على أنّ الواثق بربه لا يضيع

لقد وفيت لكل من عرفت لأخلق لوطنى أصدقاء ، فقد كنت أسمع أن حب الوطن من الإيمان

لقد أدخلت البهجة على جميع ما عرفت من القلوب ، فكيف يصل الحزن إلى قلبى عن طريق بعض الإخوان أو بعض الأبناء ؟

رباه !

أنت تعلم كيف خلقتنى ، وكيف سويتنى ، فاكتبنى عندك من الشهداء

الساعة صارت عشرة !

صديق ...

إن الساعة صارت عشرة .

ألا تصدق أن الساعة صارت عشرة ؟

إن كنت فى ريب من ذلك فاسمع هـذا الحديث :

كان سعادة وزير إيران المفوض فى العراق تفضل فدعانى لحضور الاحتفال بعيـد ميلاد صاحب الجلالة ملك إيران ، فقهرت نفسى على الخروج من عزلتى لأجيب هـذه الدعوة الكريمـة ، وقضيت هناك نحو ساعة أنست فيها بمحادثة فريق من كرام الرجال . وعنـد عودتى إلى المنزل رأيت رجلين ينتظرانى بالباب : أحدهما صديق عزيز ، وثانيهما زائر كريم .

فالتفتّ إلى الصديق وقلت : من أتى بك ؟ ألم أقل لك أكثر من عشرين مرة إنى لا أحب أن يزورنى أحـد ؟ ألم أنشر فى الجرائد مرات ومرات أن وقتى لا يتسع للزيارات ؟

فتبسم الصـديق وقال : لطفاً ، لطفاً ، فما جئت إلا بالرغم منى ، وصاحبى هـذا قدم من الموصل ورجانى أن أدله على بيتك ليراك ودخلنا فجلسنا لحظة وأنا على جانب من سوء الخلق لأنى كنت

أحب أن أخلو إلى القلم والقرطاس ، ولكن الزائر الكريم ظنني أمزح فاحتمل سوء خلقي ، ثم اقترح الصديق أن نخرج فنقضي لحظة في أحد الأندية فاعتذرت ، فقال : راع حق الموصل . فقلت : حباً وكرامة !

وخرجنا فجلسنا في أحد الفنادق نحو نصف ساعة ثم استأذنت .

وسأل الرفيقان : متى نلتقي ؟ فقلت : بعد شهر !

فقال الزائر الكريم : إني لن أقضي غير أسبوع واحد في بغداد

فقلت : سأزورك في الموصل !

فقال : أراك تهرب مني !

فقلت : لا أهرب ولكني مشغول

وبعد ثلاث ليال سمعت طارقاً يناديني ، فنظرت فإذا هو أديب الموصل ، فاستقبلته وأنا متضجر متأنف ، ولكنه ظنني أمزح ، كأنه استكثر أن ألقى الضيف بالتضجر والتأنف ، فتشجعت وقلت : إنني أحرم نفسي من إخواني في العراق وأعتكف في المنزل لأتمم كتاب عبقرية الشريف الرضي .

فقال ولكن نحن على موعد مع الصديق (ع) .

فقلت : ما أظننا على موعد .

فقال : هو ينتظرك .

فقلت : هذا بعيد .

فقال: ولكن لا بدّ على أى حال من الخروج للسهر فى هذه الليلة.

فقلت : هذا مستحيل ، لأن كتابى أعز علىّ منك .

فابتسم وقال : ولكن الليلة عيد ميلاد صاحب الجلالة ملك العراق .

فقلت :أحسنت إذ نبهتنى إلى ذلك ، فمن الذوق أن أشارككم فى الأفراح ، ولكن اسمع ياصديقى : نحن فى الساعة السابعة وقد شرعت فى كتابة بحث مهم جداً ، ويؤذينى أن أخرج الآن ، فارجع إلىّ فى الساعة العاشرة ، وسأكون فى صحبتك إلى نصف الليل .

فقال : وأنا أقترح أن نخرج الآن ثم تعود فى الساعة العاشرة لتخلو إلى عملك ماطاب لك .

فقلت : هذا حل موفق

وقدمت إليه جملة من المجلات المصرية ليتلهى بها حتى أستعدّ للخروج

* * *

خرجت فى صحبة الزائر الكريم وأنا متضجر متأفف ، ولم يهن الأمر على نفسى إلاحين خطر بالبال أنّ بكائى سيطول على الصحة التى أُنفق منها بلا حساب فى سبيل الأدب ، فأنا أشتغل فى كل يوم أكثر من سبع عشرة ساعة ، وجبال الكحل تفنيها المراود ، وهيهات أن تبقى صحتى مع هذا الكدح المخيف ، وأخشى الا أظفر بكلمة رثاء يوم يشيعنى الناس إلى قبرى ،

فذاكرة بنى آدم ضعيفة جداً ، وهم لايذكرون إلا من يؤذيهم ، أما الذى يخدمهم ويشقى فى سبيلهم فلا يذكره أحد منهم بالخير إلا وفى كلامه نبرة تشير إلى أنه يتصدق بكلمة المعروف .
عفا الله عنكم يابنى آدم وعفا عنى !

خرجنا فضينا إلى منزل الصديق فرأيناه يسمر مع زوجته ، ولم يكن ينتظرنا كما زعم صاحبى ، ولكنه مع ذلك جرى على الفطرة العراقية فاستقبلنا أكرم استقبال

وتلطفت الزوجة الكريمة فأحضرت فناجين القهوة والشاى ، وبعض الطيبات من الفاكهة والحلواء

أما الصاحب الموصلى فأخذ يتلهى بالخطاب الموجه إلى ليلى المريضة فى الزمالك على صفحات الصباح ، وأما الصديق البغدادى فشاركنى فى متابعة الأغانى التى يجلجل بها المذياع ، ودار صوت من أصوات أم كلثوم فكدت أبكى ، ثم ابتسمت فجأة حين تذكرت أنه لا بدّ من انتهاب قبلة أو قبلتين من أم كلثوم يوم أعود ، وهل تستطيع أم كلثوم أن تفر من يدى ؟ هيهات هيهات !

وانقطعت الأغانى وشرع طبيب يتكلم عن العناية بصحة الطفل فقام صاحب البيت وأغلق المذياع بعنف .

فقلت : ماهذا الحمق ؟

فقال فى ألم موجع : إن هذا الطبيب هو الذى قتل طفلى

ومدّ يده إلى الحائط فأنزل لوحة فيها صورة طفل يشبه أدونيس ابن أفروديت

وجريت على عادتى فى درس الوجوه والعقول والقلوب ، فرأيت الزوجة تتطلع إلى صورة الطفل وهى فى مثل حال الظبية المروّعة التى اختطف الأسد رشأها منذ لحظة أو لحظتين .

ثم تغير حالى أشدّ التغير ، وغلبنى الحزن ، وتذكرت الدواء الناجع الذى ينقذنى من أحزانى ، وهو دواء مركب من ثلاثة عناصر هى الكتاب والقلم والقرطاس

فجريت إلى معطفى ألبسه لأخرج ، فنظرت الزوجة نظرة تلطف وقالت : هذا منزلك يادكتور ، فما الذى أزعجك ؟

ثم وقف فى وجهى صاحب البيت وهو يقول : لن تخرج ، لن تخرج

ورأيت موقفى صار سخيفاً جداً فقلت : اسمع ياصديقى ، أنا أخشى أن تكون دسيسة من دسائس الدكتور طه حسين !

فضحك وقال : وهل للدكتور طه حسين دسائس !

فقلت : هو يحاول منذ سنين أن يخلق لى صداقات كريمة تصدنى عن متابعة الإنتاج الأدبى ، وأخشى أن يكون كرمك من عقابيل تلك الدسائس .

وكانت فكاهة غمرت المجلس بالضحك وساعدتنى على الخلاص

* * *

وفى السيارة تحدث الرفيق الموصلى فقال : يظهر أنك مصمم على العودة إلى منزلك .

— نعم ، وهل فى هذا شك ؟

— ولكن الساعة العاشرة لم تحن ، وأنت وعدت بأن نظل معاً إلى الساعة العاشرة

— أعفنى ياصديق ، فأنا أشغل مطبعتين فى بغداد ، وسيطرقون بابى مع الشروق ليقدموا التجارب ويطلبوا الأصول

— تذكر أنى راحل إلى الموصل

— ألم أقل إنى سأزورك فى الموصل ؟

— أنا لاأضمن ذلك ، وتكفينى ساعة واحدة فى صحبتك ، من التاسعة إلى العاشرة .

— ألم تسمع حكاية العالم مع الأمير ؟

— وكيف كان ذلك ؟

— زعموا أن عالما دخل على أحد الأمراء فدعاه الأمير إلى المنادمة ، فقال العالم : إنما وصلت إلى مولاى بالعقل ، فأنا أكره مايذهب العقل ، وأنا ياصديق لم أصل إلى مسامع أهل العراق إلا بالمحافظة على الوقت ، فأنا أكره مايضيع الوقت ، ولولا هذه المزية

لما أمكن أن أكون من كبار المؤلفين

ـــ هي ساعة واحدة تكرم بها أديباً يعشق أدبك ثم تعود فتخلو إلى قلمك كيف شئت

* * *

وكانت لحظة دار فيها رأسى فتذكرت ماكتبت عن أدب الأخوة فى كتاب التصوف الإسلامى ، وتذكرت الحكيم الذى قال «إذا قلت لصاحبك : هلم بنا ، فقال : إلى أين ؟ فليس بصاحب»

فقلت . لك ياصديقى ماتشاء ؛ على شرط واحد

ـــ ما هو ؟

ـــ أن نفترق فى الساعة العاشرة

ـــ وهو كذلك . ولك الفضل

دخلنا فى فندق . . فلم نر فيه مكاناً خالياً فذهبنا إلى فندق . . فرأيناه أشبه بسفينة نوح

فمضينا إلى فندق . . فرأيته لايليق برجل يشتغل بالتدريس ، والمدرس مسئول عن كرامته ولا يليق به أبداً أن يدخل مكاناً تحيط به شبهات

واعترض رفيقى فقال : هذه ليلة أنس يباح فيها مالا يباح

فقلت : هى ليلة عيد فى قصر جلالة الملك ؛ ولكن يغلب على ظنى أن الملوك لايعرفون الأعياد ، ومن يدريك فلعل جلالة الملك

فى هذه اللحظة مشغول بتدبير بعض الشؤون

فتضجر رفيق وقال : ولكن الملك يسره أن يفرح الشعب فى ليلة عيد

فقلت : ولكن يسره أيضاً أن يعرف أن شعبه لا ينسى كرامته فى ليالى الأعياد

— سمعت أنّ الملك فؤاد كان يترك ضيوفه أحراراً فى سهرات قصر عابدين ويكتفى هو بشراب الليمون

— ولو أنهم تأدبوا بأدبه فاكتفوا بشراب الليمون لكانوا إلى قلبه أحب وأقرب

— أنت رجل مزعج يا دكتور !

— لست بمزعج ، وإنما أحب أن أرجع إلى قلمى وكتابى

* * *

وانتهى بنا المطاف إلى فندق يغلب عليه التجمل ، إن كان للتجمل مكان بين أكواب الصهباء

جلس رفيق وجلست بالقرب من جماعة يسكرون ويعربدون

جلست وأنا متهيب ، وجلس رفيقى وهو متهيب

أما أنا فتهيبت لأن هذه الجماعة تعرفنى وربما كان أحدهم أباً أو

عماً أو خالا لأحد تلاميذى ، وأنا مسئول عن كرامتى أمام هؤلاء الناس .

وأما رفيقى فتهيب لأن هذه الجماعة بها ثلاثة هو لهم رئيس

وأخذت أدرس الوجوه والشمائل والخصال لأصحح أغلاطى فى فهم الأدب العربى ، وهنا أصرح بأن الدراسات الفلسفية لا تطيب لى إلا فى مدينتين اثنتين : باريس وبغداد

أما باريس فأمرها معروف ، لأن جميع الوجوه هناك كانت مألوفة لدىّ ، لأنى رأيت صورها فى مؤلفات المبدعين من أقطاب الأدب الفرنسى ، وأما بغداد فإنى أرى فيها صور الرجال الذين أُولعت بدراسة آثارهم العلمية والأدبية والفلسفية منذ أعوام طوال

أما القاهرة فليس فيها وجه رأيت صورته فى كتاب ، لأن أدباء القاهرة فلاسفة عظام لا تراهم إلا فى مكانين : بغداد فى العصر العباسى ؛ وباريس فى العصر المنصرم ، أو طلائع العصر الحديث ، وربما تظرف فريق منهم فحدثونا عن أدب اليونان والرومان !

ثم يقول الرفيق الموصلى : الساعة صارت عشرة يا دكتور !!

فأخرج ساعتى من جيبى فإذا هى ١١

فأقول : بقى وقت . . . ثم أعود إلى درس الوجوه من جديد

هذا هو الشعب العراقى ، الشعب الطروب الذى لا يشغله الجد عن اللعب ، ولا يصرفه اللعب عن الجد

هـذا هو الشعب الذى طال عهده بكفاح الأيام والخطوب ثم بقيت عنده ذخيرة من الابتسام

ثم أخذ السامرون يغنون ، والعراقى إذاطرب غنّى فأجاد الغناء ولم تقع فى أغانيهم كلمة بذيئة ، ولم تنفرج شفاههم عن كلمة فيها رائحةالفحش ، ولم يتوهم أحد أن المجلس قد يقع فيه ماينافى الذوق ؛ هذا هو الشعب العراقى ، وتلك شمائله وسجاياه

فإن وقع منه مايؤذيك فتذكر أن مياه الأنهار قد تقع فيها أحياناً أقذاء ، وتذكر أن البدر لايخلو من كلف ، وتذكر أن الأزهار قد تحيط بها أشواك ، ثم تذكر أن الحياة فيها الشهد والصاب

* * *

يقع هذا ورفيقى متجمل متهيب ، ولـكنه يخرج فجأة عن وقاره ويغـــنى :

فيك ناس ياليل بيشكو لك مواجعهم

بالله ياليـل ما تبقاش تواجعهم

أجريت ياليل على الخدين مدامعهم

باتوا حيارى بطول الليل سهرانين

ياخوفى ياليل من طول المدى معهم

فأخرج علبة السجائر وأكتب فوقها هذا الموال ، ثم أتذكر أنى كنت سمعته من رجل جالس متربع فوق جسر أبو العلا منذ سنين ،

وكأنى سمعته بالأمس فقد كان المغنى « ابن بلد » وكانت سيماه تشهد بأنه ذاق طعم الصبايا فى بولاق ، وأنه اكتوى بنيران العشق ، وقاسى لواعج الأشواق ، ثم يثب الخيال إلى آفاق بعيدة جداً ، فينتقل من بغداد إلى بولاق ومن بولاق إلى باريس ، فأتذكر أنى كنت أعطف أشد العطف على الدكتور الديوانى مدير البعثة المصرية فى باريس لسبب واحد هو أنه من مواليد بولاق ، بولاق العظيمة التى صنعت المدافع لتحارب بونابارت ، والتى سمعت على جسرها فى ليلة صيف :

لك ناس ياليل بيشكولك مواجعهم

وقد تفضلت على الدكتور الديوانى فقصصت عليه هذا الحديث فى سهرة من سهرات باريس فى سنة ١٩٢٨ .

ثم يقع ماهو أعجب : ذلك بأن أحد المعربدين يحسب الرفيق الموصلى فتى مصريا ، لأنه يغنى موالا مصرياً ، فيقبل عليه ويقول : نحن فى العراق أربعة ملايين وعندنا قوة جوية ، وأنتم فى مصر ثمانية عشر مليونا ولا تملكون قوة جوية تناسب عظمة مصر .

فأعرف أن أهل العراق لا يفكرون فى غير الحرب والقتال .

ويضحك رفيقى ويقول : ألا ترى كيف رآنى العراقيون مصريا ؟

فأجيب : والأغرب أن يروا سكان مصر ثمانية عشر مليونا .

ويتدخل ذلك المعربد فيقول : إن سكان مصر فى الواقع يبلغون خمسة وعشرين مليونا .

فأقول : أفصح يا أخا العراق

فيقول : إنما أعنى سكان مصر والسودان .

آه آه آه

إن جنود العراق يذكّروننا بالسودان ، ولكن أين من يسمع ؟

* * *

ثم يقول الرفيق الموصلى : الساعة صارت عشرة يا دكتور

فأخرج ساعتى من جيبى فإذا هى ١٢

فأقول : بقى وقت

فيقول : مطابع بغداد تنتظرك

فأقول : أنا لها ، أنا لها ، لأنى أستثقل النوم فى الليل ، وهل جئت إلى بغداد لأعرف فيها طعم النوم فى الليل ؟

ثم نخرج لنعود إلى منازلنا ، فيقترح الرفيق الموصلى أن نطوف ببعض الملاهى

، فأقول لا بأس ، فهذه ليلة عيد ؛ وما أقل الأعياد فى حياتى !

وفى ملهى لا أسميه أرى صديقاً عذب الروح وفى يده كأس ويدعونى إلى منادمته فأرفض لأنى سكرت من كأس أحزانى ، ثم تقبل فتاة ندية الجسم كأنها من دمياط فتدعونى إلى الرقص

فأرفض أن أرقص ، لأنى راقصت أشجانى

* * *

ويقول الرفيق الموصلى : الساعة صارت عشرة يادكتور

فأخرج ساعتى من جيبى فإذاهى الثالثة بعد نصف الليل ، فأصرخ :

نعم ، الساعة صارت عشرة !

صحيح ، الساعة صارت عشرة !

مؤكد ، مؤكد ، الساعة صارت عشرة !

ثم نخرج ؛ ويجرى هذا الحوار فى الطريق :

— هل أستطيع أن أخبر أهل الموصل أنى قد قضيت نحو تسع ساعات فى صحبة الدكتور زكى مبارك ؟

— حدّث أهل الموصل عنى بما شئت فهم إخوان أعزاء

— ولكن أدباء الموصل سيسألون عن أسباب النجاح الذى ظفر به الدكتور زكى مبارك فى حياته الأدبية

— قل لهم إن زكى مبارك نجح فى حياته الأدبية لأنه رجل يؤمن بأن رزقه بيد الله لا بيد الناس

— ثم ؟

— ونجح فى حياته الأدبية لأنه يعشق الصدق ، ويبغض الرياء

— ثم ؟

— لأنه يبذل دمه فى سبيل الوفاء

— ثم ؟

— لأنه لم يقدم أية إساءة إلى أى مخلوق ، وكان أصدقاؤه يكتبون له بأيديهم صحيفة الاتهام .

— ثم ؟

— لأنه أحب كل بلد عاش فيه : فعشق سنتريس والقاهرة وباريس وبغداد .

— ثم ؟

— قل لأهل الموصل إن زكى مبارك نجح فى حياته الأدبية لأن اسمه زكى مبارك

ليلى المريضة في العراق

ليست مصرية وإنما هى عراقية

صديقى . . .

لعلك تعرف أن من حقى أن أعتب عليك فللصداقة حقوق ، ومثلك من يراعى شروط الوفاء

من هـذا الـكاتب الذى اسمه (محمد) والذى وجد من كرمكم مايسمح له بأن ينشر فى الصباح أنى أجترئ على الحقيقة وأن ليلى المريضة فى العراق ليست عراقية وإنما هى مصرية ؟

إنك ياصديقى تعرف أنى لست من كتاب الأقاصيص حتى يتهمنى هذا الـكاتب بأنى أكتب قصة غرامية ، وتعرف أنى ما فـكرت يوماً فى أن أزاحم محمود تيمور أو توفيق الحـكيم ، وإنما أنا طبيب أضاعه الأدب فلم يبق أمامه إلا أن يقضى بقية عمره فى خدمة الحقائق

وأسارع فأقرر أن نتائج أبحاثى عن ليلى المريضة فى العراق كانت من أصلح ما ينشر فى الصباح ، ولـكنى خشيت أن تظنوها قصة فقدمتها إلى الرسالة لأن صديقنا الزيات عاش مدة فى بغداد وعرف أشياء من أخبار ليلى المريضة فى العراق

وقد حققت الأيام ماتوقعته وسمحتم لأحد محررى الصباح أن

يثير الظنون حول ليلاى ، شفاها الله

على أنى أرى من الإنصاف أن أنص على أن صديقكم (محمد) كان أكرم من صديقكم (خلدون) الذى يكتب فى جريدة الأهرام ويسمر مع (الشناوى) فى بار اللواء

فصديقكم (محمد) يرتاب فى غراميات زكى مبارك لأن الذى يؤلف كتاب النثر الفنى لا يتسع وقته للغراميات ، وأنا والله أخشى أن يجىء ناس فيزعموا أن كتاب النثر الفنى من تأليف الدكتور طه حسين ، ولن يكون هذا غريباً ، فقد نشرت عدة مجلات أن كتاب (الأخلاق عند الغزالى) من تأليف الدكتور منصور فهمى ، وقد يقول ناس فيما بعد إن كتاب (التصوف الإسلامى) من تأليف الأستاذ مصطفى عبدالرازق ، فالذى صنعه صديقكم (محمد) كان من الكرم والنبل ، أكرمه الله ورعاه

ولكن تعالوا فانظروا ماذا صنع الأستاذ خلدون :

قدمت إليه نسخة من كتاب (ذكريات باريس) وهو كتاب تعرفون قيمته الأدبية والاجتماعية ، وتعرفون أنه كان الطليعة للمؤلفات التى نشرت بعد ذلك عن باريس ولندن وبرلين

فهل تذكرون ما صنع ذلك الصديق ؟ هل تظنون أنه أدى واجب النقد الأدبى نحو كتاب كان ولا يزال أجمل ما خط كاتب فى وصف باريس ؟

لم يصنع شيئا من ذلك وإنما قال إن ذلك الكتاب يشهد بأن زكى مبارك كانت له غراميات فى باريس ، و زكى مبارك دميم الوجه فلا يعقل أن تكون له غراميات

وأنا يا صديقى أعترف بأنى لست مخلوقاً جميلا ، وإن كانت ليلى ترانى أجمل إنسان ، ولكنى أنكر أن يكون وجهى دميما جداً ، إنما الوجه الدميم جداً هو وجه الأستاذ خلدون الذى يعدّ بحق جاحظ هذا الزمان

وقد فكرت مرات فى أن أقترح على نقابة الصحافة ـ وكانت موجودة يومئذ ـ أن تشترى وجهاً للأستاذ خلدون ، ثم عدلت عن هذه الفكرة ، لأن صديقى وصديقكم خلدون يتلألأ وجهه بالجاذبية ، وإن زعم ناس أن دمامة وجهه لاتطاق ، والعياذ بالله

ليس لى غراميات ، لأنى ألفت كتاب النثر الفنى ، كذلك يقول الأستاذ محمد

ليس لى غراميات ، لأنى دميم الوجه ، كذلك يقول الأستاذ خلدون .

وأنا والله راض بحكم هذين الصديقين .

ولكن ماذا صنعتم فى إنصافى ؟

أنا بشهادتكم جميعاً من كبار المؤلفين ، وبشهادتكم جميعا لا أصلح للغراميات

فما الذى يمنع وهذه حالى من أن أكون مدير الجامعة المصرية أو شيخ الأزهر الشريف

إنّ مقامى فى التأليف أعظم من مقام لطفى باشا والشيخ المراغى، فليس لأحدهما كتاب يشبه كتاب النثر الفنى، ولطفى باشا أجمل منى، على أرجح الأقوال، أما الشيخ المراغى فله ابتسامة عذبة تحدثت عنها مرات فى مقالاتى بجريدة البلاغ .

حدثونى ماذا صنعتم فى إنصافى، أيها الجاحدون!

أتحسبون أنى أقبل العيش فى الدنيا بلا غرام وبلا مجد ؟ هيهات، هيهات!.

أنا أعرف السبب فيما يغيظ بعض الناس من غرامياتى .

هم يرونى أبتدع فناً جديداً فى اللغة العربية، ويرون أنى انتهبت منهم جماهير القراء، ويعرفون أنى الكاتب الوحيد الذى يتلقى من قرائه نحو سبعين رسالة فى كل أسبوع، فهم يقولون بلسان الواعظ الكذاب : احترس يادكتور زكى فأنت تسوىء سمعتك بهذه الغراميات، وأنت تضيع المستقبل الذى ينتظرك فى وزارة المعارف .

وكنت والله مستعداً لقبول هذه النصائح الغالية، ولكن هل أنصفنى هؤلاء الناصحون وقد كنت بلا جدال أعظم المؤلفين فى علم الأخلاق ؟ .

أحب أن أعرف من هم الناس الذين يستحقون أن أصطنع فى

معاملتهم مذاهب الرياء ؟ .

لقد أقنعتنى عقيدتى بأن رزقى عند ربى ، وما أذكر أبداً أن الله عز شأنه عاقبنى بالجوع ، فلتكن حياتى هى الشاهد على أن الأرزاق بيد الله لا بيد الناس .

وما أزعم أنى أتقى الأتقياء ، فعلم ذلك عند ربى ، وإنما أستطيع أن أؤكد اننى أقوى ديناً وأصح عقيدة من بعض الذين تسنموا أعلى المناصب بفضل الرياء .

وأعود إلى صميم الموضوع فأقول :

إن الكاتب الذى أراد أن يشكك القراء فى حقيقة ليلى زعم أن (الاسطوانة) التى تصدح

يقولون ليلى فى العراق مريضة

فياليتنى كنت الطبيب المداويا

زعم هذا الكاتب أن هذه أنشودة تغنيها مطربة ، لا أكثر ولا أقل ، كذلك والله قال ، وما أفترى عليه ، فمن كان فى ريب من ذلك فليراجع العدد (٥٩٢) من جريدة الصباح

فما رأيه إذا أحلته على ما سينشر فى مجلة الرسالة من أخبار ليلى ؟

إنه إن أطاعنى وقرأ تلك السلسلة فسيعرف أن السيدة نادرة لم تغنّ تلك الأنشودة بلا سبب ، ولولا الخوف من تبديد أسلوب القصة فى مجلة الرسالة لعجلت بنشر الحقيقة على صفحات الصباح ، وذلك

ما لا يرضيك ياسيد مصطفى ، وأنت من أعرف الناس بحقوق الزملاء .

ثم ما ذا ؟ ثم ما ذا ؟

ثم يصرح صاحبكم بأن ليلاى مصرية لا عراقية وأنها تقيم بالزمالك

أهلا وسهلا ، وهل أنكر أن هناك ليلى تقيم بالزمالك وأن بينى وبينها أشياء ؟

هذا حق ، ولكن صاحبكم يفترى ولا مؤاخذة حين يزعم أنه زارها معى بصحبة الدكتور سعيد عبده ، فمتى كانت هذه الزيارة ؟ إننى لا أذكر أبداً أنه صحبنى إلى ليلى المريضة فى الزمالك ، وإنما أذكر أنه كان فى معيتى هو وسعيد عبده حين ذهبت لزيارة ليلى المريضة فى مصر الجديدة ، وكان الذى دعانا لزيارتها أمير الشعراء شوقى طيب الله ثراه .

صديقى

معذرة إليك إذا أطلت القول فقد ثارت شجونى .

كان شوقى رحمه الله أراد أن يعرف بعض المستور من خلائق النساء فدعا ثلاثة لزيارة ليلى . وأنا أولهم وثانيهم محمد وثالثهم سعيد ، وكنت يومئذ شيخا معمما ، شيخا ضئيلا دميما لا يقام له ميزان ، وكان محمد وسعيد من أجمل الشبان فى القاهرة ، على ماضيهما السلام ، فلما دخلنا على ليلى لم تأنس بوجه غير وجهى ، فهل كانت تنافق ؟

ذلك ما زعمه صديقنا محمد وأخونا سعيد .

أما شوقى رحمه الله فصرح بأن عندى مزايا تفتن النساء ، وتفضل رحمه الله فأعطانى ثلاثين جنيها أستعين بها على طبع كتاب (حب ابن أبى ربيعة) ولولا تلك المنحة لعجزت عن إخراج ذلك الكتاب الطريف الذى طبع ثلاث مرات .

يالوعة القلب !

ويا غضبة الله على الأديب الذى أثار هذه الذكريات !

فقد كانت تلك السيدة تحب وتعشق

كانت تحب أبناءها وتعشق زوجها

وكان زوجها من الغادرين ، وأبناؤها من أهل العقوق

وكنت أستطيع أن أمزج هواها بهواى ، وأنا رجل قاتل النظرات ، ولا أذكر أبداً أنى رميت سهماً فطاش ، ولكن فى صدرى بقايا من المروءة ورثتها عن أبى وجدى

وكذلك رأيت أن أترك تلك السيدة لزوجها وأبنائها ، ولكنها — واحر قلباه — ماتت بعد ذلك بعامين اثنين

فإن سمعتم أن فى مصر الجديدة شارعاً لا أمرّ به فى الليالى المقمرة فاعلموا أنه الشارع الذى كانت تقيم فيه تلك السيدة الحسناء ، على روحها أطيب الرحمات

لا تذكّرونى أيها الأصدقاء بما عانيت فى حياتى من لواذع الوجدان ، وانسونى قليلا لأنسى أحزانى ، فقد طال ما قاسيت من شقاء الروح وعذاب الفؤاد

الى ليلى المريضة فى الزمالك

سيدتى

أشكر لك مرة ثانية ما تفضلت به من الكلمات الطيبات التى عطرت بها صفحات الصباح .

وليتك تعرفين كيف تقع كلماتك على قلبى ، إنها يا مولاتى تفعل به ما يفعل الندى بالزهر الظمآن ؛ وهو قلب مفطور مجروح ، عافاك الله مما يعانى ! .

ليتك تعرفين كيف أتنسم العافية كلما قرأت كلمة لسيدة لها قلب مثل قلبك ، فما تمثلت القلم فى أناملك اللطاف وأنت تصوبينه إلى صدرى إلا طار صوابى وانتشيت .

وليتك تعرفين مرة ثالثة أننى لا أملك فى مجازاتك على ما تبدين من رفق ولطف غير الاعتراف بأنى المذنب ، وأن إليك غفران الذنوب .

سيدتى

أتأذنين للعبد المذنب أن يحاسب سيدته الكريمة بعض الحساب؟

إن أذنت فأنا أسأل : كيف جاز لك أن تدافعى عن الأستاذ محمد ؟ ألم تقرئى ما كتب فى الصباح ؟ ألم تنظرى كيف أهان الحب فجعله ضربا من اللهو والمجون ؟

أنا ياسيدتى لا أجهل فضل هذا الصديق ، ولن أنسى مروءته ما حييت ، ولكنى أراه فى حاجة إلى تقويم وتثقيف ، وسأُدخل فى دمه شيئاً من الحديد ، وسيذكرنى بالخير يوم يعرف أنى أنشأته خلقاً جديداً .

ما هذا ؟ أرانى أخطو إلى مكاشفته بما فى نفسى ، لا ، اسمحى لى أن أحبس قلبى ، فعندى صواعق سأصبها فوق رأسه إن حدثته النفس بمصاولتى ، وأرجوك أن تأذنى بطرده نهائيا من جنة الحب ، فلا يعود إليها إلا إن تاب وأناب ، ولست باليائس من أن يتوب وينيب ، فعطفك عليه خليق بأن يغمر قلبه فى كوثر الصفاء .

لا تؤاخذينى ياسيدتى ، فقد امتلأ قلبى بالحقد على هذا الصديق ، لا تؤاخذينى فقد كنت أظن أننى رفعت قدر الحب بعد أن شغلت قلبى وقلبى بالحديث عنه عشرين عاما أو تزيد ، ثم عرفت وا أسفاه أن فى مصر كاتبا اسمه الأستاذ محمد يستبيح لنفسه أن يقول إنه زار معشوقة الدكتور زكى مبارك وإنها أطلعته على الخطابات المعطرة التى يرسلها من بغداد .

ألم تقرئى هذا الكلام ياسيدتى ؟ ألم تعجبى من الجرأة التى زينت له أن يكتب خطابا على لسانى ليزعم أنه خطاب كتبته فى بغداد إلى ليلاى فى الزمالك ؟

أرجو أن تعرفى أن هذا المزاح لا يضايقنى لأنه لا يفضحنى أمام

أحد ، فكل كاتب يمكن أن تزور باسمه رسائل الحب ، إلا زكى مبارك ، لأن لى أنفاسا حراراً يعرف الناس بها أدبى ، ولا يستطيع الأستاذ محمد ولا ألف من أمثاله أن يلفقوا على حسابى ما يشتهون .

ولكن لا بأس ، فهذا صديق يثق بالسلامة من شر غضبى ، ولو كنت فى القاهرة لأدبته بيدى ، فإن سمعت فى الصيف المقبل أنى قتلت رجلا فسيكون ذلك الأفاك الأثيم .

أما الدكتور سعيد عبده فلا يهمنى من أمره غير الاطمئنان على صحته الغالية ، فقد رأيته يتوكأ على عصا ، والدنيا سخيفة كل السخف حين تسمح بأن يتوكأ الدكتور سعيد عبده على عصا ، ذلك الفتى البسام الذى جاد قلمه بأجود الرسائل وأطيب الأقاصيص .

ثم ماذا ياسيدتى ؟

ثم تدلينني على منزلك فى الزمالك فتقولين :

« فاذا سرت يمينا ثم شمالا تجد بيتى فى مواجهتك ينهض على أعمدة من البلور وتصعد إليه على درجات من المرمر ، فإذا سرت فى أبهائه فأنت مسحور مأخوذ مبهور الأنفاس »

الله ، الله !

هذا صحيح ، وإنى لأتذكر أنى زرتك ياسيدتى فى ذلك البيت ، ولكنى أنكر أنى أسير يمينا ثم شمالا ، فقد كنت أسير إليه شمالا ثم يمينا ، ولكن قولك أصدق ، فقد أكون نسيت لطول العهد ، ولكثرة

ما يحمل القلب من هموم وأحزان . عافاك الله مما أعانى .

ثم تقولين :

« طالما تركت لك يدى لتقبلها ، وهذا لم يمنع من أن تأنس روحى إلى روحك »

فأنت تشهدين بأنى قبلت يدك الكريمة وأن روحك أنست بروحى .

فهل تعرفين معنى ذلك ؟

معناه يامولاتى أنى ظفرت منك بطايف من الحنان ، وهذا يزيد فى وقدة الشوق ، فما وردت مورداً من موارد الحب إلا طال وجدى به وشوقى إليه ، ولا رشفت ثغراً إلا بقى عطره فى فمى ، ولا استروحت ظلا من ظلال الحسن إلا بقى روحه فى فؤادى ، ولا رفعت بصرى إلى وجه مشرق إلا بقى ضياؤه زاداً شهياً تقتاته عيناى ، ولا لعبت أناملى فى الجدائل المعطرة إلا بقيت صورة هذا العبث الظريف مدار أوهامى وأحلامى .

سيدتى

إن خطابك لا يخلو من مزاح .

ولكن هل يؤذينى هذا المزاح ؟ وكيف وهو يشهد بأنك كتبت ما كتبت وأنت تبسمين ، ولو كانت البسمات مما تدفع فيه كرائم الأموال لبعت عقلى لأشترى لك بسمة أو بسمتين ، أنا المحب الصادق

الذى يبذل الدمع والدم فى سبيل الملاح . . وهل أبقى لى الهوى عقلا يشترى أو يباع ؟

سيدتى

كيف أنت الآن ؟ ألا يزال وجهك الجميل يشع بذلك النور الوهاج؟ كيف أنت بين وسائد الدمقس والحرير ؟ كيف أنت فوق تلك الأريكة التى تختال حين تحوى جسمك الفينان ؟

ثم تقولين ياسيدتى إنك ما أعطيت ميعاداً لأحد ، وإنك إنما تخرجين وحدك لتنسم الهواء العليل ، ولتشرفى على الدنيا الصاخبة من وراء حجاب

وهو كذلك ، ولكن ما رأيك إذا حملنى الطيش فقلت إننى قادر على الظفر منك بألف ميعاد وميعاد ؟ لا تعجبى ياسيدتى ، فسيأتى يوم يشتاق فيه قلبك النبيل إلى صحبة قلب نبيل . سيأتى يوم تعرفين فيه أن شمائلك العالية فى ظمإ إلى شمائل عالية ، سيأتى يوم تعرفين فيه أن الكبرياء على رجل مثلى لا ترضاه حرائر القلوب

لقد صرحت بأنك تشتاقين أحيانا إلى رؤية الدنيا الصاخبة ، إن صح ذلك فسيحملك الشوق إلى رؤية قلبى ، ففيه يا مولاتى مواكب للأفراح والأحزان ! فى قلبى يامولاتى نعيم وجحيم ، وفيه وديان وأنهار وبحار وجبال ، وفيه الشهد والصاب ، والهدى والضلال

فى قلبى يامولاتى مايشوق الأعين وما يفزع القلوب ، والفرجة

على قلبي يدخل إليها الملاح بالمجان ، وهو قلب خطر هرب من شره الكرام الكاتبون ؛ فتعالى أنت للتفرج عليه : فالمرأة أجرأ من الملائكة وأجرأ من الشياطين !

أما الشاب الظريف الذى تزعمين أنه شفاك فأنا أسمح له بأن يقطف من روضك مايشاء ؛ لأنى أعرف أنه لا يزحزحنى عن مكانى ، وأفهم أنه فى حاجة إلى رعايتى ، ويسرنى يامولاتى أن يكتوى بنار الحب كما اكتويت ، ليصير فيما بعد من كبار الرجال

أما غيرتك من المرأة العراقية فسأعود إليها فى غير هذا الخطاب

والسلام

الادب والاخلاق

حضرة الأستاذ محرر المكشوف

تحيتى إليك وإلى زملائك الأعزاء

وبعد : فإنى أصارحك بأنى لم أرض عما نشرتموه عنى فى مجلتكم ولكن لكم فى بغداد أصدقاء يؤكدون أنكم لاتريدون غير إيقاظ الحياة الأدبية . وإن كان ذلك ما ترمون إليه فعلى الرحب والسعة ، واشتمونى كيف شئتم ، فأنا أومن بأن كل سطر يقرأ هو سهم موجه إلى صدر الجهل .

ولكم أيضاً أصدقاء فى بغداد يؤكدون أنكم تحترمون حرية الرأى ، فإن صح هذا فأنا أشكوكم إليكم . ولعلكم تتفضلون بنشر هذا الخطاب ، ثم تعلقون عليه بما توجب أخلاق الرجال .

أولاً - صدقتم من يزعم لكم أنى قلت إن الأديب فى حياته العامة يعامل الناس بالتلون والتقلب ، ولو راعيتم أصول النقد لعرفتم أنه من المستحيل أن يصدر عنى هذا الكلام .

ثانيا - سمحتم لأحد الشبان أن يحرض على أهل العراق فيقول إن الدكتور زكى مبارك يزعم أنه الطبيب الوحيد الذى يقدر على مداواة ليلى المريضة فى العراق ، مع أن فى العراق كثيراً من

الأطباء النطاسيين ، وسيغار أهل العراق على كرامتهم فيحاسبون الدكتور مبارك أشد الحساب !

ولم تكتفوا بهذا ، بل نقلتم الدسيسة الخسيسة التي نشرها سعيد العريان في مجلة الرسالة ، إذ يزعم في سخفه أني أنكر خصومتي للرافعي لأتقرب إلى أهل العراق . وأنا موقن بأن الأستاذ الزيات لم يراجع تلك الكلمة ، فمرت مرور الباطل على مساعديه .

وأحب أن يعلم من في مصر ومن في لبنان أني لا أتودد إلى أهل العراق ، وإنما أحمد الله عز شأنه على أن شرفني بخدمة الأدب العربي في العراق ، وأحب أن تعرفوا جميعا أن زكي مبارك لا يخاف إلا ربه ولا يؤذيه أن تحاربه جميع الجرائد والمجلات في سائر الأقطار العربية .

ثالثاً — عجبتم من أن أرد عليكم في مجلة الصباح لأنها في رأيكم مجلة المطربين والمطربات . وأحب أن أقول لكم بعبارة صريحة مكشوفة إني أعرف صاحب مجلة الصباح منذ ثمانية عشر عاما ، فلم أعرف فيه غير الأدب والصدق والوفاء ، وأعرف المحررين في مجلة الصباح معرفة تكفي للثقة بأمانتهم ونزاهتهم . ومن أجل ذلك أكتب في مجلة الصباح من حين إلى حين ، بل أرى من الواجب أن أساهم في تحريرها كلما ساعدت الظروف .

ومن التحكم أيها السيد أن تطلبوا مني أن أرى الدنيا بعيونكم ،

ومن التحكم أن تقولوا إن المجلات التى تمثل مصر هى الرسالة والمقتطف والهلال ، فهذه حقاً مجلات جيدة ، ولكن فى مصر عشرات من المجلات تصور جوانب كثيرة من المجتمع ، ولا يمكن الغض من قيمتها الأدبية إلا إذا أنكرنا الحقائق على نحو ماتفعلون فى بعض الأحيان .

رابعاً — زعمتم أنى أكدت أن المودة فى لبنان مودة عابرة كسحابة الصيف ، وهذا منكم تحريف لكلامى ، وهو تحريف لا يقع فيه رجل سليم الطوية .

ويهمنى والله أن أسألكم : كيف جاز لرجل مثلى أن يقضى فى مدينتكم ليلة واحدة ولا يسلم من الأقاويل والأراجيف بالرغم من حرصه الشديد على التعرف إلى من فيها من الأدباء ، مع أنى صحبت جماعة من أدباء تونس سنين عديدة ولم تمسنى منهم كلمة سوء ، ومع أنى أقمت فى بغداد أشهراً وأنا أصاول وأجادل كل يوم ولم أسمع من العراقيين كلمة ينفر منها الذوق .

خامساً — زعمتم أنى أقيس الأدب بمقياس الصداقة ، ونسيتم جهودى فى تحرير الأدب من النزعات الشخصية ونسيتم أنى أول من رفع أعلام النقد الأدبى فى العصر الحديث .

سادساً — أكدتم لقرائكم أنكم تفرقون بين الأدب والصداقة وأنى سأجد فيكم دائماً أصدقاء أوفياء يعربون عن عواطفهم الخالصة

بالأعمال لا بالأقوال . فأين مصداق ماتقولون وقد حملتمونى على الندم إذ تعرفت إليكم ، وسلمت عليكم ؟ ألا ترون أنه كان الأنفع أن أمرّ بمدينة بيروت فلا أرى غير الجدران ؟ ولكن ماقيمة الجدران بدون الرجال ؟ وهل كانت بيروت أجمل مدينة حتى نضيع الوقت بالمرور عليها ؟ إن يوما واحداً فى الأسكندرية أجمل من قضاء الدهر كله فى بيروت ، فأعزّوا مدينتكم بحسن الأدب ، ياأدباء لبنان ، والسلام .

الشهرة مرض مزعج !

صديقى

رسالتى فى هذه المرة قصيرة جداً ، وهى فى التألم من مرض الشهرة ، ذلك الداء العضال الذى لا يرجى منه شفاء .

الشهرة مرض مزعج ، ولا يعزينى إلا شىء واحد ، هو أننى لم أسع أبداً إلى الشهرة ، وأنت تعرف أخلاقى : أنت تعرف أننى لم أنفق فى حياتى درهماواحداً فى سبيل الشهرة كما يفعل من يشترون الشهرة بوسائل مختلفات !

ولكن هذه الشهرة الجذابة التى يبذل فى سبيلها الناس ما يبذلون أصبحت تزعجنى وتعطل أعمالى ، بحيث أصبحت وأمسيت لا أفتح بيتى لطارق وإن طال وقوفه بالباب ، وما أكثر من يطرقون بابى ثم ييأسون !

وفى مساء هذا اليوم وقع حادث طريف هو من جنايات الشهرة فقد دخلت المنزل الذى أقيم فيه فرأيت جماعة من السكان ينتظروننى ، أتدرى لماذا ؟ ليقولوا فى صوت واحد :

يحيا شارع فؤاد ! تحيا الزمالك ! تحيا سنتريس ! تحيا الرسالة ! يحيا الصباح !

وقد ظننتهم سكارى فدخلت وأغلقت الباب بالمفتاح ، وشرعت فى أعمالى التى ستعرف بعض شواهدها يوم ألقاك ، وظلوا هم يهتفون حتى يئسوا من خروجى إليهم ، وكنت على الرغم من أشغالى أتسمع فلا أراهم ينطقون بغير الجميل ، وهل ينطق العراقى بغير الجميل ؟

والآن وقد فرغت من أعمالى فى الساعة الثالثة بعد نصف الليل أتسمع فلا أسمع شيئا ، فأفهم أن جيرانى ناموا وعلى شفاههم يحيا شارع فؤاد ، تحيا الزمالك ، تحيا سنتريس ، تحيا الرسالة ، يحيا الصباح !

ثم أتذكر أن فى مصر ناساً ينامون ملء الجفون ولا يخطر ببالهم أن فى العراق رجلا مصرياً يشقى ويكدح ليجعل لمصر صوتاً فى العراق

متى تسكرون لتقولوا كلمة الحق ، كما سكر جيرانى فقالوا كلمة الحق ؟

سهرات المسيو دى كومنين

مضت أعوام وأعوام وأنا لا أعرف التسويد ولا التبييض ، فكيف اتفق أن أكتب هذه الكلمة خمس مرات ، وأتردد فى نشرها أكثر من عشرين مرة ؟ ؟

لقد مزقت ما كتبت ، وعدت إلى فطرتى فى الإنشاء ، عدت إلى الفطرة السليمة النقية التى صقلتها باريس ، على أيامها أزكى التحيات

وأنا أكتب هذه الكلمة طوعاً للأواصر المتينة التى تجمع بينى وبين المسيو دى كومنين ، فإن رضى عنها فذلك ما أرجوه ، وإن غضب فليست أول مرة أهتاج فيها ذلك القلب النبيل .

ومن هو المسيو دى كومنين ؟

كان التعارف فى شهر ديسمبر سنة ١٩٢٨ بعد عودتى من باريس للمرة الثانية ، وكان الذى تفضل بالثناء علىّ عند مدير الليسيه رجلان من أساتذتى ، هما المسيو بابانى والدكتور ضيف ، وكان المسيو دى كومنين فى ذلك العهد مراقبا عاما لمعهد الليسيه .

ولم يمض أسبوع واحد حتى أصبحنا صديقين ، وهى صداقة لا أعرف كيف صرت لها أهلا ، فقد غمرنى هذا الرجل بأفانين

من العطف ما أحسبه تفضل بها على أحد سواى ، ومضت المودة تكبر وتعظم وتضخم حتى صار من حقى أن أدخل بيته حين أشاء ولو بعد نصف الليل .

ولم تقف الصداقة عند هذا الحد ، بل مضى الرجل إلى أهلى فى سنتريس فصادقهم وأحبهم ، وتعلق بهم وتعلقوا به أشد التعلق ، فكان يسأل عنهم ويسألون عنه فى كل حين .

واشتدت الصداقة بينه وبين أبى فكانا يتعانقان عند اللقاء ، ويأنس كلاهما بصاحبه أنساً شديدا ، مع أن أبى كان يجهل الفرنسية ، والمسيو دى كومنين يجهل العربية .

ولما مات أبى رحمه الله عزانى المسيو دى كومنين ببرقية مطولة جداً ، ثم تجشم الانتقال إلى سنتريس ليعزى أهلى .

وأرجع إلى سهراتنا فأقول :

كان التكليف ارتفع بينى وبين هذا الرجل العظيم ، فكنت أمضى إليه قبيل العشاء ، وكان لى دائماً على مائدته مكان محفوظ ، وكان للحديث شجون وشجون ، فكنا نتكلم فى كل فنّ ، كنا نتكلم فى الفلسفة وفى الأدب وفى التشريع ، وما أذكر أبداً أن هذا الرجل ضاق علمه أو خياله عن شىء ، ومن المؤكد أن هذا الرجل له تأثير شديد فى حياتى الأدبية : فعن طريقه تعلمت ما فاتنى أن أتعلمه فى السوربون .

كانت سهراتنا أول الأمر فى منزله بشارع خلفا ، ثم صارت

فى منزله بشارع قصر العينى ، ثم صارت بمنزله فى عمارة الليسيه ، وكنت أنا قطب الدائرة فى تلك السهرات ، ولا أدرى كيف اتفق ذلك ، فما أعرف أبداً أن المسيو دى كومنين أحب إنساناً فى مصر كما أحبنى ، ولا أعرف أبداً أن المسيو دى كومنين اشتاق إلى صديق حين يغيب كما كان يشتاق إلىّ حين أغيب

وفى تلك السهرات كان يتوافد إلى المنزل عشرات من أقطاب الرجال فيسمرون كيف شاءوا ثم يخرجون ، وأبقى أنا ، أبقى إلى أن يفوتنى المترو ، فينزل معى المسيو دى كومنين ويصحبنى بسيارته الأمينة إلى منزلى بمصر الجديدة .

وقد طالت صحبتنا وطالت ، وعرف المسيو دى كومنين ما ظهر وماخفى من شؤونى فكان يصادق من أصادق ويعادى من أعادى ، وقد مرت بى ظروف حرجة جدًّا لم أجد فيها من يواسينى غير ذلك الصديق العظيم .

* * *

وفى أحد الأمسية كنت فى مجلس أنس مع جماعة من الأصدقاء فى صيف سنة ١٩٣١ ولكن المجلس تكدر علىّ بلا سبب أعرفه فقضيت السهرة وأنا حزين ، وفى الصباح عرفت السبب فقد ذهبت إلى المسيو دى كومنين فوجدته فى صورة أخطر وأفتك من صورة الأسد الغضبان ، ورأيته قد كتب إلىّ خطاباً سوّده وبيضه نحو عشر

مرات ، وعند العتاب عرفت أن جماعة من الزملاء زاروه فى المساء وترجموا له كلمة نشرتها فى جريدة البلاغ وفيها أن الفرنسى متحول متقلب لأن جوّ فرنسا متحول متقلب ، وأنه كما يجب عليك فى يوم الصحو أن تحمل مطريتك لئلا تمطر السماء على غير موعد فكذلك يجب أن تحترس من الفرنسى البسام لئلا يثور على غير موعد .

فقلت : وما الذى يزعجك من هذا التصوير الطريف يامسيو دى كومنين ؟

فقال : التصوير لم يزعجنى وهو يدل على ذكاء ، ولكن الذى أزعجنى ألا تحب فرنسا من أجل صديقك المسيو دى كومنين كما أحب مصر من أجل صديقى زكى مبارك .

وكان أعظم درس تلقيته فى حياتى فصرت لا أرى البلاد إلا فى صورة من أعرف فيها من الأصدقاء .

*
* *

وبعد سنين من هذه المودة الغالية دخلت منزلى فعلمت أن المسيو دى كومنين طلبنى بالتليفون أكثر من عشرين مرة فمضيت إليه مسرعا فقابلنى باسماً وهو يقول : تعال ، تعال عندى خبر مهم جداً ، جداً ، عندى خبر يشرح صدرك . فقلت : هات ماعندك . فقال : يجب أن تعرف أن لمصر ملكا عظيما .

وكان ذلك فى اليوم الذى تشرف فيه المسيو دى كومنين بإعطاء أول درس فى الأدب الفرنسى لحضرة صاحب الجلالة الملك فاروق

* * *

وبعد أشهر افتتح معهد الليسيه بمصر ، وعين المسيو دى كومنين مديراً لذلك المعهد ، فابتسم وقال : أصبحت جارك يادكتور مبارك

وبعد أيام طلبتنى حكومة العراق فتذكرت نصيبى من سهرات المسيو دى كومنين ، ذكرت نصيبى من تلك السهرات فى حسرة ولوعة ، فمضيت إليه وأنا أرجو أن يصدر أمره العالى بمنعى من السفر إلى العراق ، ولكن الرجل أخلف ظنى ، فقد قال : إن سفرك إلى العراق واجب يادكتور مبارك ، لأنك شغلت نفسك أعواما طويلة بأدباء العراق ، ورؤية تلك البلاد تعود عليك بأعظم النفع ، ولو أنك فكرت فى السفر إلى فرنسا لمنعتك لأنك عرفت فرنسا وعرفتك

* * *

ثم دعانى المسيو دى كومنين إلى وليمة عشاء قبل الفراق

ويالها من سهرة وياله من عشاء !!

لم يكن عند المسيو دى كومنين غير جملة واحدة يرددها وهو محزون :

«لقد فرحت بانتقالى إلى مصر الجديدة لأكون بجوار الدكتور مبارك وما كنت أعلم أن الأقدار ستحكم بفراق الدكتور مبارك»

وفى اليوم التالى نشر الجورنال ديجبت أنى مسافر إلى العراق فلم يبق فرنسى يعرفنى بالقاهرة إلا وهو يسأل بالتليفون كيف أسافر وأترك المسيو دى كومنين

وكانت أبلغ تحية تحية المسيو كازانى الذى لم يرنى غير مرة واحدة

وأنا اليوم أعـــد الأيام والليالى لأعرف متى ألقى المسيو دى كومنين

فما هذا الضعف النبيل الذى يربطنى بأصدقائى إلى هذا الحد ؟

ما هذه العواطف التى تقض مضجعى وتشرد نومى ؟

سنلتقى بإذن الله يامسيو دى كومنين

سأعود إلى المنزل الذى تشهد أحجاره وأشجاره بأننى أكرم صاحب وأشرف صديق

سأعود إلى الصديق الذى لم يكن يثق بأحد سواى

سأعود إلى الصديق الذى عميت عينه عن عيوبى فكنت عنده أعظم الرجال

سأعود بإذن الله إلى الرجل الذى يتحلى بأخلاق الملوك وكان أجداده من الملوك

ستعود أذناى إلى الأنغام الفرنسية التى يجود بها ذلك الفم المعسول .

سيعود لسانى إلى الانطلاق بلغة أناطول فرانس فى حضرة المسيو دى كومنين

سأسهر مع المسيو دى كومنين فى سنتريس ، ولكن كيف وقد مات أبى ؟ إن موتك يا أبتاه حرمنى لذة الشوق إلى الأعياد والأفراح ، فاشهد عند ربك أنى من الأوفياء .

غرام «مىّ» بالرافعى

قالت مجلة المكشوف :

كان الدكتور زكى مبارك قد صرح لأحد الأدباء فى بغداد أن لا صحة البتة لما زعمه الأستاذ محمد سعيد العريان من غرام الرافعى بمىّ . وكان من المنتظر أن يؤيد الدكتور مبارك تصريحه هذا بوقائع صريحة تنفى هذا الغرام الذى شككنا فيه منذ اللحظة الأولى لأسباب لا مجال للتبسط فيها الآن .

ولكن الدكتور مبارك آثر البقاء على الحياد فى هذه المعركة ، مع أنه اعتاد خوض معارك أقل شأنا من هذه . وكم كان خروجه عن هذا الحياد مفيداً لو عرف !.

إلا أننا قرأنا فى عدد « الرسالة » الأخير كلمة للدكتور مبارك حول ماينشره الأستاذ العريان عن خصومات الرافعى استطرد فيها الكاتب إلى ذكر « فلانة » - أى مىّ - فقال : « وقد آذانى ما كتبه (والضمير عائد إلى الأستاذ العريان) عن « فلانة » التى جلست معى جنباً إلى جنب أربع سنين فى الجامعة المصرية ، وعرفت من شؤونها مالا يعرف . »

ووقف الدكتور مبارك عند هذا الحد من كلامه عن « مىّ » ، وعلاقة الرافعى الغرامية بها . فهل يعنى ذلك أن الأستاذ العريان تخيل هذه العلاقة ، أم يعنى أن هذه العلاقة قامت بين الرافعى ومىّ على غير الشكل الذى يصفها فيه الأستاذ العريان ؟ .

أما الأوساط الأدبية التى تتبعت فصول الأستاذ العريان فتطالب الدكتور مبارك بإفصاح عن فكره ، لأن ما كتبه حول هذه المسألة غامض ، ولا يفيد شيئاً . ولعله يغتنم هذه الفرصة لبسط ما يعرفه من شؤون « مىّ » ، فيلقى نوراً جديداً على هذه الناحية الطريفة فى شخصيتها الأدبية .

حضرة الأستاذ محرر المكشوف .

أقدم إليك أصدق الشوق إلى لقائك ، فإن اللحظات التى قضيتها عندك لم تكن كافية للتعرف إلى أدبك ولطفك ، وأعتذر عن الجواب الذى يفصّل ما أجملته فى الكلمة التى نشرتها بمجلة «الرسالة» عن غرام مىّ بالرافعى ، وهو الغرام الذى تخيله أو ادعاه حضرة الأستاذ سعيد العريان .

وأنت تعرف أنى لا أبالى المعارك القلمية ، ولكن موقفى فى هذه المسألة دقيق ، لأنى قد أتهم الرافعى ، رحمه الله ، بالتزيد وسوء الأدب ، إن صحت رواية العريان ، وكان للرافعى أن يحب من يشاء ، ولكن القول بأن مىّ أحبته وأغرمت به وتهافتت عليه ، كلام لا يقول به إلا إنسان مخبول .

بقى الكلام عن سرائر مىّ وكانت لها سرائر من الحب الدفين ، فهل ترى من الذوق ، ياسيد فؤاد ، أن نفصح عن هذه السرائر تلبية لما سميته أنت رغبة الأوساط الأدبية ؟ .

لقد حدثتمونا أن مى لا تزال صحيحة ، فلتعرف فى صحتها المنشودة أن فى الدنيا أصدقاء نبلاء يبغضون اللغو والفضول .

اعذرنى أيها الصديق ، إذا طويت ما أعرف من شؤون الآنسة مى وقد صحبتها أربع سنين فى الجامعة المصرية يوم كانت أطيب من العطر ، وأرقّ من الأملود المطلول ! .

وغضبة الله على الأدب والأدباء إذا استطاعت الألسنة أن تمضغ ذلك العرض النبيل ! .

أيها الزميل

أرجو أن تذكر أن الذى كتب ذلك الكلام هو أديب عريان ، وبعض أهل العرى لا يستحون ! .

هذا ، ولا يفوتنى أن أشكر من أنطقونى بما لم أقل يوم مررت على بيروت ، وكان اختراعهم فرصة لمناوشة الأقلام على صفحات « المكشوف » فقديماً قيل :

هنيئاً مريئاً غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلت

جعل الله بلادكم من حصون اللغة العربية أبد الآبدين .

وتقبل تحية المشتاق إليك وإلى إخوانك المحررين فى مجلة « المكشوف » .

غزال يترنح فى شوارع بغداد

صديقى

هاك القصة الآتية :

استأنفت أعمالى بالأمس فى الساعة الخامسة بعد الظهر ، وما زلت أدرس وأراجع حتى رأيتنى فى الساعة الثانية بعد نصف الليل فهالنى الأمر ، لأنى قضيت تسع ساعات فى نفس واحد ، وأسرعت فأويت إلى فراشى ، ولكنى استيقظت قبل الشروق ، فعدت إلى العمل من جديد ، وظللت كذلك حتى الظهر ، فلم يكن بد من الطواف على شاطئ دجلة لأريح أعصابى ، فكانت تمر السيارات فيسلم علىّ راكبوها بدون أن أعرفهم فأقول فى نفسى : هؤلاء أهل ليلى المريضة فى العراق !

وفى رجوعى إلى البيت رأيت رجلا يقود غزالا فى شارع الرشيد ، غزالا وحشيا من سكان الصحراء ، فاستوقفت الرجل وقلت ياعمى ، بكم تبيع هذا الغزال؟ فقال : تريد كلمة واحدة؟ فقلت : نعم ! فقال : ثمنه ثلث دينار . فاستصغرت الثمن وتجاهلت كلمته ثم قلت : ثمنه دينار ؟ فقال : نعم . ثمنه دينار . فمددت يدى إلى الغزال لأرى عينيه فقد طال عهدى بعيون الظباء ، ولكن الغزال كان يرتعد من الخوف ! وهى أول مرة تخافنى فيها الظباء !

ولم تمض لحظة حتى اجتمع من حولنا الناس ، وكان فى نيتى أن أشترى ذلك الغزال ، ثم تذكرت أن الظباء تأكل حب القلوب ، وتذكرت أن قلبي لم تبق منه بقية يعيش منها الظباء

ولاحظ الرجل تردّدى فقال : إن هذا الغزال لايشرد أبداً ، فهو يترك فى حوش البيت بلا خوف

وعندئذ وجدت الفرصة للتخلص فوضعت فمى على أذن الرجل وقلت (أنا أعرف ياعمى أنك مستعدّ لبيع هذا الغزال بثلث دينار ، وهذا المبلغ لايضايقنى ، ولكنى أحب لك الخير وأرجو أن تبيعه لغيرى بدينارين ؛ أنت قلت إنه غزال لايشرد ، لتجذب إليه الراغبين ، والأصلح لك ياعمى أن تقول إنه غزال شرود لترتفع قيمته فى أعين الراغبين)

وما كدت أنفحه بهذه النصيحة حتى مضى وهو يصيح : غزال شرود لايقيم على عهد ، ثمنه عشرون ديناراً فقط ، فأين من يعرف قيمة الظبى الشرود !!

أسئلة أدبية

موجهة إلى أستاذ الأدب العربى فى دار المعلمين العالية بالعراق

الأستاذ الدكتور زكى مبارك

نرجو من الأستاذ الدكتور زكى مبارك التفضل بالإجابة على الأسئلة التالية :

١ — من هو الشاعر الذى تعتقدون بحق وإخلاص أنه أشعر شعراء العربية فى الوقت الحاضر مع ذكر اسمه ؟

٢ — من هو الأديب الذى تعتقدون بحق وإخلاص أنه أحسن أدباء العربية فى الوقت الحاضر مع ذكر اسمه ؟

٣ — ما هى الأسباب الرئيسية التى أخرت النهضة الأدبية فى فى العراق ، ثم ما هى الأسباب التى تساعد على النهضة الأدبية فى العراق ؟ .

٤ — ما رأيكم الصريح فى الصحافة العراقية اليومية والأسبوعية وهل تقوم بتأدية رسالتها ، وما هو السبيل إلى رقيها ؟ ؟

جريدة الهدف

لكل سؤال يابثين جواب

حضرة الأستاذ محرر الهدف

قرأت أسئلتك . وهى حيلة صحفية لطيفة . ولكن يظهر أنك تريد أن تجرنى إلى ضروب من الجدل تنفع جريدتك وتضيع وقتى ، كما يصنع معى الصحفيون المصريون ، أرانى الله وجوههم بخير وعافية .

فما رأيك إذا أجبتك إجابة قاطعة تضيع فيها حيلتك هذه المرة ؟

السؤال الأول : من هو الشاعر الذى تعتقدون بحق وإخلاص أنه أشعر شعراء العربية فى الوقت الحاضر [مع ذكر اسمه ؟

وأجيب بأن هذا السؤال يشهد بأن فيكم رجعة إلى العقيدة التى كاد يتفرد بها الشرق وهى عقيدة التوحيد ، فالشرقيون كانوا أول من آمن بالوحدانية ، وحدانية الله ، حتى قال القائلون إن مصر سبقت أمم الشرق إلى التوحيد بفضل الملك الشاعر أخناتون .

وأنا بحمد الله أومن بأن الله منزه عن الشريك . ولكنى أكره أن أكون «موحداً» فى الآداب والفنون ، فلا يسوغ فى ذهنى أن

يقال : من هو أشعر شعراء العربية ؟ ومن هو أعظم كتاب العربية ؟
ومن هو أفصح خطباء العربية ؟

وقد اتفق لى من قبل أن أحارب مجلة الحديث الحلبية حين زعمت وزعم بعض قرائها أن الدكتور طه حسين أكبر أديب ، فقلت إن الدكتور طه أشهر اديب وليس أكبر أديب .

وكنا فى مصر نجعل شوقى أمير الشعراء ؛ ولكنكم لو رجعتم إلى الجرائد والمجلات لرأيتم مئات المقالات فى الثورة على ذلك اللقب مع ماتعرفون ويعرف العرب جميعاً من عظمة شوقى .

والرأى عندى أن يقوم فريق من الناقدين بالبحث عن الشعراء المغمورين فقد تكون فيهم مواهب يقتلها الخمول ، وقد اقترحت مائة مرة ومرة أن يؤلف كتاب يجمع الأطايب من الشعر الحديث فى جميع الأقطار العربية على نحو ماصنع الثعالبى فى القرن الرابع ، ولكن يمنع من ذلك أن العصر الحاضر ليس فيه رجل واحد يملك من الإخلاص ماكان يملك الثعالبى ، فأهل هذا العصر يغلب عليهم الحقد ولا يحب أحدهم خيراً لأخيه ، ولا ينبغ النابغ فى زماننا إلا إن كان فيه من الحيوية مايرغم حاسديه على أن يخلوا له الطريق .

وقد اتفق مرة للدكتور عبد الوهاب عزام أن يثنى على الرافعى

فى مجلة الرسالة ثناء مستطاباً ثم حدثنى بعد ذلك أنه لقى مرّ العتب من بعض الأصدقاء

ولما مات شوقى رثاه صاحب البلاغ بكلمة طيبة ، ولكنه وجد من يعترض بأن شوقى لم يكن من الوفديين ، ومعنى ذلك أن الخصومة السياسية قد تنقلت إلى خصومة أدبية .

هذا اقتراح أذعته فى مصر ثم ضاع ، فهل ترون من الخير أن أقدمه إلى أدباء العراق ؟

ويسرنى أن أعلن بلا مواربة وبلا تكلف أن الله نجانى من هذا المرض البغيض : فما أذكر أبداً أنى جحدت الحق ، وربما كنت أشجع أهل هذا العصر لأنى أنصف أعدائى ، فى زمن يضنّ فيه الأصدقاء بالإنصاف

وخلاصة القول أنى أنكر التوحيد فى الآداب والفنون ، وذهنى يسيغ الحكم بأن أبا تمام فى بابه أشعر من البحترى فى بابه ، والبحترى فى بابه أشعر من أبى تمام فى بابه ، والمتنبى أشعر من الشريف الرضى ، والشريف الرضى أشعر من المتنبى ، وشوقى أعظم من حافظ ، وحافظ أعظم من شوقى ، والرصافى أعظم من الزهاوى ، والزهاوى أعظم من الرصافى ، وزكى مبارك فى بابه أعظم من الجميع .

وهذا الكلام يحتاج إلى توضيح ، وقد بينته فى الطبعة الثانية من كتاب (الموازنة بين الشعراء) .

* * *

السؤال الثانى . من هو الأديب الذى تعتقدون بحق وإخلاص أنه أحسن أدباء العربية فى الوقت الحاضر مع ذكر اسمه ؟

وأقول مرة ثانيـة إن فيكم رجعة إلى عقيدة التوحيد ، مع أن الشرك أفضـل فى هذا المجال ، ولـكن لابأس من الإشارة إلى أن الأدباء المصريين فى الوقت الحاضر يتساموون جميعاً إلى هذا اللقب الطريف . وسيموت منهم ناس قبـل الأوان بفضـل الـكدح ، وأخشى أنى أقول مثلا إن خصومتى مع الدكتور طه حسين ستقصف عمرى ، لأنى أحاول طرد مؤلفاته من الأسواق لتحل محلها مؤلفاتى ، ولأغتصب ماادعاه لنفسه من زعامة الأدب العربى ، وستنقل جرائد مصر هذه الكلمة وسيبيت الدكتور طه مؤرقاً لأنه سيتذكر أنه لم يؤلف كتاباً فى قوة كتاب النثر الفنى

ومن شـواهد هذا النضال تلك الحمى المخيـة التى ترونها فى أدباء مصر ، وإلا فما الذى يوجب أن نرى اسم العقاد واسم المـازنى فى جميع الجرائد والمجلات ؟

وما الذى يوجب أن يصبح هيكل أعشى لايكاد يبصر بفضل سهر الليل ؟

وما الذى يوجب أن تهجم الشيخوخة على الأستاذ أحمد أمين ؟

ولأىّ سبب يذوى غصن الأستاذ محمد عبد الله عنان حتى كاد يضاف إلى الفانين ؟

إنّ الأدباء المصريين مجانين ، وهم سيقتلون أنفسهم ، وسيقتلوننى معهم ، لاعفا الله عنهم ، ولا حشرهم إلا فى زمرة السفهاء .

على أن المصائب لاتخلو من منافع ، فهذه المنافسة التى ستصرعنا جميعاً هى التى جعلت هذا العصر أعظم عصور اللغة العربية ، هى التى جعلت المطابع المصرية تخرج فى كل عام نحو أربعة آلاف كتاب وهى التى جعلت الأديب العربى يستطيع أن يجد فى كل يوم كتاباً جديداً يقرؤه بلذة وشوق ، والتى جعلته يعجز عن متابعة ماينشر فى الصحف والمجلات . وهذا أمل كنت دعوت إليه منذ سنين فتحقق بأقوى وأعنف مما كنت أريد

* * *

أترانى أخلفت ظنك فى الجواب الأول والجواب الثانى ؟

لا بأس فقد تجد شيئا فى الجواب الثالث أو الرابع

تسأل عن الأسباب الرئيسية التى أخرت النهضة الأدبية فى العراق ؟

ومعنى هذا أنك تقول بتأخر النهضة الأدبية عندكم ، فاسمح لى بتسجيل هذا القول ، فإنه مهم جداً ، وهو يشهد بأن النهضة الأدبية

موجودة بالفعل ، وعدم الرضا عما تملك يشهد بأنك أهل لأكثر مما تملك ، وأنا أحتفظ بآرائى فى نهضة العراق إلى الوقت الذى أتحلل فيه من التشرف بخدمة العراق ، فقد يقال إننى ضيف يحدوه حسن الأدب على الرضا عن كل مافى البيت ، مع أن الواقع أن فى العراق نهضة أدبية تستحق الاهتمام والتشجيع ، وليت الزمن يسمح بتسجيل آثارها بعد حين ، على أنه لامفرّ من الاعتراف بأن النهضة الأدبية الحاضرة أقل مما ينتظره الأدب من العراق والأسباب الرئيسية كثيرة ، أهمها مايأتى :

أولاً — كان التعليم فى العراق باللغة التركية إلى عهد قريب ، وكان من أثر ذلك أن أصبح أكثر الرجال المثقفين لايملكون القدرة على الإنشاء والتأليف باللغة العربية كما يملكون ذلك باللغة التركية ، فهم فى أنفسهم أدباء ومفكرون ، ولكنهم يعجزون عن تغذية النهضة الأدبية ، وهذا العائق لن يدوم لأن الجيل الحديث يتعلم باللغة العربية

ثانياً — شغلكم النضال السياسى عن الأدب فضعف النشر والتأليف

ثالثاً — وزارة المعارف عندكم مشغولة بإعداد المدرّسين ، وينبغى الذوق من التصريح بأنها مصروفة عن إعداد الأدباء والمؤلفين ، ولعلها تعدّل مناهجها بما يجمع بين المزيتين

أما الوسائل التى تعين على تقوية النهضة الأدبيـة فى العراق فـكثيرة وميسورة

ويحسن النص بوضوح على وجوب الإكثار من البعثات إلى القاهرة فإن القاهرة تؤدى فى العصر الحديث ما كانت تؤديه بغداد فى العصر العباسى ، وهذه البعثات المنشودة يجب أن تـكون تحت رعاية رجل مسئول ، فالقاهرة مدينة كبيرة ، وفيها عيوب المدائن الـكبيرة ، والمحاسن الحقيقيـة فى القـاهرة تحتاج إلى دليل . ولو استطاع الشاب العراقى أن يعيش فى القاهرة عيش الموفقين لـكان فى مقدوره أن ينفع وطنه أجزل النفع حين يعود

فما الذى يمنع من أن يكون لكم فى القاهرة دائرة تسمى البعثة العراقية

ما الذى يمنع أن يكون لكم فى القاهرة خمسون أو ستون يتخصصون فى الدراسات الأدبيـة ليعودوا فينشئوا فى بغداد مدرسة مثل دار العلوم أو معهداً مثل كلية الآداب ؟

إن هذه البعثات التى أنشدها ستنفع العراق من ناحيتين

ستنفع من الوجهة الأدبية ، وستنفع من الوجهة العمرانية .

أما الوجهة الأدبية فظاهرة ، وهى كفيلة بأن تخلق التنافس الأدبى بين القاهرة وبغداد . وأنا أتطلع إلى اليوم الذى يقع فيـــه هذا التنافس لتزداد القاهرة حياة إلى حياة .

أما الوجهة العمرانية فتحتاج إلى شرح :

وبيان ذلك أن القاهرة فى هذا العصر أصبحت مدينة هائلة جدا

ولا يعرف قيمتها إلا من يراها رأى العين ، وفيها ضواح لا تعرف أمثالها باريس ، والشاب العراقى حين يعيش فى القاهرة ويرى الزمالك والجيزة والمعادى وحلوان ومصر الجديدة وحدائق القبة سيذكر ولا ريب أن من واجبه أن يفنى عمره فى تجميل بغداد ، ولا بد للعراق من شبان يؤذيهم أن تظل بغداد على ماهى عليه ، ولا مؤاخذة ياسيدى ، فأنا متألم لحال بغداد ، ولو كان بيدى شىء من الأمر لأريتكم كيف يكون تخطيط عاصمة الرشيد .

هذه وسيلة .

أما الوسيلة الثانية فإيجاد الجوائز الأدبية ، ومن الممكن تخصيص ألف دينار فى كل سنة توزع منها الجوائز على المتفوقين فى اللغة العربية ، ولو صنعتم ذلك لضمنتم الظفر بطلائع الحياة الأدبية ، وأظننى ضمنت لكم جائزة النحو فى البصرة : فقد ألقيت فيها محاضرة ثم اقترحت على سعادة المتصرف وسعادة مدير المعارف هناك إنشاء جائزة نحوية ، فإن من العيب أن لا يتفوق أهل البصرة فى النحو ، وكان أهلها أساتذة الناس فى هذا الباب ، ضمنت لكم هذه الجائزة لأن من العسير أن يخذلنى سعادة متصرف البصرة ، أو سعادة مدير المعارف بالبصرة ، وهما قد وعدا بتحقيق هذا الاقتراح أمام جمهور يعد بالمئات ، وسأنتظر شرف الإنجاز فى وعود الرجال

قد تقولون : وهل فى مصر جوائز أدبية ؟

وأجيب بأن فى مصر جوائز عظيمة جداً ، وهى خذلان الأدباء ، ولعنة الله على الزمن الذى يضطرنى إلى اغتياب مصر فى العراق .

أستغفر الله فقد تلقيت اليوم خطابا من كلية الآداب بالجامعة المصرية هذا نصه :

« حضرة الدكتور زكى مبارك

لمناسبة مباشرة حضرة صاحب الجلالة مولانا فاروق الأول سلطته الدستورية وما قررته دار الكتب المصرية من منح هدايا لأوائل الناجحين فى الدراسات النهائية للجامعة المصرية ترجو الكلية الطالب إفادتها عن اسم وعنوان من يوكله بمصر فى استلام الكتب الموضحة بعاليه الخاصة به بأقرب فرصة لإرسالها إليه .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام »

ثم إمضاء حضرة سكرتير كلية الآداب .

والخطاب لطيف ، لأنه وثيقة رسمية تشهد بأنى كنت من أوائل الناجحين فى الدراسات النهائية للجامعة المصرية ،

ولكن أتعرفون ماهى هذه الجائزة ؟ هى نسخة من ديوان مهيار ونسخة من ديوان صرّدر ، ولكم أن تتصوروا مبلغ فرحى بهذه الجائزة حين تعرفون أن لى أبحاثا عن أشعار هذين الشاعرين عرفها قراء مؤلفاتى منذ أكثر من عشرين سنة ، فلم يبق إلا أن يمنحونى نسخة من كتاب القراءة الرشيدة ! !

ولو كانت الجامعة المصرية تعرف السبيل إلى تشجيع أبنائها لسألتنى عن كتاب التصوف الإسلامى ، وهو كتاب مخطوط يقع فى أكثر من ألف صفحة أنقله معى من أرض إلى أرض إلى أن يسمع بأخباره رجل منصف فيتطوع بطبعه لوجه الله والأدب قبل أن أموت ، وليت حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول يسمع هذا الصوت ، فمن الموجع أن يموت كتابى عن التصوف الإسلامى وفى مصر ملك يسره أن يشجع كبار المؤلفين ، وقد أصبحت مؤلفاً كبيراً من حيث لا أحتسب ولا أريد .

والاستنجاد بالملوك لا يغض من كرامة الرجال

ليس فى مصر جوائز أدبية ، فليشرع العراق هذه الشريعة وليكن أول قطر عربى يمنح الجوائز للمتفوقين فى اللغة العربية .

فإن كان هذا الكلام يؤذى مصر فلتكذبنى ولتذكر متى استطاعت ولو مرة واحدة أن تشجع التأليف بعد شهامة الخديو اسماعيل .

إنما يعيش الأدباء المصريون فى حماية أقلامهم ، ولم يستطع أديب مصرى أن يشرب فنجاناً من القهرة المرة باسم الأدب ، إلا إن رعاه رجل عظيم كالذى وقع للمنفلوطى مع سعد زغلول .

أما الوسيلة الثالثة فهى إنشاء الجامعة العراقية .

الجامعة العراقية .

الجامعة العراقية .

الجامعة العراقية .

ولو شئت لرددت اسمها ألف مرة ، وستعرفون ما أصنع بعد أن أرحل عن العراق : فسأكتب فى جرائد مصر أن العراقيين لايرعون حقوق بغداد ، سأغتابكم بإذن الله أعنف اغتياب ، وسأقول إن العراقيين يؤجلون إنشاء الجامعة إلى أن يقضوا على الأمية ، مع أن القضاء على الأمية قضاء مطلقاً سيملأ العراق بالعاطلين وسيحرم العراق من السواعد الشداد ، سواعد الفلاحين الذين يتقربون إلى الله بالجهل . والذين يسمع الله أصواتهم قبل أن يسمع أصوات العلماء ، سأكتب فى جرائد مصر وسأقول فى الأندية المصرية إن أهل العراق يجهلون الحقيقة الواضحة ، الحقيقة التى تقرر أن النهضة العلمية والأدبية يقوم بها مئات ولا يقوم بها ملايين ، وهل ارتفعت الأمية فى عهد الرشيد أو عهد المأمون ومن إليهم من الخلفاء ؟

اسمع هذه الكلمة أيها الأخ العزيز : إن مصر فى هذا العصر تسيطر بالعلم والأدب على جميع الأقطار العربية

فهل تظن أنها تملك هذه السيطرة لأن فيها ستة عشر مليوناً يقرأون ويكتبون ؟ هيهات

فى مصر خمسون رجلا فقط من بين هذه الملايين ، وهؤلاء

الخمسون هم الذين يرفعون اسم مصر فى الميادين الأدبية والعلمية والتشريعية والاقتصادية

ولو جاء رجل مجرم وشنق هؤلاء الخمسين لأصبح القطر المصرى فى صفوف الجهلاء . ولتوضيح ذلك أقول :

إن لواء المنوفية فى مصر كادت تنعدم فيه الأمية ، وهناك قرية فيها نحو عشرة آلاف ليس فيهم أمىّ واحد ، ومع ذلك لم ينبغ فيها نبوغاً ظاهراً غير رجلين اثنين

ماأحب أن أسترسل فى الشواهد ، وإنما أحب أن أقرر بصراحة أنّ إنشاء الجامعة العراقية أصبح واجباً كل الوجوب، وكنت فكرت فى الخروج إلى الميدان لهذه الفكرة الشريفة ، ثم رأيت أننى لا أعرف من أخاطب ، وإلى من أتوجه ، لأنى مع الأسف غريب ، وإن كان قلبى يحدثنى بأنى لست فى هذا البلد من الغرباء

وهذه أول مرة ألقى فيها سهمى ، وأطوى لوائى ، فإلى شبان العراق وكهوله ، وإلى أدبائه ونوابه وأعيانه ، إليهم جميعاً أكل هذه الأمانة الغالية وهى فكرة الجامعة العراقية . ويجب أن تحترسوا فسيقول قوم إن أهل العراق ينسون حقوق بغداد

وسأنظر وينظر العالم ما تصنعون

* * *

أما الوسيلة الرابعة فهى اطلاعكم على الجديد فى عالم النشر والترجمة والتأليف

والظاهر أن سوق الوراقين، وهو ما تسمونه سوق السراى، لا يؤدى واجبه تأدية صحيحة، وأخشى أن أقول إنه لا يتصل بالقاهرة أتم اتصال، أو هو لا يتقبل من الكتب إلا مايعرض عليه، فليس عنده سياسة مرسومة، لأنه يجهل أصول الاقتصاد، فالشاب العراقى قد يتشوق إلى كتاب جديد ثم لا يجده فى سوق السراى، وحين يتنبه هذا السوق إلى الكتاب المطلوب تكون حماسة الشاب فترت وتضيع فرصة الاطلاع، وقد لاحظت أن بعض المؤلفات المهمة يجهلها شبان العراق بفضل تكاسل الوراقين

وربما كان من الخير أن أقترح إنشاء جائزة تسمى جائزة الوراقين تمنح لأكبر وراق تحسن سمعته فى معاملة المكاتب العربية ويصل شبان العراق بما ينشر فى سائر الحواضر العربية؛ ولا ينبغى أن نطلب معونة الحكومة فى جميع الشؤون فيكفى أن تكون هذه الجائزة شهادة تمنحها جماعة أدبية مكونة من المؤلفين والصحفيين.

هذه أيها الأخ أهم الوسائل لتقوية النهضة الأدبية فى العراق

* * *

بقى السؤال الرابع وهو الخاص بما أراه فى الصحافة اليومية

والأسبوعية التى تصدر عن العراق

فما رأيك إذا هربت من جواب هذا السؤال ؟

أنا لا أخاف من الجهر بكلمة الحق ، ولكنى أعرف أن الصراحة فى هذا الموطن لها عواقب ، وقد أعرّض الصحفيين العراقيين إلى موقف شائك : فقد تغضبهم صراحتى فيهجمون على رجل لا يملك وسائل الدفاع .

والحق الذى يعرفه الجميع أنى رجل مشاغب ؛ ولكننى أعجز عن الشغب فى العراق ، لأن الحكومة المصرية بالمرصاد : وقد يسوءها أن أشتبك فى معركة أدبية فتطلبنى بالبرق لا بالبريد

ومن المؤكد عندى أن الصحفيين العراقيين تأبى شهامتهم أن يهجموا على رجل أعزل ، ولكن من المؤكد أيضاً أنه لا يليق بى أن أستغل شهامتهم فأهجم عليهم ثم أحتمى بحقوق الضيافة ، فليكن عندكم أنتم جواب هذا السؤال

وأنتهز هذه الفرصة فأقرر أن مشاغباتى لم تخرج من حدود مصر ، لأن أدباء مصر يحتمل بعضهم شر بعض ، أما الأدباء غير المصريين فكنت أتلطف معهم فى جميع الأحوال ، وكانت حجتى فى ذلك أن ما أفسدته السياسة يجب أن يصلحه الأدب ، ونحن لانحمل القلم لنمزق الأواصر بين الشعوب العربية ؛ وإنما نحمل القلم لنصلح ما بين القلوب

وأنتهز هذه الفرصة أيضا فأقدم أصدق آيات الثناء إلى من أكرمونى فى العراق ؛ راجياً أن لا يمر أحد منهم بمصر بدون أن يرانى ، فسأكون بإذن الله من صور العراق فى مصر ، كما كنت من صور مصر فى العراق .

وأنتهز هذه الفرصة مرة ثالثة فأقدم التحية إلى من داعبونى فى الجرائد والمجلات ، فهذه المداعبات هى شاهد المودة والإخلاص ، وسأجزيهم على مودتهم الغالية فأذكرهم بالخير عند مصدر الوحى ، فى حضرة ليلى المريضة بالعراق شفاها الله وشفانى ، وشفى من أجلها ومن أجلى جميع الملاح وجميع المفكرين .

أيها الصحفيون العراقيون

اشتمونى مرة أو مرتين لأصدق أن أهل العراق ناس كسائر الناس يحسنون ويسيئون ، فقد كاد كرمكم ينسينى أهلى وأبنائى ، وما يجوز فى شريعتكم أن ينسى الرجل حقوق الأهل والأبناء .

حقائق وأباطيل

— ١ —

وعدت ليلى ثم أخلفت

فهل تعلمين ياليلى عواقب ماتصنعين ؟

تذكرى ياليلاى أن النظام هو سر هذا الوجود .

فلو أخلف النيل لهلك المصريون ، ولو أخلفت دجلة أو الفرات لهلك العراقيون .

تذكرى ياليلى أن الإخلاف هو سبب الموت ، فلو عرفت الأعضاء معنى النظام لكان الموت من المستحيلات .

لو عرف الإنسان متى يأكل ومتى يشرب ومتى يستريح لعاش على الأقل مثل ماعاش نوحٌ ، وكان عمره أطول من صدودك ، أيتها الحسناء الظلوم .

ليلاى

كان إخلافك جريمة ، والمجرم الأعظم هو من يثق بعهود الملاح .

— ٢ —

لى صديق عزيز جداً شاء له هواه أن يقول إنه وصل يوم كان فى سن العشرين إلى مالم أصل إليه بعد أن جاوزت الأربعين .

وهذا صحيح فما استطعت فى سن العشرين ولا الثلاثين ولا الأربعين أن أقول لأحد أصدقائى « إنى أفضل منك » .

وما أنكر أنى قد أبلغ أقصى حدود العنف حين أحارب أعدائى ، ولا عيب فى ذلك فالجروح قصاص ، ولكنى مع أصدقائى مثال الأدب والوفاء .

فإن كان لأصدقائى شيء من النفع حين يزعمون أنهم أفضل منى فهنيئاً مريئاً ، وإن كنت أتهمهم بالبخل ، إى والله أتهمهم بالبخل ، فالحكم بأنهم أفضل منى مزية كنت أحب أن أسبقهم إليها ، ولكن لا بأس فأنا أحب أن يكون لهم فضل السبق فى كل نضال .

عفا الله عنك ياصديقى وحفظك ورعاك .

— ٣ —

ليتنى أعرف من الشاعر الذى يقول :

سيذكرنى الناسون يوم تشوكهم
شمائل من بعض الخلائق سود

سيذكرنى الناسون حين تروعهم
صنائع من ذكرى هواى شهود

فوالله ما أسلمت عهدى لغدرة
ولا شاب نفسى فى الغرام جحود

ولا شهد الناسون منى جناية
على الحب إلا أن يقال شهيد

— ٤ —

أنا أزن الذوق بميزان الذهب ، ولكن مع من ؟ مع صديق يكيل الذوق بمكيال !

— ٥ —

لطمتنى ليلى بالأمس فغفرت وصفحت : لأن كفها لين ، ولأن وجهها جميل

— ٦ —

تنمرت ليلى وتمردت ، فقلت : اصنعى ماشاء لك الدلال بالشيمة فأنا آخر من يغفر الذنوب لأهل الجمال

— ٧ —

عجبت ليلى من أن أخلق لها المحاسن وهى فى غاية من الشراسة وسوء الأدب ، وأنا أعجب مما تعجب منه ليلى ، وإلا فكيف اتفق أن أخلق لها المحاسن وهى تختلق لمحبوبها العيوب ؟

— ٨ —

أحسنتُ وأساءت ليلى ، وهى مع ذلك ترجو أن أستغفر لتمن بالغفران !

— ٩ —

إن ليلى تجهل السبب فيما أُسبغ عليها من رفق وعطف
والظاهر أنها كالكريم الذى تجهل يسراه ما أعطت يمناه
فاعرفى ياليلى أنى لا أتصدق عليك بالرفق والعطف ، وإنما أقضى

الديون الثقال ، فقد قضيت فى حماك لحظات كانت أطيب من الأمن بعد الخوف ، وأنضر من النعيم بعد الشقاء

— ١٠ —

سألنى تلاميذى : من أشعر الناس ؟ فأجبت هو الذى يقول :

لئن ساءنى أن نلتنى بمساءة   لقد سرنى أنى خطرت ببالك

— ١١ —

أطلعتنى ليلى على مقال نشرته إحدى المجلات المصرية وفيه ألفاظ غلاظ فابتسمت متكرهاً وقلت :

«جرح الأحبة عندى غير ذى ألم» ـ وهم والله أحباب !

— ١٢ —

السيارات العمومية فى بغداد ضيقة جداً ، ورديئة جداً ، والصعود إليها متعب ، والنزول منها متعب .

كنت فى إحدى هذه السيارات فى يوم غزير المطر كثير الأوحال فتقدمت سيدة لتركب ، سيدة لها وجه رائع ، وجسم فينان ، وكان صعودها إلى السيارة لا يتم بسهولة إلا إذا مددت يدى فعاونتها على الصعود ، وما كان فى ذاك بأس ، ولكنى خشيت أن أمد إليها يدى فيتغامز الركاب ، وفيهم كسائر الناس طيب وخبيث .

وقضى الوحل والمطر أن تزلق قدم تلك السيدة وأن تفوتها السيارة .

قلت فى نفسى : إن الناس يمن بعضهم على بعض فيقول قائلهم : لقد ضحيت براحتى ومالى فى سبيل كيت وكيت .

فما الذى كان يمنع من أن أبتدع فناً جديداً من التضحية ، هو التضحية بالسمعة فى سبيل الخير ؟

ليتنى فعلت وأنقذت تلك السيدة من الزلق فى الوحل .

— ١٣ —

تقول ليلى إنها ستتعقبنى وأنا فى مصر كما تعقبنى أصدقائى وأنا فى العراق .

تأدبى ياليلى فالله من ورائكم محيط .

— ١٤ —

ما كنت أحسب أن الليل يعقبه نهار ، وأن النهار يعقبه ليل ، وأن المرء ينتقل من الشباب إلى المشيب ، وما كنت أظن أن المقادير ستحكم بأن أعانى ضجر السهاد فى باريس وفى بغداد ، وما كنت توهم أن الأقدار سترغمنى على مداراة أحبابى ، وما كنت أتوقع أن أسمع كلمة تؤذينى من صديق يأين له الدهر فيقضى الأصائل والعشيات فى شارع فؤاد .

وما كان يخطر بالبال أنى أسقى الناس الشهد ليسقونى الصاب .

ذلك حظى من أهلى وأحبابى وأصدقائى ودنياى .

لا تحزن ياقلبى ، فالعاقبة للصابرين ، وسوف تعلم ويعلمون .

— ١٥ —

لى صديق مولع بإخلاف المواعيد ، فلما عاتبته على ذلك قال : ما أذكر أبداً أنى أخلفت معك موعداً ، وإنما أذكر أنى كنت أحضر قبل الموعد بنصف ساعة على الأقل .

فقلت : ذلك أبشع ضروب الاخلاف !

وفقهاء الإسلام نصوا على أن الصلاة لا تقبل إلا حين تجب بحلول الوقت .

وهذا من الآداب الدقيقة التى لا يدرك أسرارها إلا الأقلون ، وكم فى الإسلام من آداب .

— ١٦ —

لقينى صديق فقال : أنا أعجب لاهتمامك بمصالح فلان .

فقلت : وما وجه العجب ؟

فقال : إنه يغتابك عند جميع الناس .

فقلت : وما الذى يمنع من أن نتخلق بأخلاق الله ، وقد أمرنا الله بذلك وهو عز شأنه يسبغ نعمته على الكافرين والجاحدين ؟

لقد أصبحت أومن إيماناً صادقاً بأن الكرم الحق هو أن تحسن إلى من لا يحفظ الجميل .

ولنا فى الله ـ تباركت صفاته ـ أسوة حسنة .

— ١٧ —

ذهبت إلى فرنسا وأنا مسلم ورجعت منها وأنا مؤمن .

ولكن كيف ؟

ذلك هو السؤال !

— ١٨ —

لقينى أحد البغداديين فقال : هل هذا صحيح ؟

فقلت : ماذا ؟

فقال : إن الأستاذ على الجارم بك ألقى خطبة فى محطة الإذاعة المصرية أكد فيها أن بغداد أدفأ من القاهرة فى الشتاء .

فقلت : وأنا أجزم بأن بغداد فى الشتاء أدفأ من مصر الجديدة ومن حلوان .

فقال : أنتم فى سبيل المجاملة تقلبون الحقائق .

فقلت : هذا صحيح فى بعض الأحيان ولكننا فى هذه المرة نقلب الحقائق لنصل إلى حقيقة أعظم وأروع .

فقال : وما هيه ؟

فقلت : إن الصداقة الصحيحة لا تقوم إلا على أساس واحد ، هو أن تعتقد أن صديقك أفضل منك ، فإن اعتقدت بأنك أفضل منه فلست بصديق .

وعلى هذا الأساس تكون بغداد أدفأ من القاهرة فى الشتاء .

وقديما قيل : عين المحب عمياء .

— ١٩ —

أجمع كل من حادثونى على أن الفرق بعيد جداً بين زكى مبارك

المؤلف وزكى مبارك المحدّث ، وأنا عند أكثرهم مؤلف عظيم ومحدّث سخيف

وقد بحثت عن السبب فعرفت أنه يرجع إلى أنى حين أؤلف أكون مع نفسى وحين أتحدث أكون معهم . . . . هل فهمتم يا بنى آدم ؟

— ٢٠ —

لى فى بغداد أهل ، وربما كنت أول مصرى له فى بغداد أهل

وكان لى فى باريس أهل ، وربما كنت أول مصرى كان له فى باريس أهل

فما سر هذا البخت المدهش ؟

يغلب على الظنّ أن السبب يرجع إلى الفطرة التى صيغت عليها عيونى ، فما دخلت بيت صديق واستطاع بصرى أن يرى فيه شيئا غير جميل .

— ٢١ —

لامنى صديق فقال : ماقرأت لك كتاباً ولا مقالا ولا قصيدة إلا رأيتك مشغولا بالحب ، فما هذا الإسراف ؟

فقلت : لاتؤاخذنى يامولاى فأنا أريد أن أملأ أقطار قلبى بالحب حتى لا يوجد فيه مجال للبغض

— ٢٢ —

ظهر كتاب «عبقرية الشريف الرضى» فى جزأين ، ويقول أهل العراق إنى أحييت الشريف ، وأشهد صادقاً أن الشريف هو الذى أحيانى .

— ٢٣ —

كان لى فى القاهرة صديق مظلوم تساق إليه التهم الكواذب بلا حساب ، وقد رأيت أن أكون نصيره فى بلواه ، فكنت أتردّد على منزله وكأنى أجهل مايفترى المفترون

ألا يمكن أن يكون ماظفرت به من التوفيق هو الجائزة الربانية على وقوفى صابراً محتسباً فى صفوف المظلومين ؟

— ٢٤ —

عين الرضا كليلة لا ترى العيوب ، وعين السخط حادّة ترى ماخفى من العيوب

كذلك كان الناس يفهمون

ألا يمكن أن نرفع الإنسانية قليلا ؟

ألا يمكن أن تضعف أبصارنا عن رؤية العيوب فى أعدائنا ؟

إنك يارب تعلم أنى أخلق المحاسن لأعدائى ، وأنا أرجو منك حسن الجزاء .

— ٢٥ —

لى مؤلفات كثيرة لم تنشر ، وقد أصبحت أرى من الواجب

أن أنفق عليها كما أنفق على أطفالى ، لتستطيع التنفس فى جو الحياة الأدبية

فيامؤلفاتى ويا أطفالى . .

رزقى وأرزاقكم على الله . .

وإن بقيت لكم فسترون بإذن الله كيف يكون كرم الآباء

— ٢٦ —

لى منزل فى سنتريس تحيط به حديقة غناء

وفى ذات يوم نظرت فرأيت أبى رحمه الله يشير بإقامة (مصطبة) بجانب سور الحديقة ، فسكت ولم أعترض

وبعد أشهر أو أعوام ضايقنى أن تكون تلك المصطبة هى المكان المختار الذى يجلس فيه العاطلون من الفلاحين

فمضيت إلى أبى وقلت فى ترفق : أنا أقترح هدم هذه المصطبة ، فقال : ولماذا ؟ فقلت : لأنى أراها أصبحت ملاذ العاطلين

فابتسم وقال : ولكن هذه المصطبة لها فضل على منزلك يا بنى

فدهشت وقلت : كيف ؟ كيف ؟ أوضح يا أبى

فقال : هذه المصطبة هى الوحيدة فى الحىّ كله ، ومن أجلها يجلس الخفير على باب منزلك طول الليل

يرحمك الله يا أبى ، فقد كنت حكيما

— ٢٧ —

وعلى مصطبة ذلك المنزل رأيت طفلا يلعب وبيده صقر جريح
وما كان صقراً وإنما كان فرخ صقر ، وبدا لى أن أداعب ذلك
الفرخ فعضّ إصبعى عضة إليمة جداً ، فتوهمته يقول : احترس من
الشجاع يوم ينهزم ، واحترس من البطل يوم يضام ، فللمهزومين
من الشجعان والأبطال غضبات

— ٢٨ —

ثار تلاميذى بالأمس لأنى فرضت عليهم من الواجبات
ما لا يطيقون

معذرة ياتلاميذى فإن أستاذكم يفرض على نفسه ما لا يطيق

خطاب تهديد

من صديق ليلي الباريسية

إلى الدكتور زكى مبارك

. . . صاحب الصباح

أعرف أنك رجل تميل إلى إرضاء قرائك ، فتحب مايحبون ، وتكره ما يكرهون ، وأنا من قرائك القدماء ، لولا أن بينى وبينك قضية ، خلاصتها أنك تحب ما لا أحب ، ومن لاأحب ، فكأنك تبخل علىّ وحدى بما تجود به على قرائك .

وقد تسألنى مثلا لذلك ، فأقول لك - بكل اختصار - إنك تفرط فى حب رجل أنا من القلائل الذين لايحبونه .

ثم قد تسألنى : ومن يكون هذا الرجل؟ فأقول لك : هو الدكتور زكى مبارك !

فإذا سألتنى عن سرّ ذلك ، قلت لك إنه يرجع إلى سنوات خلت حينما قذفت بى الأقدار إلى باريس ، وكان الدكتور زكى مبارك هناك آنئذ ، وكان حديث عهد بالملابس الإفرنجية ، فكان لاينفك يقلب قبعته على مواضيع مختلفة من رأسه كما كان - فى عهد العمامة - بعمامته .

كنت طالب علم آنذاك ـ وإن كنت قد أخفقت فيما بعد ـ وكنت لا أحب الاختلاط بإخوانى من المصريين لا كبراً وايم الله وإنما خشية . . خشية على قلبى ، وكان هذا القلب يومئذ مفتوناً بساحرة من بنات السين ـ وأنت تعرف ياسيدى مهارة بعض الأبالسة فى الإيقاع بالنساء .

خفت على ليلاى الباريسية من أن تمتد إليها أيديهم ، فأخذتها بعيداً عنهم ، وكنت لا أتردد عليهم إلا غراراً . . ووحدى .

وكنت ذات مرة أسير معها على شاطئ السين ، وكان الغروب يخامر السماء ، وكنا على وشك قبلة تتبادل ؛ وإذا برجل لا أعرفه ولا يعرفنى ، يقترب منى ويسألنى عن الساعة . والسؤال عن الساعة هو أول درس يتعلمه المراهقون فى عالم «البصبصة» ، والحق أقول إننى ظننت الرجل لأول وهلة من سكان جزيرة تقع بين الهند وحضرموت والحبشة . فقلت لعله ساذج ، ولعله لا يقصد «البصبصة» ، فأجبته إلى سؤله ، بيد أنه لم ينصرف ، وسألنى بنفس اللغة : أأنت شرقى أم . . فقلت له بل باريسى . وأردت أن أمعن فى إبعاده ، فقلت له : وهذه زوجتى .

ولكنه بعد كل هذا ، وبعد غير هذا لم ينصرف ، بل نظر إليها هى ـ لا أنا ـ فى نهم عجيب وقال إن قسماتها تشبه قسمات فتاة يعرفها فى مصر ـ الجديدة أو القديمة ـ لا أذكر .

وكنت كلما حاولت اختصار الحديث أطاله ، حتى ضقت به ذرعا ، ولم يبق فى جعبة الصبر سهم فانطلقت على سجيتى أودعه ببعض المنتقى من قواميس بولاق وعشش الترجمان .

فقال وهو يبتسم ابتسامة أوكتافيوس إذ دخل مصر ظافراً :

— لقد كنت واثقاً من مصريتك ، فحملتك بسياستى على الإقرار .. ألا تعرفنى ؟ أنا زكى مبارك ، الذى لم تخف عليه خافية فى الوجود .

ووجه ناظريه الأخضرين إلى ليلاى ، وأخذ يتأمّل عينيها تارة ، وساقيها أخرى .

فلم أجد بدّاً من تركه والمضىّ بفتاتى إلى حيث لم أره حتى الساعة !

ولما عدنا إلى البنسيون وكنا - أنا وهى لا أنا وهو - نقيم فى نزل واحد ، سألتنى : أكل المصريين زكيون مباركون ؟

فقلت : حاشا ، وإنما ليس فى مصر غير زكى مبارك واحد .. والحمد لله . فقالت : سى دوماچ (أى ياخسارة) . وفسرت عبارتها بقولها إن مصر لو انطوت على كثير من أمثال الدكتور زكى ، لما بقى فيها الانجليز يوما واحداً . فقلت لها : وهل تدرين أن جد الدكتور زكى هو الذى أخرج نابليون - بنفس الطريقة - من مصر ؟

والعجب العاجب - ياسيدى صاحب الصباح - أننى لم أترك كتابا ولا مقالا لعدوّى زكى مبارك إلا وقرأته !

فكأن المتنبي عنانى حين قال :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى
عدواً له ما من « قراءته » بدّ

وهكذا قرأت له فى مقال أخير اتهامه لذوق ليلى المصرية لأنها فضلت عليه « الشاب الظريف » .

ياسبحان الله !

وفى مقال آخر ، يقول عن فناننا الساحر عبد الوهاب « الصديق السخيف » .

والله يادكتور ، لأنشرن على صفحات (الصباح) ما قاله فيك محمود بيرم التونسى من مواويل ، وما نشر عنك من تواشيح ، وما أذاع فيك من نكات عند أصدقائنا بباريس ، إلا أن تعتذر إلى عبد الوهاب والشاب الظريف ، فأغفر لك .

(ب . ف)

الى صديق ليلى الباريسية

أخى وغريمى

كنت أحب أن أسأل من أنت ، فقد كان لى فى باريس كثير من الغرماء ، ولكنى عرفتك فى لحن القول ، كما يعبر القرآن المجيد .

وكيف أنسى الصديق الذى خشى أن أسرق معشوقته فى باريس فانتقل إلى ضاحية بعيدة لينجو بها منى ، وكان مع ذلك يدعونى للعشاء من وقت إلى وقت ليذوق حلاوة العيش ، فقد كانت تلك المعشوقة تبالغ فى التعطف عليه حين ترانى ، فتمسح جبينه وتسوّى شعره برفق وحنان ، والله يعلم ما كانت تصنع بعد أن أنصرف ، فلعلها كانت تتجنى عليه لحسنها فى الصدود !

إن هذا الغريم يعرف أننا كنا قسمنا الحى اللاتينى إلى مناطق صيد ويعرف أيضا أنى لم أكن من أهل الفجور وإنما كنت أتخذ الحب مادة نفيسة أغذى بها الأدب والبيان .

وكتاب « ذكريات باريس » والطبعة الثانية من كتاب «البدائع» يشهدان بصدق ما أقول ، ففى هذين الكتابين ثروة فلسفية وروحية تصور كيف عطرت الأدب بأنفاس الحياة ، وأنت نفسك تشهد — والله يحفظك ويرعاك — بأنى كنت فى أدبى من الصادقين .

ولكن هل تسمح بأن أذكرك بقول الشاعر :

وما سمى الإنسان إلا لنسيه ولا القلب إلا أنه يتقلب؟

فلو لم تكن ممن ينسون ـ لأنك إنسان ـ لتذكرت أنه ما كان يجب أن تداعبنى فى هذه الأيام، فهى عندى أيام حداد، حداد أسود مظلم فتاك: لأنى فقدت غريماً من غرمائى فى باريس، فقدت غريماً كان أرق من الزهر، وأكثر إشراقا من الصباح. وكان هذا الغريم صديقا عزيزاً ثم حملنى سوء الأدب وسوء الطالع على أن أسرق معشوقته فى باريس؛ فبلغ به الحقد كل مبلغ وذهب به الغضب كل مذهب: فدبر مؤامرة لاغتيالى فى باريس. ولعل وجه العجب عند ذلك الغريم أنه كان من النوادر فى عالم الشباب والجمال وأنه كان يملك من الثروة ما يستطيع به اشتراء بلد جميل مثل سنتريس.

كان وجه العجب أن أسرق معشوقته وأنا فقير دميم، وهو غنىّ وسيم.

أما المؤامرة التى دبرها لاغتيالى فهى الشاهد على ما كان عنده من ذكاء رائع.

كان هذا الغريم ـ أسكنه الله فراديس الجنان ـ ينوى قتلى فى صبيحة اليوم الذى أؤدى فيه امتحان الدكتوراه بالسوربون.

ولكن (عمر الشقى بقى) كما يعبر المثل المصرى. فقد وصلت أخبار المؤامرة إلى اثنين من أصدقائى هما الأستاذ محمد حلمى والأستاذ محمد عبد الحميد مندور فطافا بأعضاء بعثة الجامعة المصرية

و"مدنا إليهم بما يجب من حراستى يوم الامتحان .

وفى صبيحة ذلك اليوم حضر عشرة من أصدقائى ومعهم عصيهم ومسدساتهم ، حضروا إلى بيتى لأخرج فى حمايتهم . وقد ساءنى ذلك . وحاولت منعهم من صحبتى فلم أفلح . ثم علمت مع الأسف أن مدير البعثة المصرية فى باريس وصلت إليه أخبار تلك المؤامرة فجشم نفسه حضور امتحانى ، وكان امتحاناً قاسيا دام ثلاث ساعات ولم يشأ ذلك المدير أن يخرج قبل أن يطمئن على نجاتى من شر الاغتيال .

وكان فى باريس معرض دولى هائل ستفتح بعد أسبوع واحد فحرمت منه نفسى ، ولم أقم فى باريس بعد امتحان الدكتوراه غير ليلة واحدة قضيتها فى حماية الأمناء من أصدقائى

وبعد عامين من ذلك التاريخ عاد غريمى إلى مصر ، عاد وهو يضمر ما يضمر من الحقد ، وهاله أن يعجز وهو فى مصر عما كان يقدر عليه وهو فى باريس . والأمن فى القاهرة أضمن من الأمن فى باريس

فهل يعرف ذلك الغريم وهو فى قبره أنى سكبت عليه الدمع فى بغداد ؟

لقد كان ـ رحمه الله ـ صورة من النسيم المطلول ، وكانت له أنغام عذبة يجود بها لسانه وهو يتحدث ، وكان له قوام رشيق هو الشاهد

على براعة مصر فى صياغة الجمال ، لقد مات غريمى قبل أن أموت ، لأن الأعمار بيد الله لا بيد الناس

مات غريمى وهو يظن أننى ألأم من عرف ، ولعلّ روحه رأت بكائى عليه فشهدت بأنى أكرم من عرف

رحمك الله يا إبراهيم وطيب مثواك

رحمك الله يا إبراهيم فقد نبعت من أرومة هى مثال الذوق والإحساس

رحمك الله يا إبراهيم وعزى أهلك ، فإن الذين أصيبوا بثكلك خليقون أن يبكوا عليك طول الحياة

رحمك الله يا إبراهيم ورحم نصيبى من ودادك ، فلولا ماجنيت من سوء الأدب معك لكان لى فى رعايتك أيام وليال أطيب من العافية وأنضر من الشباب .

يا إبراهيم

لاتجزع لفراق الدنيا ، فما كثر من فيها لهم أخلاق مثل أخلاقى ، أنا الصديق الذى أضعت حظى منك فى سبيل فتاة لعلها عرفت بعدى وبعدك مئات الشبان !

ابراهيم

أنا محزون عليك ، أنا حافظ للعهد ، أنا آسف على ضياع الفرصة التى كانت تشفى صدرك باغتيالى يوم أداء امتحان الدكتوراه بالسوربون ولك فضل علىّ لن أنساه : فقد حببتنى فى وطنى لأن أولئك

الأصدقاء العشرة الذين حمونى من شرك بعصيهم ومسدساتهم أقنعونى بأن الشهامة المصرية لم تضع ولن تضيع .

ابراهيم

هل تغفر لى ذنبي وقد غفرت لك ذنبك ؟

لقد دامت عداوتنا سبع سنين ، فإن عشت بعد اليوم سبع سنين فسأقضيها فى حفظ عهدك ، إن لم أقضها فى البكاء عليك .

ابراهيم

إن الموت الذى عصف بشبابك لظلوم ، وإن الرجل الذى يبكى عليك وأنت عدوه لرجل كريم . فهل تعرف أنّ ما وقع بينى وبينك لم يكن إلا نزوة شباب يغفرها العقلاء

خطبة المؤلف

فى تحية من كرموه بالنجف

أيها السادة

أبدأ كلمتى بالتحية الإسلامية التى يحرص عليها علماء النجف فأقول : السلام عليكم .

ثم أعتذر عن نفسى ، فأنا أرتجل هذا الخطاب ، والارتجال غير مأمون العواقب ، وقد أطال خطباؤكم وشعراؤكم فى الثناء علىّ ، وهنا وجه الخطر ، فلا بدّ من كلمة تشعر هذا الجمهور بأنى خطيب ، وأنّ من كرمونى كانوا فى حسن ظنهم صادقين ، على أنى سأعرف كيف أنقلكم إلى جوّ آخر يصرفكم عنى ، ويشغلكم بأنفسكم ، وهذا الجو هو محادثة الشبان بواجب طالب العلم فى النجف ، فقد قرأت فى مجلة الحضارة كلمات يراد بها التشكيك فى قيمة الأنظمة القديمة ، وهو تشكيك أوحاه الروح السائد فى العصر الحديث .

ويهمنى أن أحارب هذا التشكيك فى مدينة النجف ، فقد اتفق لى أن أحارب المناهج الأزهرية زمناً غير قليل ، ولذلك شواهد ترونها فى كتاب البدائع ، ثم علمتنى الأيام أنى كنت من المخطئين .

علمتنى الأيام أنّ طلبة الأزهر سرقوا كلمة (المستقبل) من طلبة

المدارس وأخشى أن يقع هذا لطلبة العلم بالنجف .

علمتني الأيام أنه لابدّ لنا من رجال يعيشون للعلم وحده فلا يكون لهم مستقبل ولا معاش ، ولا يكون لهم مصير غير الفناء فى خدمة الحق .

وبفضل هؤلاء الزاهدين كان للنجف تاريخ ، وكان للأزهر تاريخ

ولو شئت لضربت المثل بنفسى ، فأخوكم الدكتور زكى مبارك هو فى الأصل شيخ أزهرى كانت له عمامة أضخم من عمامة الشيخ اليعقوبى ، ثم سما به الإخلاص حتى وجد من يقيم له حفلات التكريم فى القاهرة والإسكندرية وباريس وبغداد والنجف ، وحتى أنشئت فى الثناء عليه عشرات الخطب والرسائل والقصائد وحتى نشرت عنه رسالة باللغة الهولندية وتحدّث عنه العلماء فى المشرقين والمغربين .

وقد درست نفسى حق الدرس ، فرأيت ذلك كله نعمة إلهية هى جزاء الإخلاص ، فقد كنت أيها السادة طالب علم يتوكل على الله ، وكان يضايقنى أن أجد من يسألنى عن مستقبلى ، وأنا إلى اليوم لا أعرف مستقبلى ، وإن كنت سمعت أنى رجل له فى مصر والعراق مكان مرموق .

وحفلات التكريم التى ظفرت بها مرات كثيرة من رجال فى مثل كرمكم وإخلاصكم لا تنسينى أعظم كرامة رأيتها فى حياتى ، وهى

كرامة وقعت فى لحظة من لحظات البؤس يوم كنت طالباً فى الأزهر الشريف ، فقد كنت فى ذلك العهد أحفظ زادى فى المحفظة ، محفظة الكتب ، وكان زادى فى كل يوم رغيفاً جافاً يابساً متجهم الملامح ، واتفق مرة أن ضاق الوقت فدخلت عند أحد الفوالين لأغمس ذلك الرغيف فى مرق الفول النابت ، فهرست الرغيف بين راحتىّ مسرعاً ، ثم نظرت فرأيت يدىّ تفيضان بالدم القانى ، دم الشاب المسكين الذى يريد أن ينتهب الوقت ليحضر درس التوحيد بعد المغرب .

ولكن الله عز شأنه رفع ذلك الشاب المسكين فنقله من الأزهر إلى الجامعة المصرية ، ومن الجامعة المصرية إلى جامعة باريس ، وجعله من كبار المؤلفين ، وكتب له أن يكون فى الطبقة الأولى بين كتاب اللغة العربية ، لغة القرآن .

فأستحلفكم بالله ألا تذكّروا طلبة العلم بالنجف بحاضرهم ومستقبلهم فتكدروا عليهم نعمة الفناء فى خدمة اللغة والدين .

أرجو أن تذكروا دائما أن الفقراء أحباب الله ، وأن الأنس بالكتاب الجيد أنضر وأشرف من الأنس بالقصر المنيف .

أرجو أن تأخذوا العبرة من موقع مدينة النجف ، فهى فى الواقع مدينة صحراوية ، وكان لها مع ذلك شأن فى حياة اللغة والدين .

أرجو أن تذكروا أن النعيم الحق هو نعيم النفس ، وأن الربيع الحق هو ربيع القلب ، أرجو أن تذكروا أن أسلافكم لم يكن لهم مستقبل إلا فى الفردوس .

وما أوصيكم ياشبان النجف إلا بما أوصيت به نفسى ، وسأعيش ما أعيش ثم أموت وليس لى ذخيرة فى غير عالم المعانى .

* * *

وأنتقل إلى الكلام على كتاب (عبقرية الشريف الرضى) وقد عدّه خطباؤكم وشعراؤكم من حسناتى .

وأقول بصراحة إن هذه نعمة من نعم الإخلاص ، وإلا فمن هو الدكتور زكى مبارك حتى يكون من حظه أن يقال إنه أعظم مؤرخ للشريف الرضى ، وتلك كلمة قالها رجل نبيل لا تنفرج شفتاه عن لفظة إلا بعد أن يديرها فى قلبه عدة أسابيع ، هى كلمة معالى الأستاذ الجليل محمد رضا الشبيبى الذى أتذكر به حين أراه مقام الوزير العظيم أبى الفضل بن العميد .

من أنا وما شأنى حتى أكون أعظم مؤرخ للشريف الرضى ؟
هى نعمة أقدم شكرها لله بدمعى ودمى .

وقد تمت هذه النعمة على أجمل وجه ، فكتاب (عبقرية الشريف الرضى) هو أسلوب من البحث لم يسبق له مثال ، وسيكون باعثا على نهضة شعرية ستعرفون خطرها بعد حين .

ولكن لا بدّ من تذكيركم بقيمة الشريف الرضى ، وهذا التذكير قد يؤذينى ، لأنه سيدعو المئات والألوف والملايين إلى منافستى . وأنا أرحب بذلك ، وأقول إن صحبتى للشريف الرضى كانت السبب فى أن يقوى روحى فأكتب نحو خمسة آلاف صفحة فى أشهر معدودات بحيث شغلت جرائد مصر ولبنان والعراق، وأرجو أن يدوم هذا النشاط فيما بقى من حياتى .

كنت أشرع فى قراءة قصيدة من شعر الشريف فأحس نفسى تستفحل وتستأسد فأعود إلى موضوع آخر فأصوغه أجمل صوغ وكذلك نظمت خمسة مجلدات فى زمن قليل .

وبهذه المناسبة أذكر كتاب (نهج البلاغة) وهو كتاب حامت حوله شبهات ، وناضلت فى سبيله جماعة من المستشرقين يوم كنت فى باريس ، وتجدون شواهد ذلك فى كتاب (النثر الفنى) وكانت حجتى أن التشكيك فى نهج البلاغة نشأ فى بيئات أموية كان يسوؤها أن يشتم معاوية على لسان على بن أبى طالب ، ويسرها أن يكون ذلك الشتم مخترعا ، فلما طالت صحبتى للشريف فى هذا العام تأكدت أن الشريف الرضى أعظم نفساً وروحاً وقلباً من أن يكذب ، ولو جاز الكذب على الشريف الرضى لجاز الكذب على جميع الناس وكان من واجبنا أن نعتقد أن التاريخ ضلال فى ضلال .

والذين اطلعوا على (عبقرية الشريف الرضى) يرون أن ذلك الرجل عاش فى دنياه بلا صديق ، ولو أنه كان اخترع كتاب نهج البلاغة لزلزلت الأرض تحت قدميه ولكان أخوه نفسه أول من يذيع عنه الأراجيف .

عاش الشريف فى بلية من غدر الأهل والأصدقاء ، ومن كان فى مثل تلك الحال لا يجد من يستر عيبه حين يزور كتابا على أمير المؤمنين على بن أبى طالب . .

فأريحوا قلوبكم من التفكير فى هذه المسألة فهى ليست من المعضلات .

إن كتاب نهج البلاغة أعظم ثروة فى اللغة العربية فإن كان الشريف اخترعه اختراعا فأهلا وسهلا ، وهو إذن شاهد جديد على تلك العبقرية .

ولكنى مع الأسف غير مستعد لتصديق ذلك الاتهام الظريف ، فقد صح عندى أن الشريف كان اتخذ الشعر أداة للتعبير عما فى نفسه من الصور والمعانى .

وستدور الدنيا ثم تدور ويعرف الناس أن الشريف كان أعظم مما يظنون . وقد عجب ناس من أن أهتم بالشريف الرضى ، فليعجبوا كيف شاءوا : فنحن لا نترك العناية بأسلافنا مراعاة للحوادث اليومية ، وقد شاء الله أن يقرن اسمى بالشريف الرضى ،

وسأحتمل فى سبيل هذه الصحبة الشريفة جميع المصاعب والأرزاء.

واقتران اسمى باسم الشريف هو نعمة لا أستحقها ، ولكن الله أراد ذلك ، فإليه أوجه أصدق آيات الشكر والثناء.

* * *

أيها السادة

تحدث خطباؤكم وشعراؤكم عن غرامى بالعيون السود .

وأعترف بأنى مفتون بالعيون السود والعيون الخضر والعيون الزرق ، أنا أيها السادة تلميذ الشريف الرضى ، وهو رحمه الله تغزل بالعيون السود وهو فى مكة ، فكيف يفوتنى التغزل بالعيون السود وأنا فى النجف ؟

إن لى قصيدة همزية هى أعظم ما نظمت وهى تقع فى أكثر من مائة بيت وفيها هذان البيتان :

خذونى إليكم يا رفاقى فإننى
أحاذر فى بغداد حتفى وإصمائى
أخاف العيون السود فليرحم الهوى
لجيعة أهلى يوم أقضى وأبنائى

وقد أنشدت هذه القصيدة فى نادى القلم العراقى برياسة معالى وزير المعارف ، فهل تظنون أنى أتهيب إعلان هيامى بالعيون السود بعد أن صرحت بهذه اللوعة فى حضرة ذلك الوزير الجليل ؟

قولوا ماشئتم : فأنا من كبار المفتونين بالحق والخير والجمال .

أول الحرب كلام

أخى

أنت سمعت وقرأت أنى لاأحب الاشتباك فى معارك قلمية بالجرائد العراقية، وما كان ذلك خوفاً من وهج الحرب ، وإنما كان ذلك لأن رؤسائى فى مصر تمنوا أن تكون أيامى فى العراق سلاما فى سلام ، وقد حفظت العهد حتى خشيت على نفسى مصير المتنبي حين تعقب طبيبه فقال :

وما فى طبـــه أنى جواد   أضر بجسمه طول الجمام

ولعلى أسأت بعض الإساءة فى حفظ ذلك العهد ، فنى العراق صحفيون نبلاء شاء لهم الكرم واللطف أن يثنوا على أدبى ، فحبست نفسى عن الردّ عليهم مراعاة لذلك العهد .

واليوم أرانى مضطراً إلى الرد عليك ، لا دفاعا عن نفسى ، ولكن دفاعا عن العراق

أنا لا أدافع عن نفسى ، أيها الصديق ، لأن دعابتك لم يقع فيها مايؤذينى من وجهة شخصية ، وإنما وقع فيها ما يؤذينى من وجهة قومية

وإليك البيان :

أنت أردت أن تفهم قراءك أن الفطنة تنقصنى ، والفطنة هى

العنصر الأول من عناصر القوة فى الأديب .

وكانت الفطنة تعوزنى لأنى اقترحت عدة مقترحات منها :

١ — إنشاء جائزة النحو بالبصرة

٢ — إنشاء جائزة الصحافة للورّاقين

٣ — إنشاء الجامعة العراقية

تلك مقترحاتى ، وهى جنايتى عندك ، أيها الصديق .

فهل لى أن أسألك ماالذى كنت تنتظر من الدكتور زكى مبارك حين يتشرف بخدمة العراق ؟ أكنت تنتظر أن أكون مدرساً لايعرف غير إلقاء الدروس وتصحيح الكراريس ؟ إن كان ذلك ما كنت تنتظر فاسمح لى أن أنشدك قول ابن الفارض :

إن كان منزلتى فى الحب عندكم ماقد رأيت فقد ضيعت أيامى

فأنا ياصديقى رجل يحملنى الفتون على الظنّ بأنّ لى من حياتى غاية غير الغرض الضيق الذى يحبسنى بين التلاميذ والكراريس ، وقد حملنى هذا الفتون على الظن بأن الحكومة العراقية لم تدعنى لآكل بفضلها العيش ، وإنما دعتنى لما تعرف من عواطفى النبيلة نحو العراق ، والعراق لايخدمه رجل فى مثل كسلك ويأسك ، وإنما يخدمه رجل فى مثل نشاطى وإيمانى ، وسأخدم العراق بعد فراق العراق ، سأخدمه وأنا بعيد ، وأخشى أن تخذله وأنت قريب

ولا تؤاخذني في هذه الحدّة ، فأنا أريد أن أكسبك للعراق ، فعندك وعند أمثالك عواطف غافيات أحب أن أوقظها لخدمة العراق .

فإن كان يسيئك أن أتعصب للعراق هذا التعصب ، فأنا أدعوك إلى أن تتعصب لمصر مثل هذا التعصب ، فالأمة العربية ـ ولا أقول الأمم العربية لئلا يغضب سعادة الأستاذ ساطع الحصرى ـ الأمة العربية في شوق إلى أن يعطف بعض أعضائها على بعض

ما الذى يضرك أيها الصديق من إسرافى فى المقترحات لخدمة العراق ؟

أحب أن أعرف ما الذى يضرك وأنا لا أجرح بمقترحاتى أحداً من الناس ؟

* * *

إسمع أيها اليائس !

أنا اقترحت جائزة النحو فى البصرة

فمن أى الأحجار صيغ قلبك لتنكر جائزة النحو فى البصرة ؟

هل يصعب على الحكومة العراقية أن ترصد ثلاثين ديناراً فى كل سنة للمتفوقين فى النحو من شبان البصرة ؟

من العجيب والله ألا يكون فى البصرة نحويون متفوقون ، وباسم البصرة أكل النحويون الخبز فى مختلف الأقطار العربية .

من العجيب والله أن يكون أعظم شارح لكتاب الكامل للمبرد رجل مصرى هو أستاذى وصاحب الفضل على عقلى وأدبى ، الأستاذ سيد بن على المرصفى

من العجيب والله أن يطبع كتاب الكامل فى أوروبا ولا يطبع فى البصرة !

من العجيب والله أن تطبع مؤلفات الجاحظ فى مصر قبل أن تطبع فى البصرة !

من العجيب والله أن يستغرب رجل مثلك أن تقام للنحو جائزة فى البصرة !

اتق الله يارجل واعترف بالحق .

* * *

اسمع أيها اليائس !

أنت تستكثر جائزة الصحافة للورّاقين

فهل لك أن تدلنى ماهى مهمة الصحافة فى العراق ؟

أتكون مهمة الصحافة نشر الأخبار والقصائد والأقاصيص ؟

إن الذى وجهنى إلى هذا الاعتراض هو ما عانيته مع تلاميذى ، فقد كنت أفرض عليهم واجبات يعجزون عن أدائها ، لأن المصادر غير موجودة فى مكتبات العراق .

هل تصدق أن تلاميذى لم يجدوا ديوان ابن خفاجة فى أسواق بغداد ؟ .

هل تصدق أن أكثر المؤلفات الحديثة لا تعرفها مكتبات بغداد ؟

هل تصدق أن أعمالى مع تلاميذى تعطل فى أحيان كثيرة بسبب قلة المراجع ؟

كان فى مقدورى أن أجعل « جائزة الوراقين » من عمل الحكومة ، ثم رأيت أن أكلها إلى همتكم ، لأن الحكومات لا تقوم بجميع الواجبات إلا فى الأمم الضعيفة ، والشعب العراقى ليس شعباً ضعيفاً وإن ضعفت أنت .

وجائزة الوراقين لن تكلفكم شيئا ، أعنى أنها لا تكلفكم مالاً ، ويكفى أن يكون فيكم خمسة أو سبعة يراقبون النشر والتوزيع ثم يقيمون حفلة بسيطة يعلنون فيها اسم الفائز بجائزة الوراقين .

* * *

إسمع أيها اليائس !

هل يدهشك أن أقترح إنشاء جامعة عراقية ؟

هذا فيما يظهر أعظم ما اقترحت . وفى كلامك ما يشير إلى أنى أخطأت ، والخطأ فى هذه المرة أقبح ، لأنه متصل بمشروع هائل تنوء به الجبال .

أعترف بأنى أخطأت حين اقترحت إنشاء جامعة عراقية ، ولكن يعزينى أن هذا الخطأ الفظيع وجد من يشاطرنى حمل أوزاره الثقال .

فقد وجدت ناساً لا يقلون عنى رعونة وطيشاً ، أقسم لك إننى وجدت ناساً يستصوبون هذا الخطأ الشنيع ، فليذهبوا معى إلى جهنم إن كنت من المخطئين .

أنا أذكر أيها الرجل الفطن العاقل أن جميع الجرائد العراقية زكتنى وأيدتنى حين دعوت أول مرة إلى هذا المشروع الجليل .

وأنا أذكر أيها الرجل الفطن العاقل أن فريقا من الأدباء استحثنى للمضى فى الدعوة إلى هذه الفكرة ،وكان ذلك فيما أذكر على صفحات البلاد والهدف والحاصد والزمان والاعتدال والعقاب .

والذين تحلو لهم مداعبتى فى بعض الجرائد والمجلات لم يقولوا إنى أخطأت حين دعوت إلى إنشاء جامعة عراقية .

فكيف كنت عندك وحدك رجلا غبيا ؟

أيها الرجل الفطن العاقل ، اسمع ثم اسمع

إن العراق يعتز بأن عنده قوة برية وقوة جوية .

وأنا أدعوه إلى أن يعتز إلى جانب هاتين القوتين بقوّة علمية .

وهذه القوة تحتاج إلى ثكنات ، هى الكليات ، كليات الجامعة العراقية التى أراها رأى العين ، وإن أنكرها خيالك الوثاب !

أيها الرجل الفطن العاقل

أنا أحب أن أكسبك وأكسب مليوناً من أمثالك لخدمة العراق.

فهل ترانى أفلح ؟

هل ترانى أفلح فى اجتذابك لإنشاء خمسين مقالة فى الدعوة للجامعة العراقية ؟

هل ترانى أفلح فى دعوة الشعب العراقى إلى الصوم يوما واحداً لتكون أثمان طعامه فى يوم واحد كافية لإنشاء جامعة تنافس الجامعة المصرية ؟

أنا أنتظر اليوم الذى يتحقق فيه التعاون العلمى بين مصر والعراق

أنا أنتظر اليوم الذى تصنعون فيه بدجلة والفرات ما صنعنا بالنيل .

وهل أتاك حديث النيل ؟

إن النيل لا يصل إلى البحر إلا وهو أوشال بفضل ما أقمنا عليه من القناطر والخزانات .

أما دجلة والفرات فيذهبان لمصافحة البحر بلا رقيب ولا حسيب .

إسمع أيها الفطن العاقل :

لقد حضرت حفلة توزيع الجوائز بكلية الحقوق ، وسمعت الخطبة الفصيحة التى ألقاها أحد المتخرجين ، الخطبة التى قرر فيها أن مصر حين تخدم العراق من الوجهة التشريعية إنما تؤدى دينا قديما : هو الفقه الذى نقله الشافعى ، وكان رحل إليها بعد التفقه بالعراق .

إن هذه الكلمة أثارت أشجانى ، فقد تذكرت أننا فرطنا فى ماضينا العلمى والأدبى ، وتناسينا ربط الحديث بالقديم .

ولك أن تذكر أن فقه الشافعى الذى تعرّق ثم تمصر لايجد من رجال القانون عندنا أو عندكم من يعرف الفروق بين مذهبه القديم ومذهبه الجديد .

وأغلب الظن أن كتاب «الأم» الذى ألفه البويطى فى فقه الشافعى لايوجد بمكتبة الحقوق فى بغداد ؛ وإن كانت تلك المكتبة تعرف طوائف من المؤلفات فى الفقه الرومانى .

أيها الصديق

احذر أن تنخدع بالظواهر فتظن أن التعاون العلمى قائم حقيقة بين مصر والعراق .

قد نكون صنعنا شيئا ، ولكن هذا الشيء لايزيد عن حفر الأساس

إنما يتم التعاون العلمى بين مصر والعراق يوم نعرف تبادل الأساتذة وتبادل الطلاب ، كما يفعل الفرنسيس والإنجليز والألمان .

ويومئذ تتأصل المودة الحقيقية التى لاتزعزعها كلمة وشاية أو كلمة بهتان .

وهذه الآمال قد يعجز عن تحقيقها مصرى مثلى ، أو عراقى مثلك

فهذه آمال لا ينهض بتحقيقها غير رجال لهم صبر الأنبياء .

أما بعد فأنا أومن بأن الأمم العربية ، أو الأمة العربية ، شبعت من النضال السياسى وهو فى أغلب أحواله نضال أثيم ؛ فلم يبق إلا النضال الأشرف ، وهو النضال العلمى والأدبى .

أنت تعرف أيها الأخ أننا لم نعرف البطولة فى غير الميادين السياسية ؛ وهى بطولة محترمة ، فمن حق من أوذى فى سبيل الوطن أن يقول إنه من رجال التضحية وأن يطالب من المناصب مايشاء .

ولكن يبدو لى أن الوقت حان للبطولة العلمية والأدبية .

حان الوقت الذى نحرر فيه بلادنا من السيطرة الأوربية فى العلوم والآداب والفنون ، وما أدعو إلى غض أبصارنا عما فى أوربا من آثار العقول . فهذا كلام لا يقوله رجل متخرج فى السوربون .

وإنما يجب أن نروّض أبناءنا على الشعور بأنّ لهم أدباً وعلماً وفنا . يجب أن نروّض أبناءنا على الشعور بأن لنا عقولا وأذواقا وأحاسيس

يجب أن يفهم أبناؤنا أننا صالحون لبناء مجدنا الأدبى والعلمى بأيدينا .

يجب أن يكون مفهوماً أن العرب صلحوا مرة للأستاذية العالمية نحو ثلاثة قرون .

يجب أن يكون مفهوما أن اتخاذ اللغات الأجنبية لغات تدريس في المعاهد والكليات هو اعتراف خطر بأن لغتنا فقيرة وأننا فقراء، وقد حاربت هذه النزعة في مصر وأنا اليوم أحاربها في العراق .

أيها الصديق

تلك كلمتي إليك، وما يهمني أن أنتصر عليك .

وإنما يهمني أن تفكر في الموضوعات التي طفت بها طوافا في هذا المقال، وأن تحاول بقلمك أن تخلق لها أنصاراً من أهل الأدب والبيان .

لقد لقيتك وفي يدي سيف وأنا أعرف أنك ستلقاني وفي يدك غصن من الزيتون .

وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل .

عبقرية الشريف الرضى [1]

أما بعد فهذا كتاب « عبقرية الشريف الرضى » وما أقول إنى شغلت به نفسى سنة كما قلت يوم أخرجت شرح « الرسالة العذراء » ولا سبع سنين كما قلت يوم أخرجت كتاب « النثر الفنى » ولا تسع سنين كما سأقول بإذن الله يوم أخرج كتاب « التصوف الإسلامى »

فما شغلت نفسى بكتابى هذا غير خمسة أشهر . ولكنها من أشهر بغداد لا أشهر القاهرة ولا باريس . وما كان لى فى بغداد لهو ولا فتون ، فكانت الليلة فى بغداد كليلة القدر ، خير من ألف شهر ، والتوفيق من أشرف الأرزاق .

وكتابى هذا هو مجموعة المحاضرات التى ألقيتها فى قاعة كلية الحقوق ، وكانت تلك المحاضرات من أشهر المواسم فى حياتى ، فقد كان أصدقائى يخشون أن يمل الجمهور بعد أسبوع أو أسبوعين ولكن الجمهور كان يزداد إقباله من أسبوع إلى أسبوع ، ولم ينقذنى منه غير التصريح بأنى أنفقت كل ما كنت أملك ، ولم يبق إلا أن أستريح !

ومحاضراتى بكلية الحقوق فى بغداد هى الموسم الثانى بعد

---

(١) هو كتاب فى جزأين أصدره المؤلف فى بغداد ، ومقدمته هذه تشرح كيف استجاب المؤلف لوحى بغداد

محاضراتى عن « المدائح النبوية » وهى المحاضرات التى ألقيتها باسم الجامعة المصرية فى قاعة الجمعية الجغرافية بالقاهرة ، فهل يتسع العمر لموسم ثالث فى القاهرة أو فى بغداد ؟

* * *

لا تسألونى كيف ظلمت نفسى فأعددت هذه المحاضرات وأنشأت معها مقالات كثيرة جداً نشرتها صحف مصر ولبنان والعراق ورججت الحياة الأدبية فى بغداد رجاً عنيفاً ، فذلك كان أقل ما يجب أن أصنع فى مقابل الثقة التى شرفتنى بها حكومة العراق ؛ وذلك كان أقل ما يجب أن أصنع لأحفظ لنفسى مكاناً بين الأساتذة المصريين الذين تشرفوا بخدمة العراق من أمثال محمد عبد العزيز وأحمد حسن الزيات والسنهورى وعبد الوهاب عزام ومحمود عزمى ؛ وذلك كان أقل ما يجب أن أصنع فى خدمة تلاميذى وتلميذاتى فى بغداد ، وقد رأيت فى وجوههم وجوه أبنائى وبناتى فكلفت نفسى فى خدمتهم فوق ما أطيق .

لا تسألونى كيف ظلمت نفسى فأنفقت من العافية ما أنفقت ، فقد ساءنى أن أعرف أن « دار المعلمين العالية » لها فى بغداد تاريخ ، فكانت تفتح ثم تغلق ، وتفتح ثم تغلق . فاستعنت الله وانتفعت بعطف معالى وزير المعارف الأستاذ محمد رضا الشبيبى وأريحية الأستاذ طه الراوى ومودة الدكتور فاضل الجمالى ، وعوّلت على

همة زميلي وصديقي الدكتور فؤاد عقراوي وأقمنا لدار المعلمين العالية أساساً من متين التقاليد الجامعية ، فأغنينا مكتبتها بالمؤلفات القديمة والحديثة وعلمنا طلابها كيف يبحثون ويراجعون ، وغرسنا فيهم الشوق إلى التحقيق والاستقصاء .

ورأيت أن يكون من تقاليد هذا المعهد العالي أن يخرج في كل سنة كتاباً عن شاعر أو أديب أو مفكر لم يدرسه أحد من قبل ، فألفت كتابي هذا عن الشريف الرضي . فإن ترفقت شواغلي بمصر وأذنت لي بالرجوع إلى بغداد فسأخرج في كل سنة كتابا جديداً . وإن أبت تلك الشواغل أن أتمتع مرة ثانية بالاستصباح بظلام الليل في بغداد فسيذكر من يخلفني أني طوقت عنقه بطوق من حديد ، وأن لامفر له من أن يشقى في سبيل « دار المعلمين العالية » كما شقيت .

وإنما نصصت على هذه المعاني في مقدمة هذا الكتاب لأجتدي العطف على « دار المعلمين العالية » . وممن أجتديه ؟ من حكومة العراق ، فما يجوز أن يغلق هذا المعهد ، وإنما يجب أن تبذل الجهود ليصبح منافساً قوياً لكلية الآداب بالجامعة المصرية .

* * *

قد يقول قوم من خلق الله : ولماذا ابتدأت بالشريف الرضي ! إن قالوا ذلك فالجواب عند الأستاذ عباس محمود العقاد ، فهو

يذكر جيداً أنى قلت له يوم أخرج كتابه عن ابن الرومى : كان الأفضل يا أستاذ أن تنفق هذا الجهد فى دراسة أشعار الشريف الرضى .

إن قالوا ذلك فالجواب عند الأستاذ الدكتور طه حسين ، فهو يذكر جيداً أنى نبهته إلى أن الاهتمام بدراسة شعر الشريف الرضى كان أولى من الاهتمام بدراسة شعراء القرن الثالث .

إن قالوا ذلك فالجواب عند نادى الموظفين بالقاهرة فقد طلب فى سنة ١٩٣٢ أن ألقى محاضرة عن أعظم شاعر فى اللغة العربية . فكانت محاضرتى عن الشريف الرضى .

ابتدأت بالشريف الرضى على غير موعد ، فقد رأيتنى فجأة بين دجلة والفرات ، فتذكرت أن قد جاء الأوان لدراسة هذا الشاعر الذى تعصبت له منذ أعوام طوال .

ويشهد الله وهو خير الحاكمين أنى لم أفكر فى إنصاف الشريف الرضى إلا يوم قدم لى الدكتور شريف عسيران نسخة من كتاب الأستاذ المقدسى عن أمراء الشعر فى العصر العباسى ، فأزعجنى أن يهتم بأبى العتاهية وينسى الشريف الرضى . مع أن ديوان أبى العتاهية لا يساوى قصيدة واحدة من قصائد الشريف .

فمن شاء له هواه أن يزعم أن لى غاية فى التعصب للشريف الرضى فليتق الله فى نفسه ، وليذكر أن الدكتور زكى مبارك لو كان أنفق نشاطه فى الاتجار بالتراب لأصبح من كبار الأغنياء ولكنه

بلا أسف سيموت فقيراً لأنه أنفق نشاطه فى خدمة الأدب العربى والأدب العربى خليق بأن يكون له شهداء ، وأنا فى طليعة أولئك الشهداء

* * *

سيرى قراء هذا الكتاب أنى جعلت الشريف أخل شاعر عرفته اللغة العربية ، وقد سمع بذلك ناس فذهبوا يقولون فى جرائد بغداد : أيكون الشريف أشعر من المتنبى ؟

وأستطيع أن أجيب بأن الشريف فى كتابى أشعر من المتنبى فى أىّ كتاب . ولن يكون المتنبى أشعر من الشريف إلا يوم أؤلف عنه كتاباً مثل هذا الكتاب .

والقول الفصل فى هذه القضية أن المتنبى فى بابه أشعر من الشريف ، والشريف فى بابه أشعر من المتنبى ، وكل عبقرى هو فى ذاته أعظم الناس لأن ميدانه لا يجاريه فيه أحد سواه ، والشريف بهذا المعنى أخل الشعراء لأنه جرى فى ميدان سيظل فارسها السباق على مدى الأجيال

وما الذى يضر أنصار المتنبى حين أقدم عليه الشريف ؟

هل فيهم من يحفظ ديوان المتنبى كما أحفظ ديوان المتنبى ؟

إن سجلات كلية الآداب بالجامعة المصرية تشهد بأنى كنت أول من دعا إلى الاحتفال بمرور ألف سنة على وفاة المتنبى ، ولى على

ذلك شهود منهم الشيخ السكندرى والأستاذ عباس محمود والدكتور منصور فهمى

وما الذى يضر أهل العراق من أن أهتمّ بشاعر لا يعرف العراقيون موضع قبره على التحقيق ؟ أليس من العجائب أن يعرف العراقيون قبر معروف الكرخى ويجهلوا قبر الشريف الرضى ؟

إن هذا هو الشاهد على أن العوام أحفظ للجميل من الخواص !

إن كان خصومى فى بغداد دهشوا من أن أتعصب لشاعر رضى عنه ناس وغضب عليه ناس فليذكروا أننى كنت كذلك طول حياتى فوضعت بالنقد قوما ورفعت آخرين ، وفقاً للحق لا طوعاً للأهواء

وأنا والله راض بأن يغضب علىّ أهل بغداد ، فقد غضبوا على أبى طالب المكى فمنحوه الخلود

أنا أحب الخصومات لأنها تذكى عزيمتى ، ومن أجل هذا أنظر نظر الجزع إلى مصير خصوماتى فى بغداد ، فلن يكون لى فى بغداد خصوم بعد ظهور هذا الكتاب ، وإنه لقادر على أن يفجّر العطف فى القلوب المنحوتة من الجلاميد . سيذكر أدباء بغداد أننى أحييت شاعراً هو من ثروة العروبة وثروة العراق، سيذكر أدباء بغداد أننى وفيت لمدينتهم السحرية حين اهتممت بشاعر كان أصدق من عرف النعيم والبؤس فوق ثرى بغداد

* * *

وكتابى هذا تطبيق لما شرعت من قواعد النقد الأدبى ، تلك القواعد التى أذعتها فى كتاب (الموازنة بين الشعراء) وهو من أجل هذا لون جديد فى اللغة العربية ، وسيكون له تأثير شديد فى توجيه الدراسات الأدبية ، وقد يصلح ما أفسد الزمان من عقول الباحثين

وبيان ذلك أنى لم أقف من الشاعر الذى أدرسه موقف الأستاذ من التلميذ كما يفعل المتحذلقون ، وإنما وقفت منه موقف الصديق من الصديق ، والتشابه بينى وبين الشريف الرضى عظيم جداً ، ولو خرج من قبره لعانقنى معانقة الشقيق للشقيق ، فقد عانى فى حياته ماعانيت فى حياتى : كافح فى سبيل المجد ما كافح وجهله قومه وزمانه ، وكافحت فى سبيل المجد ما كافحت وجهلنى قومى وزمانى

وهذا الترفق فى معاملة الشريف ليس نزوة شخصية ، وإنما هو وثبة علمية ، فما كان يمكن أن أكون وفياً للبحث إلا إن سايرت الشاعر الذى أعرض عقله وروحه على تلاميذى . وهذه هى المزية التى أتفرد بها بين أساتذة الأدب العربى .

سايرت الشريف مسايرة الصديق للصديق : فإن آمن آمنت ، وإن كفر كفرت . إن جدّ الشريف جددت ، وإن لعب لعبت . إن عقل الشريف عقلت ، وإن جنّ جننت ، إن قال الشريف إن غاية الرجل العظيم هى الحرب ، قلت : صدقت . وإن قال : إن

الحياة هى الحب، قلت : والحب الحياة !

ولكنى مع هذا عاملته معاملة الصديق الأمين فنبهته إلى عيوبه بتلطف وترفق ؛ نبهته تنبيهاً دقيقاً جداً لا يفطن إليه إلا الأذكياء ، وفى بنى آدم أذكياء . نبهته إلى عيوبه أكثر من ستين مرة ؛ وما أظنه يحقد علىّ لأن الصديق الذى فى مثل حالى تغفر له جميع الذنوب .

والشواهد فى هذا الكتاب كثيرة جداً وذلك هو أسلوبى فى البحث ، فأنا أشغل القارئ بالشاعر الذى أدرسه أكثر مما أشغله بنفسى ، وهذه إشارة أرجو أن ينتفع بها المتحذلقون .

اعتمدت على طبعة بيروت وصححت ماصادفنى فيها من أغلاط ، وشرحت مايجب شرحه من الأشعار خدمة للقارئ الجاحد الذى لايفهم قيمة الوقت الذى ينفقه الشارح فى تحديد المعانى ، وصححت الكتاب كله بنفسى تصحيحاً دقيقاً . فإن رأى فيه القارئ أغلاطاً فذلك ذنب العجلة لا ذنبى ، وأدخلت فنوناً من الذوق على الطباعة فى بغداد سيذكرها أصحاب المطابع

* * *

بغداد !

هذا كتابى ، أقدمه بيمينى فى تهيب واستحياء ، فإن رضيت عنه فذلك لطف ورفق ، وإن غضبت عليه فلست أول حسناء تجحد الجميل

بغداد !

اصنعى فى ودادى من التنكر والتقلب ماشاء لك الدلال . أما أنا فأشهد أنك صنعت بقلبى وعقلى ماعجزت عنه القاهرة وباريس !

أنت مظلومة يا بغداد ، وأنا مظلوم يا بغداد ، والظلم يجمع بين القلوب

نصرك الله ونصرنى ، ورعاك ورعانى ، إنه سميع مجيب .

وعليك منى السلام .

بين مصر ولبنان (1)

أخي الأستاذ رئيس تحرير البلاد

إنك تذكر ولا ريب أنني صحفي قديم ، وتذكر أنني ابتدأت بالصحافة السياسية ، ثم انتهيت إلى الصحافة الأدبية ، فراراً مما يصحب السياسة من المحرجات التي يضيق بها الوجدان في بعض الأحوال .

وتذكر أيضا أنني غامرت في أكثر من ألف معركة أدبية ، ثم انتصرت فيها جميعاً ، فليس في مصر عالم ولا أديب يستطيع أن يقول في السر أو في العلانية إنه انتصر على الدكتور زكي مبارك .

كل ذلك تعرفه ياسيد رافائيل ، ولكن غابت عنك أشياء ، فهل تصدق أنني سأنهزم أمام مجلة المكشوف التي تصدر في بيروت ؟ إي والله ! سأنهزم وسأعود إلى أهلي وأنا جريح الفؤاد .

لا تعجب أيها الأخ من هزيمة أخيك الشجاع زكي مبارك ، فإن جريدة المكشوف تدخل معي في مضايق أجبن عنها كل الجبن ، لأنها تحاول أن توقد نار العداوة بين أدباء مصر وأدباء لبنان ، وأنا رجل صممت على أن أعيش دهري كله من دعاة الأخوّة بين

---

(1) قدمت هذه الكلمة إلى جريدة البلاد ولكنها لم تنشر في الوقت المناسب لأسباب كثيرة منها تعطيل الجريدة !

الأقطار العربية فلا أستبيح لنفسى أن أشترك فى مناقشة يقال فيها لبنان أفضل من مصر ، أو مصر أعظم من لبنان .

أضف إلى ذلك أن لى أصدقاء من اللبنانيين يسوءهم أن أعرض لبلادهم بكلمة ملام ، فهل رأيت أحرج من هذا الموقف أيها الصديق ؟ .

أنا لا أرى لبنان فى وجوه أولئك السادة الذين يحاربوننى فى جريدة المكشوف ، وإنما أرى لبنان فى وجوه الأصدقاء الأمجاد الذين عرفتهم فى بيروت وفى القاهرة وفى باريس .

قد يسأل قراؤك : وما أصل الخصومة ؟

وأجيب بأن جريدة المكشوف تقول إن الأدباء اللبنانيين أعمق من الأدباء المصريين ! !

وما يسوءنى أن يكون الأمر كذلك ، فنحن جميعاً إخوان ، ولكن الواقع يشهد بغير ذلك ، الواقع يشهد أن أدباء مصر هم اليوم حماة اللغة العربية ، وأقطاب الأدب والبيان ، وتفوق الأدباء المصريين ليس مغنما لمصر وحدها وإنما هو مغنم لجميع الأمم العربية

فإن استطاع لبنان أن يقدم للعروبة أدباء أعمق من أدباء مصر فسأكون أول المرحبين ، ولكن مصر بحيويتها العلمية والأدبية والفنية ستظل مرفوعة العلم شامخة البنيان .

وأؤكد لك ياصديقى أن مصر تعرف جيداً ما هى مقبلة عليه ،

هى تفهم أن المجد الأدبى يقدّم له وقود هائل من الجهد والمـال ، وهى من أجل ذلك تحض أبناءها على الجهاد الموصول فى سـبيل الحياة العلميـة والأدبية والفنية ، وهى تعمل ما تعمل فى سكون ، وتترك الأقاويل والأراجيف لمن لا يعرفون قيمة الأخوّة العربية .

هل تصدق أيها الأخ أن وقتى فى العراق يضيع منه جزء ثمين فى دفع المفتريات التى تصوّب إلى مصر بلا حساب ؟

أحب أن أعرف ماهو الموجب للتحامل على الأدباء المصريين وهم يقذفون أبصارهم تحت المصابيح فى خدمة اللغة العربية .

أحب أن أعرف ماهو الموجب للحقد على مصر فى بلد مثل لبنان وقد كانت مصر هى الملاذ للمضطهدين من أحرار الفـكر فى لبنان

أما بعد فإن بعض أصحاب الأهواء يسوءهم ثم يسوءهم أن يقال إن مصر لها الزعامة الأدبيـة ، وأنا أقول بصوت جهورى يسمعه من فى القبور : إن الأمم العربيـة لم تتصدق على مصر بالزعامة الأدبية ، وإنمـا هى مجد غنمه المصريون بفضل ما قدموا من الجهود فى نصرة اللغة العربية ، ونحن على أتمّ استعداد لأن نقدم الراية لمن ينفقون من أعمارهم بعض ما ننفق فى سبيل لغة الضاد

فلتسمع هذا الكلام مجلة المكشوف ، ولتفهم جيداً أنّ أدبى لا يسمح بمجاراتها فى ميدان الهجاء ، لأن لى فى لبنان إخواناً كراما

يؤذيهم أن تعثر قدمى فى هـذا الميدان . وأنا لا أنظر إلى الساعة الحاضرة ، وإنمـا أتمثل المستقبل المشرق الذى ترفرف فيـه راية العروبة الغالية ، وذلك أمل أراه برعاية الله سهل المنال

أكتب هذا إليك وأنا أرجو أن لاتعاق عليه بمـا يؤذى إخوانى فى لبنان ، ولمجلة المكشوف أن تعاق بمـا تشاء ، فليست أول مجلة آذتنى ، ولن تـكون آخر مجلة تؤذينى بالظلم المبين

وسبحان من لو شاء لهدانا جميعاً إلى سواء السبيل

بعض مارأيت فى العراق [1]

أيها السادة

تفضلت الإذاعة اللاسلكية فدعتنى لإلقاء محاضرتين عن العراق ، فرأيت أن أقسم الموضوع إلى قسمين : الأول أصوّر به بعض مارأيت فى العراق ، والثانى أصوّر به الحياة الأدبية فى العراق

وأبدأ فأذكر أن هجرتى إلى العراق لم تكن تخطر بالبال ، فقد كانت لى فى مصر شواغل تصرفنى عن التفكير فى ذلك ، ثم فوجئت بالدعوة إلى خدمة العلم فى العراق فى مطلع شهر أكتوبر من السنة الماضية ، فترددت فى قبول الدعوة ، ثم قلت فى نفسى إن من العقل أن أعرف جوانب من الشرق بعد أن عرفت جوانب من الغرب ؛ وصح عندى أن الهجرة إلى العراق قد تشرح دقائق الأدب فى العصر العباسى ، وليس من المقبول أن يصح لمثلى أن يصف باريس عن علم ويصف بغداد عن جهل !

وما هى إلا أيام حتى كنت فى طريقى إلى العراق ، ولعلى كنت المصرى الوحيد الذى لم يطل بينه وبين المفوضية العراقية أخذ ولا ردّ فى شروط العمل بالعراق .

ولكن كيف أصل إلى العراق ؟

---

(١) محاضرة ألقيت فى الاذاعة المصرية

كانت هناك مسالك للوصول : الأول الوصول بالطيارة ، وهو أسهل الطرق ، لأنه يمكن المسافر من الفطور بالقاهرة والعشاء فى بغداد ، ولكنى تذكرت أنى أعطيت جماعة من تلاميذى موضوعا للانشاء منذ عشر سنين عن (خطر انعدام المسافة فى العصر الحديث) وكنت أرى أنّ الطيران قضى على جانب مهم من الأدب الوصفى فلن يكون فى الدنيا بعد اليوم رجل مثل ابن بطوطة ولا رجل مثل چان چاك روسّو ، وأنا أرى الشرق العربى أول مرة ، فليس من المفيد أن أسافر فى طيارة فأحجب عما فيه من أنهار ومدائن وسهول .

الطريق الثانى هو طريق البحر من الاسكندرية إلى بيروت وهو يعطى الفرصة لرؤية لبنان وسورية ، ولكنه يحرمنى رؤية فلسطين ويحبسنى فى البحر يوماً وبعض يوم ، وأنا ركبت البحر إلى أوربا أكثر من عشر مرات وشبعت منه وشبع منى .

الطريق الثالث هو السفر من القاهرة إلى القنطرة لاختراق فلسطين بالقطار حتى أصل إلى حيفا ومنها إلى بيروت ثم إلى الشام ثم إلى بغـداد .

ولكن طريق فلسطين كان فى ذلك الوقت محفوفاً بالمكاره ، فقد كانت البرقيات تحدثنا أن الثوار ينسفون القطارات ، فلم يصرفنى ذلك عن المرور بفلسطين ، لأنى كنت أحب أن أرى البلاد

التي يقتتل حول خيراتها العرب واليهود ، وقد نهاني بعض الزملاء المسافرين إلى العراق فلم أنته ، وتفردت بتلك المغامرة لأكحل جفني برؤية فلسطين .

وصلت إلى القنطرة في ليلة قمراء توحي غرائب الشعر والخيال ، فعلمت أن القطار سيتأخر قيامه من هناك ثلاث ساعات حتى لا يدخل فلسطين إلا مع ضوء الصباح ، تجنباً لمخاطر التعرض لنسفه بالليل . وكذلك عرفت أن من نهوني عن المرور بفلسطين لم يكونوا مخطئين .

قضيت ساعات في مناجاة قناة السويس والتأمل فيما صنعت مصر لخدمة الإنسانية ، الإنسانية الجاحدة التي جهلت ما قدمت مصر من جميل .

وقفت أنظر كيف خدمنا بني آدم وكيف أتعبنا أجسادنا وأفقرنا جيوبنا لنسهل وسائل النفع ولنصل بين المشرقين والمغربين ، ثم لا نجد من يتفضل بكلمة ثناء .

وسار القطار قبيل الصبح فبخلت على عيني بالهجود لأرى أطراف مصر من ناحية المشرق ولأنظر بساتين فلسطين .

ولم يكفني ما رأيت من فلسطين في الذهاب فقررت المرور عليها في الإياب لأتمتع باختراقها مرتين ولأقتنع بأنها بلاد جميلة جذابة تستحق ما ثار حولها من النضال .

ولم أبت في فلسطين إلا ليلة واحدة عند الرجوع ، وكانت ليلة متعبة ، فقد كان محرّما على أهل حيفا أن يتجولوا بالليل ، وكان من الحزم أن أقضى سهرتى فى رحاب الفندق وإن حرمنى ذلك شهود المجتمع الفاسطينى فى تلك المدينة البيضاء

وأعود فأقول إنى امتطيت سيارة فى ذهابى من حيفا إلى بيروت وفى بيروت قضيت ليلة واحدة كانت أبقى أثراً من الليالى الطوال

مضيت أتنقل فى بيروت من مكان إلى مكان بعد أن ألقيت أمتعتى فى الفندق ، ثم اتفق أن عرفنى بعض الأدباء هناك فساقنى ذلك إلى زيارة أكثر الجرائد واندفعت فجاذبت أهل بيروت أطراف الأحاديث وعرفت ألواناً من عتابهم على مصر والمصريين ، وقد تعقبونى بعد أن وصلت إلى العراق فكان بينى وبينهم مناوشات ستعرفون أخبارها حين أنشر كتاب (وحى بغداد)

ومن بيروت رحلت إلى دمشق مخترقا جبال لبنان فرأيت من جمالها الأعاجيب ، ولا أزال مفتوناً بما شهدت فى الموضع المعروف بسهل البقاع

وفى دمشق رأيت الأستاذ محمد كرد على والأستاذ عبد القادر المغربى وزرت بعض الزعماء وقضيت لحظات فى مناجاة نهر بردى الذى خلده حسان

ثم أسلمت نفسى إلى سيارة «نيرن» لأقطع الصحراء بين الشام

والعراق ولأرى بنفسى كيف شق أسلافنا بمخاطر البيداء

كنت أعرف أنى سأقضى أكثر من خمس وعشرين ساعة فى ذلك السجن المتحرك ، وكان ذلك يغرق نفسى فى بحر من الانقباض ، ولكن كان يعزينى ماعرفت من أننا سنستريح فى كل مدينة تصادفنا فى الطريق ، ولم يكن فى الطريق مدائن وإنما هناك محطتان هما الرطبة والرمادى

وبعد ساعات من عبور الصحراء نظرت فرأيتنا مقبلين على مدينة فيحاء ، مدينة تقع على نهر واسع تجرى فيه سفائن بخارية وشراعية ، فانشرح صدرى وقلت سنستريح لحظات ، ثم عجبت من جهلى بالجانب الجغرافى من ذلك الطريق ، فما كنت أعرف أن هناك مدينة تقع على نهر عجاج ، وترحمت على أستاذى اسماعيل بك رأفت الذى أسقطنى فى امتحانات الجامعة المصرية مرتين لقلة ما كنت أعرف من دقائق علم الجغرافيا وعلم وصف الشعوب .

ولكن لم تمض غير دقائق حتى اختفت تلك المدينة مرة واحدة فعرفت أنها كانت أضلولة من أضاليل السراب .

وبعد نصف ساعة لاحت مدينة جديدة ، فتأملت مرة ومرتين ومرات فتأكدت أنها مدينة حقيقية ، وكنت كلما اقتربت منها زدت يقينا بأننا سنستريح بعد لحظات ، وتمتاز تلك المدينة بما يكثر فيها من منارات المساجد وأبراج الكنائس ، وبما يحيط بها

من حدائق وبساتين ، وقد نظرت فرأيت حولها فرقة من الجيش تسير نحو الشرق ، وفوق ذلك الجيش يحلّق سرب من الطيارات .

ما اسم تلك المدينة ؟ ولمن ذلك الجيش ؟ ولأى غرض يتجه نحو الشرق ؟ آه من جهلى بدقائق علم الجغرافيا وعلم وصف الشعوب !

كنت أستطيع أن أسأل بعض المسافرين عن تلك المدينة ، ولكنى خجلت من السؤال . فقد كان فيهم من يعرف أنى ذاهب لخدمة العلم فى العراق ، ومن كان فى مثل حالى لا يليق به أن يجهل هذه البسائط الجغرافية .

وما هى إلا دقائق حتى اختفت هذه المدينة وعرفت أنها كتلك : أضلولة من أضاليل السراب .

ولكن خداع السراب لن يستمر طويلا ، فقد أقبلنا على واحة كثيرة النخيل ، قد انتثرت فيها منازل صغيرة أكثرها أكواخ ، وفيها ألوان من الحيوان أكثرها الابل والشاء ، وفيها عدد قليل من الأعراب .

لم أطرب كثيراً لظهور هذه الواحة ، فقد كنت أستبعد أن نقف عندها لحظة أو لحظتين ، فما فيها ـ فيما أظن ـ مطاعم ولا مشارب حتى يستريح بها المسافرون .

ولكنها على كل حال فرصة للنزول ، وسأقترح الوقوف عندها بضع دقائق .

آه ، ثم آه !

هذه أيضا أضلولة من أضاليل السراب .

ولكن هذه الأضاليل ستقفني بعد أشهر موقفاً سخيفاً جداً ، ستكون حفلة الافتتاح للمؤتمر الطبي العربي في بغداد ، وسيكون فيها الوزراء والنواب والأعيان وكبار الأطباء ، وسيلقي الأستاذ علي الجارم بك قصيدته في تحية المؤتمر فيقول في وصف البيداء .

طالت بنا الصحراء حتى خلتها أبد الأبيد

يتخلص المرمى البعيـــد بها إلى مرمى بعيد

كتخلص الحسناء من وعد طوته إلى وعود

فأصرخ : أعد يا أستاذ ، أعد الكلام عن وعود الحسان !

وعندئذ يتلفت الحاضرون فيرون الدكتور زكي مبارك هو الذي يستعيد ، فيقول بعضهم لبعض : هذا مجنون ليلى ، ولا حرج على المجانين !

وعذرهم في اللوم مقبول فما عرفوا من أضاليل السراب مثل الذي عرفت .

* * *

ثم وصلت إلى الرطبة تعبان فلم أذق معنى للراحة هناك .

وبعد نصف الليل قضينا مدة في الرمادي فذقت أول مرة طعام العراق .

وبعد الفجر رأيت أفواج الفلاحين وهم يسيرون بمواشيهم إلى حقولهم على الأسلوب الذى يجرى عليه الفلاحون المصريون .

وبعد تفتيش الأمتعة أخذت سيارة لأدخل بغداد بعد أن بقيت فى ذلك السجن المتحرك مدة طويلة رأيت فيها الشروق والغروب ثم الشروق .

* * *

الله أكبر ولله الحمد !

هذه بغداد التى قرأت عنها ماقرأت ، وسمعت فى وصفها ما سمعت .

وهذا هو الجسر الذى قال فى مثله ابن الجهم .

عيون المها بين الرصافة والجسر
جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

أعدن لى الشوق القديم ولم أكن
سلوت ولكن زدن جمراً إلى جمر

وذلك خيال باب الرصافة الذى تشوق إليه ابن نباتة السعدى فقال :

سقياً لتغليسى إلى باب الرصافة وابتكارى
أيام أخطر فى الصبا نشوان مسحوب الازار
حجى إلى حجر الصرا ةوفى حدائقها اعتمارى
ومواطن اللذات أوطا نى ودار اللهو دارى

وما كدت أضع أمتعتى فى الفندق حتى أخذت عربة ومضيت

فسلمت على وزير المعارف ، فراعنى أن أرى شيخاً معمما أسمر الوجه فصيح الحديث ، وقد سألنى عن الصحراء ، فأظهرت تألمى لما كابدت وعانيت ، فقال : اشكر ربك ، فقد قطعتها قبلك فى مدة دامت خمسة وعشرين يوما قبل أن تعرفها السيارات ، وكان حديثاً ممتعاً عرفت به من خصائص الصحراء مالم أكن أعرف .

ومضيت فقيدت اسمى فى ديوان حضرة صاحب الجلالة ملك العراق ، وانتقلت فسلمت على فخامة رئيس الوزراء ، وأسرعت فألقيت الدرس الأول فى دار المعلمين العالية وأنا بغبار الطريق !

سلام الله وسلام الحب على أيامى فى العراق .

كنت فى البداية أظن أننى ما حضرت إلا لتدريس الأدب العربى ، فحبست نفسى بين المدرسة والمكاتب زمناً غير قليل .

ثم رأيت أن هذا المسلك غير مقبول لأنه سيحجبنى عن الخصائص الذاتية للشعب العراقى ، وخصائص هذا الشعب تفسر كثيراً من دقائق الأدب فى العصر العباسى ، فانقطعت انقطاعا يكاد يكون تاماً عن المصريين المقيمين فى بغداد ، وأقبلت على البغداديين أصاحبهم وأصادقهم وأقضى معهم ما تسمح به أعمالى من لحظات الفراغ .

وكانت حجتى أن الشعوب لا تموت ، فبغداد التى غيرتها الأزمان من أحوال إلى أحوال لابدّ أن تحفظ كثيراً من شمائلها الأصيلة

لعهودها الذهبية ، ولا بدّ من الوصول إلى بعض الأسرار التى قضت بأن ينبغ فيها كبار الكتاب والشعراء .

وما هى إلا أشهر قلائل حتى كنت على صلات بمختلف الطبقات فى بغداد ، وحتى صححت لنفسى أخطاء كثيرة فى فهم الأدب والتاريخ .

وبغداد تنقسم فى وضعها الحاضر إلى قسمين : بغداد القديمة التى كان يعيش فيها الناس قبل التمدن الحديث ، وهى مدينة جافية لمن يراها أول مرة ، ولكنها جذابة جداً لمن يعرف روحها الشفاف ، هى مدينة تجذب من يعرف أهلها ، وهم فى أكثر أحوالهم على جانب عظيم من الأدب والذوق ولطف الأحاسيس وكرم النفوس

ولن أنسى طول حياتى مالقيت فى تلك الدور الجافية من عذوبة الأرواح وصفاء القلوب .

كنت أدخل المقاهى فى تلك المدينة القديمة فيؤذينى حرمانها من النظافة والتنسيق ، ولكن قلبى كان يتفجر بالعطف حين أتذكر أن هؤلاء الناس قاوموا الحوادث والخطوب حتى حفظوا أصول اللغة العربية وقواعد الإسلام ، وحتى استطاعوا أن يحفظوا لأنفسهم وجوداً خاصاً بالرغم من تصاريف الزمان .

فى تلك الدور الجافية نشأ ناس تغلبوا على مصاعب أخفها الأوبئة والطواعين .

فى تلك الدور الجافية خلقت عواطف وأحاسيس وأهواء .

فى تلك الدور الجافية نبغ شعراء وصفوا الحب والليل .

فى تلك الدور الجافية ألفت أحزاب ودبرت مؤامرات غيرت وضع العراق من حال إلى حال .

وكانت لتلك الدور الجافيـة تقاليد ، أهمها الباب المفتوح للجائعين والملهوفين .

إليك أيتهـا الدور الجافية وإلى ما يعلوك من رواشن وما يحيط بك من مضايق ، إليك فى خشونتك التى أراها أنعم من خدود الملاح أقدم تحيتى وثنائى .

أما بغداد الجديدة فتصورها الضواحى التى أنشئت على النظام الحديث .

وهذه الضواحى تمتد إلى آفاق بعيدة على شواطئ دجلة ، وفيها يعيش المياسير من أهل بغداد ، هى ضواح لا تقاس إلى الجيزة أو مصر الجديدة أو المعادى أو حدائق القبـة ، ولـكنها بالنسـبة إلى بغداد القديمة تعدّ انتقالا سريعاً إلى أجواء الرفاهية واللين .

وفى الأحياء الجديدة ميل شديد إلى الأناقة والتنسيق ، ولن تمضى غير سنين قلائل حتى تخلق بغداد كلها خلقا جديداً ، بفضل أبنائهـا الذين يزورون مصر وغير مصر فينقلون إلى وطنهم بذور الحضارة والعمران .

* * *

ليس فى بغـــداد مواصلات سريعة على نحو مافى القاهرة أو الاسكندرية ، فليس فيهـا ترام ولا مترو ، وسيارات التاكسى قليلة جداً ، وإنما يعتمد أهل بغداد على عربات تجرّها الخيل ، وهناك سيارات عمومية تسمى «باسات» ، وهى قذرة وضيقة ولا يركبها فى الغالب إلا الطبقة الشعبية .

والنساء فى بغداد يؤثرن الحجاب ، وهو الزى الغالب على النساء المسلمات ، والسفور لا يشيع إلا بين نساء النصارى واليهود ، على أن تلميذات المدارس من المسلمات ينتقلن رويداً رويداً إلى السفور . ومن المنتظر أن يصرن بعد نحو عشرين عاما إلى ما صـار إليه الفتيات القاهريات ، إن لم تقع موجة اجتماعية تردّهن جميعاً إلى مأثور الحجاب .

وأهل بغداد لا يشربون الخمر على قارعة الطريق كما يقع فى بعض الحواضر المصرية ، وإنمـا يشربونها فى فنادق مغلقـة الأبواب ، وذلك أدب مقبول .

وقد أذيعت منذ أشهر أوامر توجب أن لا تقدم الخمر فى الفنادق والملاهى بعد الحادية عشرة مساء . حفظـاً لصحة الشعب وآدابه من التبديد .

وفى العراق مدن لا يباح فيها بيع الخمر علانية ، وأشهر المدن فى

هذا المعنى مدينة النجف ، وهى مدينة كبيرة ، ولكنها مع ذلك خالية من الملاهى والملاعب والمراقص ، ولم يدخل فيها الراديو إلا بعد جدال طال أمده بين العلماء .

ولما زرت النجف جلست على قهوة ، فلامنى إخوانى هناك ، وقالوا : سيكتب فى التاريخ أن الدكتور زكى مبارك حين زار النجف جلس على قهوة !!

وسمعت أن أحد الموظفين بالكوفة كان يشرب الخمر سراً ، فلما علم الأهالى بخبره طاردوه إلى أن نقلته الحكومة من هناك .

ويمكن القول بأن أهل العراق فى جملتهم ينكرون شرب الخمر ، تشهد بذلك الحفلة التى أقامها فخامة رئيس الوزراء لأعضاء المؤتمر الطبى فلم يكن فيها شراب غير الماء القراح ، ومعنى هذا أن آداب الإسلام لا تزال مرعية فى تلك البلاد .

وهناك شارع مشهور يسمى شارع أبى نواس وكنت أظنه يشبه شارع وجه البركة فى القاهرة ، فلما رأيته عجبت ، لأنه شارع نظيف جداً يساير دجلة بحيث يمكن أن نسميه كورنيش بغداد ، وفيه قهوات لا يباح فيها شرب الخمر على الإطلاق .

وإنما نصصت على هذا الجانب من حياة أهل العراق لأنه يدخل فى صميم المجتمع ، ويمثل أذواق الناس أصدق تمثيل .

وقد لوحظ أخيراً أن الفنادق التى تبيع الخمر تكثر فيها

المشاجرات فاهتمت الحكومة بالأمر وبثت حولها الأرصاد والعيون .

ويتصل بهذا ماشهدته حين دخلت بغداد فقد عرفت أن هناك أوامر تعاقب من يفطرون علنا فى رمضان ، وكذلك ينقضى شهر الصوم وليس فيه مطعم مفتوح أثناء النهار ، وليس معنى هذا أن أهل بغداد يصومون جميعاً ، ولكن معناه أنهم يراعون آداب الصيام .

وملاهى بغداد تنقسم إلى قسمين : ملاه شرقية وملاه غربية .

أما الملاهى الشرقية فتقوم على الغناء والرقص على نحو ما كنا نشهد فى القاهرة منذ سنين . وقد عرفت أن البغداديين لا يصفقون حين يطربون للغناء ، وهذا فيما علمت كان من أسباب الوحشة التى أحسها الأستاذ محمد عبد الوهاب حين غنّى هناك .

أما الملاهى الغربية فتقوم على الرقص الإفرنجى ، وهى ملاه قليلة جداً ، لأن الذهاب إليها يعدّ من العيوب ، وهى مع ذلك تزدحم بالرواد فى أكثر الليالى .

ومن هذا تفهمون أن المجتمع العراقى يعانى صعوبة الانتقال من وضع إلى وضع .

وما نقول به فى الحكم على مدينة بغداد نقول به فى الحكم على مدينة البصرة ، ففيها رأيت مرقصاً إفرنجيا لو شهده الجاحظ لكتب

فى وصفه رسالة أو رسالتين ! !

وقد أقمت فى مدينة الموصل خمسة أيام فرأيتها أكثر احتشاما من البصرة وبغداد ، والسر فى ذلك أن الموصل يكثر فيها النصارى، فيحرص المسلمون على آدابهم أشد الحرص ليقيموا التوازن بين المذاهب ويذهبوا قالة السوء عن العقيدة الإسلامية .

* * *

ويسوقنا هذا الوصف إلى الحديث عن تدين أهل العراق ، فهم فى رأيى من أشد الأمم تمسكا بالإسلام ، وربما كان العراق هو الأمة الوحيدة التى لا تزال تختلف وتأتلف حول المذاهب الإسلامية ، والاختلاف حول تلك المذاهب يوحى إلى الجمهور حب التعمق فى درس الآراء والنظريات . وكذلك يعرف أهل العراق من تاريخ الخلفاء والأئمة ما لا يعرف جمهور المسلمين فى غير العراق .

وفى العراق عدة جمعيات تهتم بنشر المعارف الدينية ، منها جمعية الشبان المسلمين ، وجمعية الهداية ، والجمعية الإسلامية ، والأخيرة جمعية يديرها جماعة من فضلاء الهنود .

وعلماء الدين فى العراق يحترمون أئمة الإسلام احتراماً شديداً وقد يصلون فى ذلك إلى حد التعصب الممقوت ، وأذكر أن جماعة منهم قاطعوا محاضراتى فى بغداد بسبب كتاب (الأخلاق عند الغزالى)

ومحطة الإذاعة العراقية تصنع مثل الذى تصنع محطة الإذاعة المصرية من الاهتمام بتلاوة القرآن وإذاعة الأحاديث الدينية ، وهم ينظرون إلى من يذكرهم بالدين والأخلاق نظر الاحترام والإعجاب وهم يتوجعون لما قد يقع بالمسلمين من سوء ، تشهد لذلك مواساتهم التى لا تنقطع لأهل فلسطين

وبهذه المناسبة أذكر أن يهود العراق يكادون ينفصلون عن الدعوة الصهيونية بفضل اهتمام أهل العراق بقضية فلسطين ، وإنى لأذكر أن أول إعانة قدمتها هناك لمنكوبى فلسطين كانت ونحن مجتمعون فى بيت رجل من بنى إسرائيل

وجملة القول فى هذا الباب أن العواطف الدينية فى العراق عواطف سليمة جداً ؛ والمصلح الموفق يستطيع أن يقود العراقيين باسم الدين إلى أشرف الغايات

وهم مع تدينهم أهل مرح وطرب وانشراح ؛ وأكثرهم يجيد الغنـاء

***

بقيت كلمة عن خيرات العراق

وأقول إنهم لم يستطيعوا إلى اليوم أن ينتفعوا تمام الانتفاع بما فى بلادهم من خيرات ، فعندهم نهران عظيمان هما دجلة والفرات ، ولكن مياه هذين النهرين يذهب معظمها إلى البحر بلا رقيب ولا حسيب .

ويوم يستطيع العراق حبس مياه هذين النهرين ستنقلب سهوله إلى رياض وحقول تعود على الناس بالخير العميم ؛ ولعل ذلك قريب .

وجوّ العراق عنيف جداً فى الصيف ، ولكن ينتظر أن يلطف حين تخزن مياه الأنهار وتكثر المزارع والبساتين .

وأنهار العراق مسمكة جداً فهم يأكلون السمك فى جميع الأوقات وليست أنهارهم كنهر النيل الذى يضن بالسمك فلا يراه الفلاح فى العام غير مرات معدودات ، وكثرة السمك فى أنهار العراق هى السبب فى رخص اللحوم هناك .

وفى العراق يختلف الشمال عن الجنوب .

فالذاهب إلى البصرة تروعه النخلات التى تعد بالملايين ، والذاهب إلى الموصل تبهره حقول الحنطة ، وهى حقول ممدودة على مسافات طوال .

وفى العراق خيرات النفط الذى نسميه البترول ، ولها سوق قائمة فى كركوك ، ويرى المسافر جذوات اللهب من مكان بعيد .

وسكان العراق هم اليوم نحو أربعة ملايين ، ولو استطاعوا تدبير الخيرات فى بلادهم لوصل السكان إلى أربعين مليونا .

وأخلاق أهل العراق تدور بين الشدة واللين ، فهم يسرفون فى الحب ، ويسرفون فى البغض ، وهم فى هذا يتبعون جوّ بلادهم الذى يرقّ فيكون نسيما ، ويقسو فيكون جحيما .

* * *

ذلك أيها السادة بعض مارأيت فى العراق سقته إليكم بلا تزيين ولا تجميل ، وهو يصور أهم مايجب أن تعرفوه عن المجتمع العراقى

وفى المحاضرة المقبلة أحدثكم عن الحياة الأدبية فى تلك البلاد لنرى كيف صارت اللغة وصار الأدب فى الأمة التى رفعت لواء النهضة العلمية فى عصر بنى العباس .

ويسرنى وأنا فى مصر أن أقدم التحية إلى سائر أهل العراق راجيا لهم من الخيرات والبركات ماأرجوه لنفسى ولأهلى ولوطنى .

حيا الله العروبة ، وحيا الله الإسلام .

الحياة الادبية في العراق

أيها السادة

حدثتكم من قبل عن بعض ما رأيت فى العراق ، والليلة أحدثكم عن الحياة الأدبية فى تلك البلاد .

ولكن هل فى العراق حياة أدبية ؟

العراقيون أنفسهم يرتابون فى ذلك .

وهذا الارتياب يرجع إلى شعورهم بضعف الصلات بين حاضرهم وماضيهم ، فهم يرون أنهم كانوا فى العصر العباسى أئمة الناس فى العلم والأدب والبيان ، وينظرون فيرون بلادهم كانت خضعت أحقابا لسيطرة اللغة الفارسية واللغة التركية ، ثم يتأملون فيرون القاهرة تصنع فى العقول العربية ما كانت تصنع بغداد فى عصر بنى العباس .

وهذا الشعور يغرق أهل العراق فى بحار من التأملات ، فهم يجاهدون جهاداً قويا لينتصفوا لأنفسهم ولأدبهم من سفاهة الزمان .

والحق أن العراق من أصلح البلاد للشعر والخيال ، وترجع هذه الصلاحية إلى جوّ العراق ، فهو شديد الحرارة فى الصيف

وشديد البرودة فى الشتاء، ومن طبع الجوّ العنيف أن يوقظ العواطف والأحاسيس .

والذى عاش فى العراق يعرف صحة ما أقول، فربما كان العراق هو القطر الوحيد الذى لا تنقطع فيه الحمائم عن البكاء والنحيب، ويكون ذلك حين تهجم طلائع الصيف، وترق العواطف وتضعف الأعصاب .

وفى العراق أقاليم تنقل الخواطر من حال إلى أحوال ، فهناك البصرة وهى المدينة التى تجرى من تحتها الأنهار ، والبصرة تدخل على القلوب ألوانا من الأحزان والأفراح ، بفضل ما تعرف أنهارها من المد والجزر ، وما يعرف نخيلها من الشدة واللين ، وما يعرف أهلوها من القبض والبسط تبعاً لتقلب الفصول .

وهنالك الموصل ، الموصل المزهر الذى يسمونه أم الربيعين ، فللموصل قدرة عجيبة على تلوين الحزون والسهول ، وهو يستقبل الربيع بمواكب تتموج من الأعشاب والأزهار والرياحين ، ثم تجف أعشابه فجأة فتسبغ على النفوس أثواب الاكتئاب ، وبين الأفراح والأشجان تنبغ عواطف الشعراء .

وهنالك الطغيان ، طغيان دجلة والفرات ، وهذا الطغيان يغزو القلوب بالروع والفزع فيجعلها صالحة أشد الصلاحية للشعر والخيال .

وهنالك الظباء الوحشية ذوات العيون والأجياد ، وقد رأيتها مرات ، رأيت أسرابها فى طريقى إلى البصرة وفى طريقى إلى بغداد ، وسمعت بأخبارها فى سامراء .

وهنالك الليل ، ليل بغداد الذى يطول على حلفاء الألم والأنين .

ومن اسم الليل جاء اسم ليلى التى صحت فى كل أرض ولم تمرض إلا فى العراق .

وهنالك الصحراء ، الصحراء الشامية التى تطوّق العراق ، والصحراء التى تقع بين النجف وكربلاء .

وكان لى مع صحراء النجف تاريخ ، فقد ثارت عواصفها ذات يوم وأنا فى سيارة مع ثلاثة من الأصدقاء ، هم الأساتذة رزوق غنام وصادق الوكيل وتقى آل الشيخ راضى ، فكانت حبات الرمل تضرب وجوهنا بقوّة وعنف حتى كادت تدميها ، ثم انغرزت السيارة فى الرمل فظللنا هائمين لا ندرى أين نتوجه نحو ساعتين .

وذلك الجو العنيف الذى يهيج الأعصاب والأحاسيس هو الذى جعل أهل العراق مضرب الأمثال فى صدق اللوعة ورقة الحنين ، وقضى بأن يكونوا أكثر الناس شكاية من قسوة الأيام والليالى .

وما قال قائل (ياليل) فى مشرق أو فى مغرب إلا كان نواحه منقولا عن أهل العراق .

والعراقى حين ينتشى يضع راحته على خده ويغنى غناءً شجيا

تلين له الجلاميد ، وربما كان السر فى ذلك أن العراق قضى الدهور فى كروب وأشجان ، فهو طول عمره فى حرب مع الطبيعة ومع الناس .

ومن أجل هذا كان أهل العراق أجرأ أهل الأرض على إعلان ما يضمرون ، وهل رأت اللغة العربية شاعراً مثل الشّريف الرضى يتغزل فى موسم الحج وهو أمير الحج ونقيب الأشراف ؟

وهل رأى الناس رجلا مثل الحبوبى ، وكان إمام المجتهدين بالنجف ، هل رأى الناس مثله وهو فى منصبه الدينى يستبيح أن يقول :

اسقنى كأساً وخذ كأساً إليك
فلذيذ العيش أن نشتركا
وإذا جدت بها من شفتيك
فاسقنيها وخذ الأولى لكا
أو فحسبي خمرة من ناظريك
أصبحت نسكا وأضحت منسكا
وانهب العمر ودع ما سلفا
واغتنم صفوك قبل الرنق
إن صفا العيش فما كان صفا
أو تلاقينا فقد لا نلتقى

وفى العراق ينبغ الشعراء نبوغاً بلا سابقة عهد بالثقافة الأدبية ، ينبغون فى الشعر بلا تثقيف كما تنبغ الحمائم فى السجع بلا تثقيف .

فمن شعراء اليوم فى بغداد شاعر مجيد هو صديقنا العزيز السيد عبد الرحمن البناء ، وهو بنّاء حساً ومعنى ، ولكن عبقريته نقلته من هندسة المبانى إلى هندسة القوافى ، فله عدة دواوين شعرية ، وله مطبعة ، وله جريدة تسمى بغداد .

جلست أسمر مرة مع هذا الشاعر فى ليلة قمراء كأنها الصبح المشرق فى مصر الجديدة ، جلسنا فى بهو الفندق ، فندق العالم العربى على شط دجلة ، فنظر إلىّ وقال :

(أنا الذى بنيت هذه المسنّاة)

فوقعت هذه العبارة من نفسى موقع الشعر الجميل .

وقد عجب الأستاذ محمد بهجة الأثرى إذ رآه يوما واقفا فى الشارع العام يدير أمر الفعلة فيأمر هذا ويصرخ بذاك وفى يده قلم وصحيفة ليدوّن ما يجيش بصدره من المعانى .

ولكن لا عجب : فذلك بنّاء نشأ فى العراق .

أيها السادة

قد رأيتم أنه ما كان يمكن أن تعيش مثل تلك البلاد بلا أدب وبلا خيال .

فكيف حالها اليوم ؟

كيف حال البلاد التى رفعت راية العلم والمدنية بعد أن هجع الفرس والروم ؟

عرفت فى بغداد ثلاثة من الأندية الأدبية : نادى القلم العراقى ، ونادى المعارف ، ونادى المثنى .

أما نادى القلم العراقى فهو شعبة من نادى القلم الدولى ، وهو تحت رياسة معالى الأستاذ محمد رضا الشبيبى ، أحد الأفذاذ بين شعراء العراق ، وسكرتير هذا النادى هو الدكتور محمد فاضل الجمالى مدير التربية والتدريس بوزارة المعارف العراقية .

وصلتى بهذا النادى قوية ، فقد تشرفت بعضويته ، وكانت حجة من رشحونى للعضوية بذلك النادى أنى عراقى الروح وإن كنت مصرى النشأة ، وقد أنسى كل شىء ولا أنسى أيامى بذلك النادى الجميل .

وكيف أنسى سهرات ذلك النادى وفيها صخب وضجيج يذكرنى بمكتب تفتيش اللغة العربية بوزارة المعارف المصرية ؟

كنا نجتمع فى كل شهر نحو ثلاث مرات ، وما كان لنا مكان معين وإنما كنا نجتمع كل مرة فى منزل أحد الأعضاء ، وكان على العضو الذى نجتمع فى بيته أن يراعى مقتضيات الأحوال ، فإن كنا فى المدينة قدم إلينا الشاى والحلواء ، وإن كان منزله فى الضواحى قدّم إلينا العشاء الخفيف ، والعشاء الخفيف هو طعام تبقى ذكراه فى الذهن نحو

ثلاثة أسابيع ، كالذى كان يقع فى الرستمية والزوّية ، ومن الزملاء من تلفت أمعاؤه من ذلك العشاء الخفيف !!

وفى كل اجتماع يلقى أحد الأعضاء محاضرة ، ولا تسألوا كيف كنا نستمع تلك المحاضرات فمعالى الأستاذ الشبيبى هو الذى كان يستمع ، وهو من أصبر الناس على المكاره والخطوب ، أما الأعضاء فكانوا يقضون الوقت فى مضايقة الخطيب ، وأشهد أنى كنت من أوفر الناس أدبا فى تلك الاجتماعات ، فما كنت أعترض على الخطيب أكثر من سبعين مرة فى المجلس الواحد ، وقد رأى معالى الرئيس أن يريحنى من المشاغبات فكان يقفل باب المناقشة بعد كل اجتماع ، وهو فضل لن ينساه من كان ينقذهم تدخل الرئيس .

وفى نادى القلم العراقى عنزان ينتطحان : هما الأستاذ عباس العزاوى والأستاذ عبد المسيح وزير ، وكنت بدأت أناطح الأستاذ عبد المسيح ، ولكن الدورة انتهت قبل أن أشفى غليلى ، فان رجعت إلى العراق فسوف ألقاه بما يشتهى حساده وعاذلوه !!

ويهتم نادى القلم العراقى بطبع ما ألقى أعضاؤه من جيد المحاضرات ، وستكون مجموعة قيمة تمثل جوانب من أدب العراق فى العصر الحديث .

أما نادى المعارف فهو نادى المعلمين ، وهو اليوم تحت رياسة الأستاذ رشيد العبيدى ، أحد المتخرجين فى دار العلوم بالقاهرة ،

وهو ناد خفيف الروح كنت ألقى فيه أصدقائى فى مساء الخميس من كل أسبوع ، حيث أسمر مع الصديقين عبدالستار وحسين ، وحيث أقرأ ما لا أستطيع الوصول اليه من جرائد ومجلات ، وحيث أسمع إذاعة مصر والعراق وفلسطين .

وفى ذلك النادى كنت أتشرف بمقابلة سعادة الأستاذ طه الراوى من حين إلى حين ، وقد أخذت منه كلمة بالسعى لدى ولاة الأمور ليمنحوا النادى قطعة أرض بالضواحى ليشعر أعضاؤه بأنهم أصبحوا من أصحاب الأملاك المعنوية فى بغداد .

أما نادى المثنى فهو نادى العروبة ، وله صلات مع أكثر الزعماء بالأقطار العربيـة ، وله نشرات دورية تصور مايدعو إليـه من مبادئ وآراء .

ومن أعضاء ذلك النادى عرفت السـيد مهدى كبة والسيد عبد المجيد محمود .

ورئيس هذا النادى رجل شهم ، ولكنى نسيت اسمه مع الأسف

وعرفت أيضا جمعية الشبان المسلمين ، ودارها بالكرخ الذى كان فيه قمر ابن زريق .

ولجمعية الشبان المسلمين هناك حيوية جذابة ، فهى ملتقى السامرين من أهل الفضل فى بغداد .

وهناك جمعية الهداية الإسلامية . وما أعرف أين تقيم ، ولكن

لها مجلة قوية اسمها : الكفاح ، ولها صلات بأكثر الباحثين فى الأقطار الإسلامية ، وهى تصدر فى كل سنة عدداً خاصا بالمولد النبوى تلتقى فيه أقلام المتعمقين فى التاريخ الإسلامى .

أيها السادة .

قد تسألون عن الصحافة فى العراق ، وهى من أهم مظاهر الحياة الأدبية .

وأجيب بأن الصحافة هناك تجاهد لتؤدى واجبها فى تثقيف الجمهور المتعطش إلى الآداب والفنون ، ولولا ضعف الطباعة وغلاء الورق لكان للصحافة فى العراق مكان مرموق .

ومركز الصحافة هو بغداد ، لأنها العاصمة ، ففيها تصدر عدة جرائد يومية وعدة مجلات أسبوعية وشهرية مثل الأخبار والعالم العربى والزمان والرأى العام والعقاب والكرخ والاستقلال وبالك وحبزبوز والكفاح والمناهل والهدف والعراق وبغداد وفتاة العراق والمعلم الجديد .

وفى البصرة تصدر جريدة الناس وجريدة الثغر ، وفى الحلة تصدر جريدة حمورابى ، ورأيت فى الموصل جريدتين .

وفى النجف تصدر الاعتدال والحضارة والهاتف .

وهناك جرائد ومجلات غاب اسمها عن الذاكرة ، وهى جميعا تكافح الأمية وتدعو إلى الفضيلة ، وتعاون على التثقيف .

ولاتظهر قيمة الجهاد الصحفى فى العراق إلا إذا تذكرنا مايعترض الصحافة من عوائق لايتسع لشرحها هذا الحديث .

ويجب النص على أن جماهير أهل العراق لايكتفون بما يصدر فى بلادهم من جرائد ومجلات ، فهم يقبلون إقبالا شديداً على المجلات المصرية ، من أمثال المقتطف والهلال والرسالة والدنيا والاثنين والمصور وروز اليوسف والرواية وآخرساعة واللطائف والصباح ، وهم فى الأغلب يفضلون المجلات الجدية على المجلات الفكاهية .

وكذلك يمكن الحكم بأن الشاب العراقى يتصل بأصول الثقافة الحديثة على نحو مايتصل بها الشاب المصرى ، وربما جاز أن نحكم بأن الشبان العراقيين قد يعرفون من مؤلفات مصر مالا يعرف الشبان المصريون .

وهذا يبشر بمستقبل مزهر للحياة الأدبية فى العراق

أيها السادة .

قد تسألون عن الشعر والنثر فى العراق .

وأجيب بأن العراق هو فى ذاته جذوة شعرية ، ففيه من الشعراء مئات أو ألوف ، ومن فاته نظم الشعر لم تفته رواية الشعر ، وأسمارهم تقوم فى الأغلب على رواية الأشعار ، وطباعهم الشعرية فى غاية من السماحة والنبل ، وفيهم أريحية تذكّر بأسلافهم فى عصر

بنى العباس ؛ ولو صرحت بما فى نفسى لقلت إن شمائل أهل العراق تعدّ نماذج من الشعر الرائع

ومع هـــــذا لم يظفر منهم بشهرة عالمية غـير شاعرين اثنين : الزهاوى والرصافى .

أما الزهاوى فكان أهل مصر يرونه ناظما لا شاعراً ، وأكثر أشعاره يؤيد هذا الرأى .

ولكنى سمعت من أخباره فى بغداد ما أكد لى أنه كان يحيا حياة شعرية ، وأنه كان فى ذوقه وإحساسه من الأقطاب بين أهل الفنون ، وهو الذى يقول فى دفع من يتحاملون عليه :

علىّ تهافتوا فرفعت كفى   أصدّ به عن الأدب الذبابا

وأما الرصافى فهو أهل للشهرة التى ظفر بها بين قراء اللغة العربية وله ديوان ضخم سيحفظ مكانه بين دواوين الفحول .

وللرصافى أشعار كثيرة لم تنشر ، وهى على ألسنة الناس ، وأكثرها فى الهجاء . وما وصل إلى سمعى من تلك الأشعار يشهد بأن العراق لم يضيع مذهبه المأثور فى السخرية من سخيف الأخلاق والتقاليد .

والعراق مغبون من الوجهة العالمية ، ففى بغداد والنجف شعراء لا يعرفهم غـير أهل العراق ، ولو اعتدل الميزان لسارت أسماء أولئك الشعراء .

أما النثر فلاحظ له فى العراق لهذا العهد ، وما أذكر أنى قرأت فى العراق رسالة أو مقالة تضع كاتبها فى الطبقة الأولى بين طبقات الكتاب المبدعين .

وكذلك حالهم فى النقد الأدبى ، فليس فيهم اليوم ناقد حصيف يدرك الفروق بين دقائق المعانى .

وحظهم من التأليف الجيد قليل ، والصلة بين حاضرهم وماضيهم من هذه الناحية تكاد تكون منقطعة تمام الانقطاع .

وتخلف العراقيين فى الانشاء والنقد والتأليف له أسباب ، فهذه الفنون لا تزدهر إلا حين تقوى الثقافة الأدبية وتستفحل ، والعراقيون لم يوجهوا هممهم إلى الثقافة الأدبية إلا منذ زمن قليل ، أى منذ تنسموا هواء الاستقلال .

وإنى لأرجو أن يصل إليهم هذا الصوت ، فما أحب أن يكونوا فى النقد والإنشاء والتأليف من المتخلفين ، وكان أسلافهم من من السابقين الأولين فى هذه الميادين .

وهناك بوارق لهذه الفنون فى الجرائد والمجلات ، ولكنها كالبوارق التى تسبق الفجر الصادق .

وإنما نصصت على هذه الجوانب لأن أهل العراق يحبون من يدلهم على مواطن التخلف ، ولو كنت أعرف أن النص على هذه الجوانب يؤذيهم لراعيت ما بينى وبينهم من الحب والوداد .

أيها السادة

فى العراق حياة أدبية بلا ريب ، ولكن يعوزها أشياء ، وهم يعرفون ما أعنى .

فى العراق حياة أدبية يرى المتطلع شواهدها فى كل مكان ، ولكنى أحب أن أسمع أن العراق أصبح يسيطر على الحياة الأدبية فى مختلف الأقطار العربية ، كما تصنع مصر فى هذا الزمان .

أنا أشتهى أن يقترب اليوم الذى تثور فيه المنافسة بين القاهرة وبغداد .

أنا أشتهى أن يقترب اليوم الذى تروج فيه المؤلفات العراقية فى مصر ، كما تروج المؤلفات المصرية فى العراق .

إن أدباء العراق يرون زيارة مصر من الفروض ، وأنا أنتظر اليوم الذى يرى فيه أدباء مصر أن زيارة العراق من الفروض .

فيا إخوانى فى العراق ، أنا أذكركم بواجبكم ، وأدعوكم إلى مضاعفة الجهد والنشاط لتصلوا بعون الله إلى ما يرجوه لكم محبوكم من خير وسداد وتوفيق .

وإلى اللقاء ، يا أدباء العراق ، فى ميادين النضال بين القاهرة وبغداد

إلى اللقاء القريب يوم تصبح الأقطار العربية أمة واحدة متجانسة تجانسا تاما فى العواطف والمقاصد والأغراض .

إلى اللقاء القريب يوم ترفع الحواجز التى خلقتها الأوضاع

السياسية فلا يحتاج الرجل إلى جواز سفر حين ينتقل من العراق إلى مصر أو من مصر إلى العراق .

إلى اللقاء القريب يوم تصبح الأخوة العربية أقوى وأمنع من أن تكدرها وشايات الواشين ونمائم النمامين .

إلى اللقاء القريب يوم يصبح الوجود العربى جسما واحدا إذا تألم منه عضو توجع له سائر الأعضاء .

إلى اللقاء القريب يوم تتوحد بيننا المذاهب التعليمية والاجتماعية والاقتصادية ، يوم لا تكون الفوارق الجغرافية إلا نعمة ندرك بها كيف شاء الله أن ينوع الخيرات والبركات .

وهذا حلم قد لا يتحقق ونحن أحياء ، ولكن يشرفنا أن نكون من أوائل الهاتفين بهذا الحلم الجميل .

أبو العلاء فى الميزان

أكتب هذا المقال فى لحظات حزينة اكتوى بنارها أبو العلاء ؛ أكتب هذا المقال وأنا أحزم أمتعتى للرحيل عن بغداد ، وهو ، رحمه الله قد بكى يوم فارق بغداد ، ولعله لم يعرف موجعات الحزن إلا يوم قهره الوجد على أن يقول :

أودّعكم يا أهل بغداد والحشا ... على زفرات ما ينين من اللذع

وداع ضنٍ لم يستقلّ وإنما ... تحامل من بعد العثار على ظلع

فبئس البديل الشام منكم وأهله ... على أنهم قومى وبينهم ربعى

ألا زوّدونى شربة ولو أننى ... قدرت إذاً أفنيت دجلة بالكرع

أما بعد فإنى أرى أن أبا العلاء لم يكره الدنيا أبداً ، ولم يكن يوم اعتزل دنياه إلا حيوانا مفترساً نزع الدهر ما كان يملك من أظافر وأنياب . ولو كان أبو العلاء كره دنياه لاكتفى منها بأيسر العيش ، ولكنه عاش عمراً طويلا جداً ، وطول العمر يشهد بقوة الأواصر بين المحب والمحبوب ، فالقتال بين أبى العلاء وبين دنياه كان قتالا بين عاشقين يظهران البغض والحقد ، ويضمران العطف والحنان .

والناس متفقون على أن أبا العلاء كان طلق دنياه فلم يظفر بما في حواشيها من نعيم ومتاع ، ولكنى بعد التأمل عرفت أنه زهد فى جميع الأشياء إلا المجد ، والمجد هو أشهى الأطايب فى دنيا الرجال . فإن لم يكن هذا صحيحا فكيف نفسر خضوعه لما شاع فى زمانه من التقاليد الأدبية ، والخضوع للتقاليد الأدبية دليل الحرص على انتهاب مايملك الناس . وأحب أن أشرح هذه النظرية فأقول :

ينقسم شعر أبى العلاء إلى قسمين : أولهما ممثل فى سقط الزند ، وثانيهما ممثل فى اللزوميات . أما سقط الزند فمجموعة شعرية تشهد بأن الرجل كان يعجبه ويرضيه أن يكون من أقطاب اللغويين ، وهو قد أفصح عن ذلك حين خاطب الشريف الرضى والشريف المرتضى فى القصيدة التى رثى بها أبا أحمد الموسوى فقال :

يامالكى سرح القريض أتتكما مني حمولة مسنتين عجاف
لاتعرف الورق اللجين وإن تسل تخبر عن القلام والخذراف

وهى شهادة صريحة بأنه كان يحب أن يملك قلوب البغداديين ، وكان البغداديون ألفوا حب البادية ، وهو مرض فظيع ترك فى اللغة العربية أسقاما وعقابيل . وأما اللزوميات فمجموعة شعرية تشهد بأن الرجل خضع لأمراض زمانه أبشع الخضوع ، فقد كان الأدباء فى صدر القرن الخامس قد ابتلاهم الجهل ببلية سخيفة هى الهيام بالزخرف ، والفناء فى التزويق والتهويل .

والفرق بين مجموعة سقط الزند ومجموعة اللزوميات فرق عظيم جداً عند من لايعرف . أما أنا — وأنا باحث يزعم أنه يعرف — فأحكم بأن المعرى انتقل من بلاء إلى بلاء ، وأراه فى سقط الزند مولعا بالإغراب ، أعنى تصيّد الغريب من الأخيلة والألفاظ والتعابير ، وأراه فى اللزوميات مريضا بعلتين : الاغراب والبديعيات .

هل كان المعرى يجهل أنه يجنى على اللغة العربية بما صنع ؟ هل كان يجهل أنه فى أغلب أحواله يخاطب أهل العراق وأهل الشام بما لايفهمون ؟ هل كان يجهل أن فى سقط الزند واللزوميات ورسالة الغفران شطرات وفقرات لايفهمها المتفهم إلا بعد التأمل العميق ؟ هل كان يجهل أن البيان الحق هو الذى يروعك لأول نظرة كما يروعك الجمال الفصيح ؟

ما كان أبو العلاء يجهل ذلك أو بعض ذلك ، وإنما كان رجلا لبقا يعرف مواضع الضعف فيمن عاصروه فغزاهم بلا رحمة ولا إشفاق .

قد يقول القارئ : وما محصول هذا الكلام ؟

وأجيب بأن هذه النزعة هى الشاهد على أنه لم يكن فى دنياه من الزاهدين ، ولو أنه كان زاهداً لانصرف عن حيازة مايملك معاصروه من زخرف وبريق ، وهو قد انتهب ثروتهم فاعتز بها واستطال .

كان المعرى سياسيا فى حياته الأدبية ، والسياسى لايكون صحيحا

سلبيا إلانسان استراح إلى أوهام الناس فتملق أهواءهم بلا تهيب ولا استحياء ، وكذلك صنع المعرى فتكلف الغريب من الأخيلة والألفاظ والتعابير ، لأن الغريب كان فى ذلك العهد رائج السوق فى مصر والشام والعراق .

ولو كان الرجل زاهداً فى المجد الأدبى لظهرت الحكمة على لسانه سمحة سهلة لا يشوبها تكلف ولا افتعال . ولكن القارئ لن يسكت ، فقد يكون الأم منى ، فيسأل : وأين أنت من الزاهد الذى حرم على نفسه لحم الحيوان ؟

إن قال ذلك فإنى سأقنعه بأيسر جهد ، فقد اتفق لى أن أعيش نباتيا فى باريس زمنا غير قليل ، وما كنت مخلصا كل الإخلاص فى إيثار الحياة النباتية ، وإنما أردت أن أعرف سر المذهب النباتى لأكتب عنه بحثا أو بحثين ، وحالى فى هذا أقرب إلى النزاهة من حال أبى العلاء ، فقد حرم على نفسه لحم الحيوان ليوهم الغافلين أنه تفرد بالرحمة والشفقة والعطف ، وما كان فى حقيقة أمره إلا آكل لحوم ، وستعرفون صدق هذا الحكم بعد لحظة أو لحظتين .

هل يذكر القارئ ما وقع لأبى العلاء يوم مرض ؟

مرض أبو العلاء — عفا الله عنه وعنى — فنصحه الطبيب بالحمية وحين اطمأن الطبيب إلى نجاته من المرض وصف له فروجا ، والفروج فرخ الدجاج ، ودارت يد أبى العلاء حول جسم الفروج فى ترفق

مصطنع ، ثم هتف : استضعفوك فوصفوك ، هلا وصفوا شبل الأسد ؟ !

الله أكبر ! ذلك هو منطق شيخنا أبي العلاء .

فهل كان يظن هذا الشيخ أن الطبيب يستطيع أن يصف له شبل الأسد ؟ إن نثيرة واحدة من شبل الأسد كانت تكفى لنقل أبي العلاء إلى حظيرة الأموات ، ولكن الرجل استطاب الضحك على المغفلين من أبناء ذلك الزمان .

هل زهد أبو العلاء فى أكل اللحم ؟ هذا تمويه وتضليل . كان الرجل يتحرج من لحم الطير والحيوان ، ولكنه كان مولعا بأكل اللحم المحرم ، لحم الانسان ، فما ترك فئة ولا جماعة إلا انتاش لحمها بأنياب حداد .

لقد انسحب المعرى من المجتمع ، وما كان ذلك بابا من الزهد ، وإنما كان فرار المتاضل الذى تعب من النضال . وماذا صنع المعرى حين انسحب من المجتمع ؟ أترونه نظر اليه نظر الرفق والعطف ، وذلك واجب الفيلسوف ؟

ماصنع شيئا من ذلك ، وإنما قضى دهره فى أكل لحوم المجتمع ، ولوكان قلبه أحس النور لعرف أن المجتمع قد يفسد من حيث لايريد ، لو كان قلبه أحس النور لعرف أن المجتمع غير مسئول عما يعانى من أوهام وأضاليل ، فتلك مواريث القرون الطوال ، لوكان

المعرى على شىء من الصفاء لأدرك أن المجرم قد يجرم وهو غير مسئول .

ولو كنت أستبيح لحم المعرى كما استباح لحوم الناس لقلت إن ثورته على المجتمع كانت ضربا من الانتقام الأثيم ، فالرجل كان يعرف أن أهل زمانه يتهمونه بالمروق من الدين ، فشاء له هواه أن يسجل مخازيهم ومآثمهم وأن يفضحهم فى العالمين .

قد يقول القارئ مرة ثانية : وما محصول هذا الكلام ؟

وأجيب بأن هذا النزق هو دليل الحيوية ، فالمعرى كان يناضل نضال الأحياء .

وما أعيب عليه غير التناقض فى فهم الرحمة : فهو كان يعطف على جميع المخلوقات إلا الانسان ، ولو أنه دخل فى معركة مع الطير أو الحيوان لنظم فى ثلبها مجموعة أعنف من اللزوميات

كانت نظرات أبى العلاء إلى المجتمع نظرات عوام لا خواص ، وأنا أرتاب كل الارتياب فى أن يكون هذا الرجل حاول التوفيق بين سيطرة المقادير وضعف الناس ، وأكاد أجزم بأنه لم يدرك خطر العسف ، عسف الحاكم الذى يبيح فتح الحانات ثم يعاقب الناس على الشراب .

أما آراؤه فى الزهد والزهاد فهى أضاحيك ، وهى تشهد بأنه لم يعرف الزهد ، لأنه كان فى سريرة نفسه يؤمن بأن الناس لا يزهدون

إلا مخادعين أو مرائين ، ولعله لم يزهد إلا خداعا ، أو رياء . بل لعله جهل كيف لطف الله به حين حجب بصره عن أسباب الشهوات فلو أن الله كان حفظ عليه نور العيون لعرف أن الفضائل لا تشق ولا تصعب إلا على من يقارعون فتن الوجود . لو أن أبا العلاء كان مبصراً لرحم الناس . لو أن أبا العلاء كان مبصراً لعرف صدق الحكمة التي تقول « القابض على دينه كالقابض على الجمر » . لو أن أبا العلاء كان مبصراً لعرف أن الرجل لا يستطيع البعد عن مواطن الشبهات إلا حين تكون عزيمته أرزن من الجبال .

لو أن أبا العلاء كان مبصراً لعرف أن الناس لا ينخدعون لمظاهر الفتون لاهين أو لاعبين .

من أنت والإنسانية يا أبا العلاء ؟ من أنت والإنسانية حتى تفضحها بذلك الكتاب الذي اسمه اللزوميات ؟

أيها الرجل العظيم ! إني أرثي لك وأعطف عليك ، فقد حرمتك الأقدار من نعمة الجهاد في سبيل الفضيلة ، حرمتك الأقدار من أسباب الشهوات فلم تكتب لك صفحة واحدة في كتاب الجهاد .

وكيف يحتاج إلى جهاد النفس من يحبس نفسه في بيته ولا يأكل غير البقول ؟

كيف يحتاج إلى جهاد النفس من يقضي الدهر ولا تقع عينه على وجه جميل ؟

كيف يحتاج إلى جهاد النفس من لا تذوق روحه صهباء الوجود ؟

أغلقت أبواب الجهاد الأكبر — جهاد النفس — فى وجه أبى العلاء منذ أصبح رهين المحبسين ومنذ اكتفى بالطعام الذى لا يوقظ شهوات الحواس . ولكن بقى أمامه باب واحد من أبواب الجهاد : هو نزاهة الأذن ونزاهة اللسان ، فماذا صنع ؟

لقد أصبح أبو العلاء فى ذمة التاريخ ، وما يضره أن نتجنى عليه ، ولو كنت أعتقد أنه يتأذى لحبست عنه قلمى ، وفى حدود هذا التحفظ أقول إن الرجل أقام أذنيه مقام عينيه فعرف من صور المجتمع كل شىء ، وكان له فيما أفترض أصحاب ينقلون إليه سوءات الناس فيمضى فى ثلبهم وذمهم وتجريحهم بلا ترفق ، وكذلك حرم من روح التصوف فلم يعرف معنى العطف على مصائب الناس .

* * *

قلت إن أبا العلاء كان ينتقم من المجتمع . وأقول مرة ثانية إن ذلك دليل الحيوية . فمن الذى يحرم على هذا الرجل أن ينتقم من أهل عصره وقد آذوه أشنع إيذاء ؟

ومن الذى يملك من الصبر ما يكف به لسانه عن عورات الناس فى بعض الأحيان ؟

إن أبا العلاء هجم على المنافقين ، والقرآن استباح الهجوم على

المنافقين ، وما يمكن أن نعيب على أبي العلاء ما استباحه القرآن .

إن أبا العلاء هجم على رجال الدين ، ولا غرابة فى ذلك ، فرجال الدين أنفسهم يهجم بعضهم على بعض . إن أبا العلاء أعلن يأسه من الإنسانية ، فهل استطاعت الإنسانية أن تحمى أهل الصدق والوفاء ؟ إن أبا العلاء سخر من تعدد الديانات والمذاهب ، فهل استطاع المصلحون أن يمحوا أسباب الخلاف بين الديانات والمذاهب ؟

إن أبا العلاء جزم بأن بنى آدم :

ما فيهمُ برٌّ ولا صالح * إلا إلى نفعه يجلبُ

فهل استطاع بنو آدم أن يقيموا الدليل على خطأ هذا الظن الأثيم ؟

إن أبا العلاء حكم بأن المرأة إذا شربت الكأس فقد تعرت ، فهل اكتسى من بعده النساء ؟ إن أبا العلاء حدثنا بأن ناسا ينهون عن الخمر فى الصباح ويشربونها فى المساء ، فهل انقرض هذا النوع من النفاق البغيض ؟

أسرف أبو العلاء فى تجريح الإنسانية ، وقد أنصف ، فهذه الإنسانية الباغية تحتاج إلى من يفضح بغيها من حين إلى حين . ومن هم بنو آدم حتى يعطف عليهم أبو العلاء ؟

هل عاش فيهم مصلح إلا بغصة أليمة لا يزحزحها فى حلقه غير الموت ؟

وهل كانت تواريخ الأنبياء إلا سلسلة من الرزايا والنكبات ؟

وما الذى كان يصنع ابو العلاء والدنيا من حوله تضج بالظلم والعسف والزور والبهتان ؟

إن أشعار أبى العلاء سجل صحيح لأوهام الإنسانية ، فلتكذبه الإنسانية الباغية إن استطاعت .

لم يعرف الناس أن أبا العلاء رجل ضرير ، وأن من كان فى مثل حاله خليق بالشفقة والعطف ، وهم تعقبوه بقالة السوء من أرض إلى أرض ، ولتكن قالته فيهم وصمة باقية على الزمان .

ولكن ماهذا الذى صنعت بالناس يا أبا العلاء ؟ إن عماك أخف من عماهم ، هم جميعاً مساكين صحت فيهم كلمة من يقول :

ألقاه فى اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

أنت عبت النفاق على رجال الدين ، فكيف غاب عنك أن رجال الدين لم يعش بينهم رجل صريح ؟ أنت عبت الظلم على الحكام ، فكيف غاب عنك أن الحاكم العادل جزاؤه الخسران ؟

أنت أنكرت تعدد الديانات والمذاهب ، فكيف غاب عنك أن لله حكمة فى هذا التعدد ؟

أنت رجوت أن يكون الناس حكماء ؛ وما استطعت أن تكون حكيما

أنت رجوت أن يضبط الناس ألسنتهم ثم عجزت عن ضبط لسانك .

أنت عشت في قرية صغيرة ولم يسلم عقلك من الفتون؛ فكيف رجوت السلامة لمن عاشوا في كبريات المدائن ؛ وصارعوا فواتك الأهواء؟

* * *

أما بعد فأنا أشهد أن المعري كان رجلا عظيما ، بدليل أنه عاش نحو ألف سنة على ألسنة الناس في المشرقين والمغربين ، ولو كان حقيراً لمات يوم مات !

والمعري له أخطاء لا تحتملها الملائكة ولا الشياطين . وله عندي عذر مقبول . فقد كان على عظمته شخصاً من بني آدم ، آدم المسكين الذي أغوته امرأة حمقاء فنزل إلى الأرض بعد أن كان يسكن فراديس الجنان .

عفا الله عنك يا أبا العلاء وعفا عني !

في ضيافة القرآن[1]

سيداتي ، سادتي

أرجو أن تلقوني بقلوبكم قبل أسماعكم ، إن كان فيكم من يندم على ذنوبه كما أندم على ذنوبي ، أرجو أن نقضي لحظات في ضيافة القرآن فهذه الأيام هي أصلح الأوقات للتشرف بضيافة القرآن ، وإنما كانت كذلك لأنّ الخطايا أثقلت كواهلنا ، والمريض هو أعرف الناس بفضل الطبيب ، وقد آن أن نرجع إلى القرآن كلما دهمتنا ظلمات الذنوب ، فهو يهدينا برفق وعطف ، ويوجهنا إلى الخير بلطف وحنان .

وأنا أرجع إلى القرآن من حين إلى حين ، أرجع إليه حين تعجز المذاهب الفلسفية عن هداية قلبي ، أرجع إليه حين لا ينجيني الغرور السخيف الذي يوهمني بأني وصلت إلى أصول الحقائق حين طوّفت بالمذاهب الفلسفية عند القدماء والمحدثين ، أرجع إليه حين أكون كالمريض العاقل الذي لا يخفى علته على الطبيب .

واسمحوا لي أن أتهم نفسي علانية فأنا أتهيب إعلان صداقتي للقرآن المجيد لئلا يشك الناس في علمي ، فمن أوهام هذا العصر

---

(1) محاضرة ألقيت في محطة الإذاعة العراقية في ليلة المولد النبوي .

أن يكون العلم عند الملحدين لا عند المؤمنين ، ولن أجرؤ على إعلان إيمانى إلا يوم يصح عندى أنّ منافع الدنيا وإن جلت وعظمت لاتساوى التشرف بالخضوع لأحكام القرآن .

أنا أيها السادة صريع العصر الحديث ، ويعزينى فى بلواى أن لى زملاء يعدّون بالمئات أو بالألوف ، فأكثر من تعلموا فى أوربا يؤذيهم أن يقال إنهم مؤمنون ، لأنّ أوربا طافت بها موجة عنيفة أشاعت فى الناس اليقين بأنّ العلم والدين لايلتقيان .

وقد اكتوينا فى مصر بهذه البلية ، وما أعرف بالضبط كيف حالكم فى العراق .

* * *

ولكن أفى الحق أن القرآن يملك هدايتنا إلى أصول الخير فى العصر الحديث ؟

أفى الحق أن الكتاب الذى مضت عليه أجيال وأجيال يعطينا من الهداية ما تعجز عنه الفلسفة العميقة التى تدرس فى الجامعات الفرنسية والألمانية ؟

ألا يكون كلامى هذا تعصبا مصطنعاً أجتلب به العطف من جماهير المسلمين ؟

ألا يمكن أن أكون مرائيا يخادع الناس ؟

أنا لا أكذب عليكم ، أيها السادة ، فعصركم لا يشقى فيه غير

الصادقين ، وإنما قضت المقادير أن تشرفنى محطة الإذاعة بالدعوة لإلقاء كلمة فى الليلة التاريخية التى ولد فى مثلها الرسول ، وقد قبلت بعد تردد وتهيب ، لأن الكلام فى هذه الليلة يوجب الصدق ، والصدق صعب على نفسى ، لأنى أعيش — وا أسفاه — فى عصر الأكاذيب .

أيها السادة

نحن فى ضيافة القرآن ، فما الذى نجده على مائدة القرآن ؟

نجد الأعاجيب من أطايب العقل والوجدان .

وإلا فكيف اتفق أن يثنى القرآن على جميع الأنبياء والمرسلين ، ولكن أىّ ثناء ؟

إن النصارى لم يمجدوا المسيح بمثل ما مجده القرآن .

واليهود لم يثنوا على موسى بمثل الذى أثنى عليه القرآن .

والشرائع القديمة لم تحفظ ذكرياتها الطيبات إلا بفضل القرآن .

فكيف صح للرجل الذى اسمه محمد أن يزكى منافسيه من الأنبياء والمرسلين ؟

كيف صح لهذا الرجل أن ينسى أول حقيقة فى حياة المجتمع ، وهى السخرية من جميع المبادئ ليتم له التفرد بالعظمة النبوية ؟

هنا تظهر بارقة من النور تشهد بأن هذا الرجل لم يكن طالب صيد ، وإنما كان نبيا .

ارجعوا إلى القرآن أيها السادة تجدوه لا يفرّق بين أحد من الأنبياء .

وعندئذ تؤمنون بأن محمداً لم يبن مجده على أنقاض الشرائع ، ولو كان كاذباً لادعى لنفسه كل شيء ، وزيف ماجاء به الأنبياء والمرسلون .

ارجعوا إلى التاريخ ، أيها السادة ، وانظروا كيف صنع من سموا أنفسهم مصلحين .

اقرأوا تواريخ المسيطرين وانظروا كيف كانوا يمحون آثار من سبقوهم بلا ترفق .

استنطقوا الآثار فى الشرق والغرب ، وانظروا كيف كان الملوك يتنكرون فضل آبائهم .

ارجعوا إلى ماضيكم القريب مع إخوانكم وأصدقائكم تجدوهم سلقوكم بألسنة حداد .

انظروا كيف ينسى الأخ فضل أخيه وكيف يعق الابن أباه .

انظروا وتأملوا ثم تذكروا كيف صح للرجل الذى اسمه محمد أن يقيم كتابه على تمجيد من سبقوه إلى الإيمان .

كم كنت أحب أن أسخر من القرآن ليتحدث الناس باسمى فى كل مكان !

لقد ضاعت الفرصة الطنانة الرنانة ، فرصة الزندقة والإلحاد ، لأنى مع الأسف الموجع لم أستطع النجاة من سحر القرآن .

كنت أحب أن أتمرد على القرآن ولكنى عجزت ، ومن واجبى نحو نفسى أن أبين كيف عجزت . فاسمعوا واعجبوا :

هناك آية لايصدق أحد أنها فى القرآن ، هناك آية أخشى أن ترفض من أجلها هذه المحاضرة ، وسأذهب إلى محطة الإذاعة وفى يدى المصحف ، حتى لا يظن المشرفون على الإذاعة أنى كذبت أو افتريت .

هناك آية غريبة ، وما أكثر ما فى القرآن من غرائب .

هناك آية عجيبة ، وما أكثر مافى القرآن من عجائب .

هناك آية تقول : «ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها» أتذكرون هذه الآية ؟ لقد رأيتها فى المصحف ، وماتخوننى عيناى .

فما معنى هذا الكلام ؟

تذكروا أن الرسول يروى عن ربه تباركت أسماؤه ، وهنا وجه الغرابة والعجب ، وهل رأيتم أغرب وأعجب من أن يشهد الله على نفسه بأنه يراعى أحوال المجتمع فينقله فى التشريع من وضع إلى وضع؟

هل تصدقون بأن الله وهو مالك الملك يضع نفسه من الناس موضع الأستاذ من التلاميذ ؟

هل تصدقون بأن الله يشهد على نفسه بأنه يتدرج فى هداية

المخلوقات ؟

عز شأن الله ، فهو بكل شيء عليم ، ولو شاء لخلق للناس شريعة أبدية لا ينالها تغيير ولا تعديل ، ولكنه أراد أن يروضنا على أدب النفس ، أراد أن يعلمنا التواضع ، فهل تعلمنا التواضع ؟

إن الله ينسخ آياته أو ينسيها رفقا بالمجتمع .

أما نحن فنحرص على آرائنا وأفكارنا ونقضى العمر فى الدفاع عما نملك من أباطيل .

أين الحاكم أو الفيلسوف الذى يستطيع أن يعلن أنه كان فى بعض آرائه من المخطئين ؟

إن الرسول يخبرنا أن ربه كان يراعى أحوال المجتمع .

فمن هو المصلح الذى يترفق بالمجتمع ؟ عز شأن الله ، فما أراد إلا أن نتأدب ، فهل تأدبنا ؟

إن الانسانية ترتطم كل لحظة فى أضاليل الفلاسفة والمفكرين ، لأن أكثرهم يموت وهو مصرّ على الضلال .

* * *

نحن على مائدة القرآن ، فماذا نجد ؟

نجده يقول : « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ، ثم إلى ربكم ترجعون » .

فنفهم قيمة اليقظة فى السريرة الانسانية .

ونجده يقول : «إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار ، والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم»

فنفهم أن نعيم الحواس متاع خسيس ، وأن النعيم الأعظم هو النعيم فى عالم المعانى .

ونجده يقول «هاأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله ، فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه ، والله الغنى وأنتم الفقراء» .

فندرك أن الانفاق فى سبيل الخير من أشرف وسائل الجهاد .

ونجده يقول «ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين»

فنتذكر المآسى الموجعات التى نعانى مكارهها فى كل صباح وفى كل مساء ، فحياتنا مكدرة مرنقة بسبب الاستماع للوشايات والنمائم ، لأننا نسمع فى أصحابنا ومعارفنا وأصدقائنا كل قيـــل ، ونرتب المقدمات والنتائج على مانسمع ، وقلما نتذكر أن من واجبنا ألاّ نصدق مانسمع إلا بعد درس وتثبت وتبين وتحقيق ، قلما نتذكر أن الحكم على الغائب لا يخلو من اعتساف . وسكوتنا عن مراجعة الواشـين والنمامين ، وتفريطنا فى تقديمهم إلى ساحة الجزاء ، كل ذلك غرس فيهم الطمأنينة إلى السـلامة من عواقب ما يصنعون . فالنمـام يضع

بذور الفتنة بين الناس وهو مطمئن لأنه يعرف أننا فى الأغلب نصدق كل مانسمع ، ولا نفكر فى معاقبة المفترين .

هذه الآية عجيبة ، ولكن تاريخها أعجب فقد نزلت فى أعقاب غلطة كاد يقع فيها الرسول ، ثم نجاه الله وحماه .

* * *

ومن عجائب القرآن أنه يجعل النبى صلى الله عليه وسلم إنسانا يخطئ ويصيب ، وهو يوصى النبى بتأكيد هذا المعنى فى أنفس الناس فيقول :

« قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً »

وفى أى عصر يقع هذا الكلام ؟ فى عصر كان أهله فى كل أرض يرون النبوّة ضربا من الألوهية ، ويستبعدون أن يكون الرسل ناسا كسائر الناس ، فلو كان محمد من الكاذبين لأوهم الجهال أن فيه نفحة ربانية .

ولكن هذا مستحيل على من يروى عن ربه هذا الحوار الطريف :

« وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم : أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ، ما يكون لى أن أقول

ماليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم مافى نفسى ولا أعلم
مافى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب . ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به
أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما
توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد : إن
تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم »

وهذا الحوار غريب أيضا ، فهو ينطق عيسى عليه السلام بما
يليق بالأنبياء ، ثم يصوره بصورة المشفق على أتباعه من عواقب
الزيغ فيسترحم لهم ويستعطف ، وذلك ترفق نبيل .

والعذوبة فى مثل هذا الحوار تشهد بأن أسلافنا كانوا على حق
حين جعلوا جميع العلوم وسائل لفهم القرآن فأنا أكاد أجزم بأن
القرآن لا يفهم حق الفهم إلا بعد التعمق فى العلوم الأدبية والعقلية
وأكاد أجزم بأن النظر فى المصحف يعصم المرء من عواصف
الشهوات ويهديه سواء السبيل . ومن كان فى ريب من ذلك فليجرب
مرة أو مرتين فقد ينقله المصحف من حال إلى حال ، وقد يكون له
من الخير نصيب فينقل من سجل الأشقياء إلى سجل السعداء .

* * *

أيها السادة

هل فيكم من تشرف بالنظر فى سورة الحجرات فرأى فيها
هذه الآية :

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » .

هل فيكم من فطن إلى أن هـذه الآية تنطبق على أحوال هـذا العصر كل الانطباق ؟ فنحن اليوم فى الأقطار الإسلامية منقسمون إلى أحزاب ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، وكل جماعة تظن أن الخير وقف عليها ، وأن من خرج على حدودها فهو من الضالين .

وهـذا الظن السيء هو الذى عاد على قلوبنا بالخراب ، فقلوبنا أيها السادة أصبحت كأوكار الحيات والثعابين ، أصبحت قلوبنا موبوءة وكأنها البقعة الخربة التى تعيش فيها الهوامّ والجراثيم ، ولو كنا نعقل لتأدبنا بأدب القرآن وعرفنا أن قلوبنا فى حاجة إلى مصابيح من حسن الظن بالله وحسن الظن بالناس .

واسمحوا لى مرة ثانية أو ثالثة أو رابعة بأن أتهم نفسى فأنا الشقى وأنتم السعداء ، اسمحوا لى أن أعترف بأنى ضيعت على نفسى خيراً كثيراً حين فاتنى أن أتأدب بأدب القرآن ، فقـد حملنى الغرور على الظن بأن الخير لم يعرف قلباً غير قلبى ، ثم تبينت بعد فوات الوقت أن الله لم يخلق العالم عبثاً ، وأنه لم يمنح النور والهواء والحياة إلا لمن يراهم أهلا لـكل أولئك الطيبات .

وأبشركم بأنى بدأت أهتدى ، وأصبحت أنظر إلى من يسيئون الظن بالناس نظر العطف ، فهؤلاء يعانون من أمراض القلوب بعض ما كنت أعانى ، هؤلاء أطفال فى عالم الأخلاق ، فلننظرهم قليلا فسوف تنضجهم الأيام والليالى ، هؤلاء مساكين يتوهمون أن الدنيا يقوم بأعبائها رجل واحد ، أو حزب واحد ، فلننظرهم قليلا فسوف تعلمهم الحوادث أن العالم لا يعيش إلا إذا اجتمع فيه الفاضل والمفضول ، والراجح والمرجوح ، والرئيس والمرءوس .

وهذا الكلام الذى أقول به هو فى جوهره أصغر من الحكمة القرآنية ، فالقرآن يوصينا بالحذر المطلق ، وهو لا يسمح لفرد ولا قوم أن يظنوا بأنهم أفضل الناس على الإطلاق ، ويقول « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهنّ »

وقد علمتنى الحوادث بأن الثقة لاتتم بين رجلين إلا إذا اعتقد كل واحد منهما بأنه أقل من أخيه فى أدب النفس ، وعلمتنى الحوادث وعلمت غيرى أن الرجل يصبح أجهل الناس إذا اطمأن إلى أنه صار من العلماء ، والقرآن يوصينا بأن نحترس فلا نزعم التفرد بالكمال ، فإن هذا الزعم باب إلى الخراب ، خراب العقول والقلوب .

وأحب أن أذكر نفسى وأذكركم إن شئتم بهذه الوصية :

« ولا تلمزوا أنفسكم، ولا تنابزوا بالألقاب »

واللمز هو تجريح الناس والغض من أقدارهم ، وهو من أخلاق من لا يتقون الله ، والتنابز بالألقاب هو أن يخاطب الناس بعضهم بعضا بما لا يحبون .

فأين من هداه الله إلى مراعاة هذه الآداب ؟

أين من يحدثه القلب بأن الاهتمام بإظهار محاسن الناس أفضل من الهيام بكشف مساويهم ؟

أين من يحدثه القلب بأن التلطف فى الخطاب أدب جميل .

ولكم أن تعجبوا أيها السادة حين ترون القرآن يعقب فيقول :

« بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان »

فهو يرى التفريط فى هذه الآداب خروجا على الإيمان ، وهذا حق، فما كان الإيمان كلمة تلوكها الألسنة وتمضغها بلا إحساس ، وإنما الإيمان عقيدة وأعمال .

جعلنا الله بفضله من المؤمنين .

* * *

أيها السادة

إن مائدة القرآن متعددة الألوان ، وفيها أطايب تنفع جميع الأمعاء ، فللفاجر حديث ، وللمرتاب حديث ، وللمؤمن حديث ،

وللجاحد حديث ، ولكل إنسان مكان على مائدة القرآن .

ولكن يبدو لى أن إيماننا لا خوف عليه ، فأنا مطمئن إلى أن المسلمين هم فى الأغلب مؤمنون .

غير أنى وقد اختبرت نفسى أشعر بأننا فى حاجة شديدة إلى النظر فى الآية الآتية :

« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ، إن بعض الظن إثم . ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ، واتقوا الله ، إن الله تواب رحيم » .

فهذه آية يجب أن ترقم على كل مكان لأراها ويراها أمثالى من المساكين ، فكل إنسان فى هذه الأرض يحب أن يكون له فى الناس رأى ، ويزعجنى أن أقرر أنه يؤذينا أن تحسن آراؤنا فى الناس ، وقد جربت ذلك ، ولكم أن تجربوه ، فما ذكرت إنسانا بالخير فى حديث أو مقال أو كتاب إلا كان ذلك كافيا لقيام ثورة عنيفة لتصحيح ما أخطأت فيه ، ولا ذكرت إنسانا بالشر فى حديث أو مقال أو كتاب إلا رأيت من يثنى على أدبى ويصفنى بالجرأة والشجاعة والعبقرية !

فما سر ذلك ؟ لذلك تأويل ، ولكنه يفضح بنى آدم ، وتأويل ذلك أن الناس يتوهمون أن حسن السيرة والسمعة إذا تم لرجل

كان فرصة لانتهاب الخير من أيديهم ، وهم مخطئون أبشع الخطأ ، فالله عز شأنه خالق من الخيرات والثمرات أضعاف ماخلق من الإنسان والطير والحيوان ، ولاتزال فى الأرض والأشجار والأنهار والبحار خيرات منسية تنتظر من يكشف عنها الغطاء .

والشجرة لاتثمر مرة واحدة ، وإنما تؤتى أكلها فى كل حين .

والأنهار لاتفيض مرة واحدة ، وإنما تحفظ أدبها مع بارئها فتفيض بمواعيد على مر السنين والأجيال .

والأرض لاتجدب إلا إن غفلنا عنها أو زهدنا فيها .

والفكر لاينضب إلا إن أغفلناه .

فما الذى يوجب هذا التطاحن البغيض يابنى آدم ؟

ما الذى يسوؤكم فى أن تحسن سمعة رفيق لكم فيجاهد فى دنياه وهو محمود الخصال ؟

وقد علمتنى التجارب وستعلمكم أن الإنسان أضعف من أن يقطع رزق أخيه الإنسان ، فهناك قوة ربانية تبيح الجهاد فى سبيل الرزق الحلال ، وهذه القوة لاتنتظر آراءكم فى التجريح والاغتياب ، فانطحوا الصخر إن شئتم ، فلن يسمع لكم فى مصاير الناس قيل ولا قال ، وإنما الأمر كله لله .

* * *

أيها السادة

كنت أحب أن أطيل الطواف حول الألوان الشهية التى تزخر بها مائدة القرآن ، ولـكن الوقت الذى حددته محطة الإذاعة يضيق عن ذلك ، فاسمحوا لى أن أشير إلى هـذه الآية فهى تنفعنى وتنفع من يحمل على ظهره أوزاراً مثل أوزارى ، وهذه الآية تقول :

«ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين»

فإن رأيتم خيرا من إنسان فنوّهوا به وتحدثوا عنه فى السر والعلانية ، واعلموا أن هذا يرضى الله ، وتذكروا دائمـا أنكم لستم أغير من الله ، تذكروا أن أخطر حية فى الأرض هى الحية التى تسمى الـكوبرا وهى حية شريرة جـدا ، وقد هربت إحدى هـذه الحيات مرة من متحف قصر العينى بالقاهرة ، وشاع ذلك ، فباتت محلة المنيرة بالقاهرة فى جزع وارتياع .

فهل تعرفون كيف كشف العلم عن حقيقة هـذه الحية الشريرة اللئيمة ؟

لقد ثبت علميا أن سم هذه الحية هو الدواء الشافى لمرض السرطان وقد يأتى زمان نربى فيه هذه الحية الشريرة كما نربى كرائم الخيل .

أيها السادة

تذكروا ، ثم تذكروا ، تذكروا دائمـا أنـكم لستم أغير من الله ، تذكروا أنـكم لم تروا من أنهار الحقائق غـير أوشال ، تذكروا أنه

القرآن لم يكن أبطولة من الأباطيل ، وإنما كانت آياته من غرائب الحقائق ، وتذكروا أن القرآن هو الذى أعز العرب فجعل لهم إخوانا فى المشرقين والمغربين ، ولولا القرآن لظل العرب فى عبودية كما كانوا فى أكثر عهود التاريخ .

أيها السادة

فى مثل هذه الليلة ، أو فى قريب من مثل هذه الليلة ، ولد الرسول . فلنجعل هذه الليلة من ليالى الصدق ، عساها تكون كفارة عما عانينا فى طول العام من أكاذيب .

والصدق يوجب أن نذكر أن الإسلام ليس دين العرب وحدهم وإنما هو دين الإنسانية جمعاء ، فإلى سائر المسلمين فى بقاع الأرض وإلى من انتفعوا بهدى الإسلام من قرب أو من بعد ، وإلى كل إنسان سمع باسم القرآن ، إلى جميع من خلق الله نوجه التحية الخالصة راجين أن نتعرف اليهم أو يتعرفوا إلينا ، فى ظلال الراية الرحيمة ، راية الرسول الذى بعثه الله رحمة للعالمين .

كيف رأيت الرصافى

كانت شواغلى فى دنياى أضاعت علىّ كثيراً من الفرص النوادر ، فأنا لم أر إسماعيل صبرى شاعر الحب والوجدان ، وكنت أستطيع أن أراه ولكنى ضيعت الفرصة ، وأنا لم أر الموسيقار سيد درويش وكنت أستطيع أن أراه ولكنى ضيعت الفرصة ، والشاعر جميل الزهاوى زار مصر ، وكنت أستطيع أن أراه ولكنى ضيعت الفرصة ، وأنا لم أر الكاتب الشاعر محمد السباعى مع شوقه الشديد إلى أن يرانى ، ولما كثر سؤاله عنى ذهبت إلى جريدة البلاغ لآخذ عنوانه فنعوه إلىّ فى ذلك اليوم ، وكانت فجيعة طار لها صوابى .

ولما قدمت بغداد كنت أنتظر أن يبدأ الرصافى بزيارتى ، ولكنه لم يفعل ، ثم علمت أنه لا يقيم فى بغداد ، وإنما يقيم فى الفلوجة ، وهى قرية على شاطئ الفرات .

وتحدث المتحدثون بأنه عليل فرأيت من الذوق أن أبدأ أنا بالسؤال عنه ، وتفضل الصديق الكريم السيد ثابت عبد النور فصحبنى إلى الفلوجة مع رفيقين كريمين ، ورأينا أن تكون الزيارة فجائية حتى لا يتكلف الرصافى نحر الذبائح على الطريقة العربية .

دخلنا على الشاعر وهو شيخ جليل يقارب الخامسة والستين ،

وكان فى أعقاب علة أقام من أجلها أشهرا يستشفى فى لبنان ، فالتفت إلى السيد ثابت عبد النور وقال : كيف جئتم على غير ميعاد؟ أماتعرف أنه كان يجب أن نحتفل بقدوم الدكتور زكى مبارك إلى الفلوجة ؟ فقال السيد ثابت : نحن ماجئنا لزيارتك ، وإنما جئنا لمشاهدة مطار «سن الذبان» ورأينا الفرصة سانحة للتسليم عليك .

وكانت حيلة طريفة هربنا بها من كرم الرصافى .

وبدأ الشاعر فتحدث عن المازنى ، المازنى العظيم، فأنشدنا أبياتا قالها فيه وهو يشبّه أدبه بشراب التوت ، وما أدرى ماشراب التوت ، ولكن هكذا قال .

ثم أمر الشاعر فتاه بأن يحضر كتابه عن النبى محمد عليه الصلاة والسلام وألح الشاعر فى أن ألقى نظرة على ذلك الكتاب ، وهو مخطوط فى عشرة كراريس ، وكنت قضيت ساعة فى هدوء ، فلما وقع بصرى على بعض فقرات الكتاب ثرت ثورة عنيفة ، وانطلقت أجادله بلا رفق ولا تلطف .

وقابل الشاعر ثورتى بأدب رائع دلنى على أنه من أقطاب العقل .

ثم قال : انتظر فسنلتقى بعد عشرة أيام فى بغداد

وكان معنى ذلك أنه سيفارق الفلوجة يوم ينتخب عضواً فى مجلس النواب .

***

وبعد أيام أقام لى أفاضل الأدباء فى بغداد حفلة تكريم ، وفى طريقى إلى مكان الحفلة اشتريت جريدة الاستقلال فرأيت فى صدرها قصيدة رائعة أراد بها الرصافى أن يسبق أهل بغداد إلى تكريمى ، وكذلك يكون الذوق فى إكرام الضيف .

ولم يقف الرجل عند هـذا الحد ، بل تجشم الانتقال إلى كلية الحقوق ليسمع إحدى محاضراتى ، ثم جاء للسؤال عنى فى منزلى مرتين ، وعرض علىّ أن أقرأ كتابه عن الرسول وأدوّن ما أشاء من الملاحظات ، فاعتذرت بضيق الوقت ، وبالغ فى اللطف فدعانى إلى التشرف بزيارته كلما شئت ، ولكن شواغلى حرمتنى من لطفه فلم أزره فى منزله غير ثلاث مرات ، ثم يئس من وفائى فلم يعد يسأل عنى .

✲ ✲ ✲

فمن هو الرصافى ؟

هو مجموعة طريفة من العقل والأدب والذوق والذكاء .

هو صورة صادقة للروح البغدادى ، الروح المرح الطروب .

هو عنوان الرجولة الصريحة التى تمقت الكذب والرياء .

هو بالتأكيد من أثمن ذخائر العراق .

والعراقيون يعزّون شاعرهم كل الاعزاز ، ولما قدم لسماع محاضرتى بكلية الحقوق قابله الجمهور بتصفيق الإعجاب ، ويكفى أن

يكون سعادة الأستاذ طه الراوى من رواة شعر الرصافى ، وطه الراوى إمام من أئمة اللغة العربية ، أعزه الله ورعاه .

وللرصافى ديوان يقع فى أكثر من خمسمائة صفحة من القطع الكبير ، ولكن أى ديوان ؟ هو جذوات من الفكر والمنطق والوجدان ، وسيعيش هذا الديوان على التاريخ .

* * *

والرصافى متبرم بالعراق ، وهذا كل ماعنده من ضلال ، وقد أملانى هذين البيتين :

قد كان لى وطن أبكى لنكبته

والبوم لا وطن عندى ولا سكن

ولا أرى فى بلاد كنت أسكنها

إلا حثالة ناس قاءها الزمن

وقد اتفق له أن يقول منذ أعوام طوال :

عتبت على بغداد عتب مودّع أمضته فيها الحادثات قراعا

أضاعتنى الأيام فيها ولو درت لعز عليها أن أكون مضاعا

لقد أرضعتنى كل خسف وإننى لأشكرها أن لم تتم رضاعا

وما أنا بالجانى عليها وإنما نهضت خصاما دونها ودفاعا

وأعملت أقلامى بها عربية فلم تبد إصغاء لها وسماعا

وأن يقول :

ويل لبغداد مما سوف تذكره عنى وعنها الليالى فى الدواوين
لقدسقيت بفيض الدمع أربعها على جوانب واد ليس يسقينى
أفى المروءة أن يعتز جاهلها وأن أكون بها فى قبضة الهون
وأن يعيش بها الطرطور ذا شمم
وأن أسام بعيشى جدع عرنينى *

وأن يقول :

إلى كم أستغيث فلا مغيث وأدعو من أراه فلا يجيب
أقمت ببلدة ملئت حقوداً علىّ فكل ما فيها مريب
أمر فتنظر الأبصار شزراً إلىّ كأنما قد مر ذيب
وكم من أوجه تبدى ابتساما وفى طىّ ابتسامتها قطوب
سكنت الخان فى بلدى كأنى أخو سفر تقاذفه الدروب
وعشت معيشة الغرباء فيه لأنى اليوم فى وطنى غريب

والرصافى شاعر يسخر من أوهام الناس وهو الذى يقول :

لقد خامرتنى فى الزمان وأهله شكوك عليها يعذر المتزندق
أرى الدهر فى أمرين يعمل دائبا
صناع اليدين فيهما يتأنق
يجدد للموتى مناقب لم تكن لديهم وللأحياء يبلى ويخلق
فكم من قبور عظم الناس أهلها بما لم يكن عند النهى يتحقق

* العرنين ـ بكسر العين ـ هو الأنف

ورب امرئ قد عاش يستقطر الثنا
فلما قضى ســـال الثنا يتدفق

فما كُتُب التاريخ فى كل ماروت
لقرائهـــا إلا حديث ملفق

نظرنا لأمر الحاضرين فرابنـــا
فكيف بأمر الغابرين نصدق

وما صـــدقتنا فى الحقائق أعين
فكيف إذن فيهن يصدق مهرق *

وديوان الرصافى على عظمته ليس كل شعر الرصافى ، فله شاعرية لم يحوها الديوان ، هى ذلك الروح الطروب الذى يهزأ من أحداث الزمان .

والرصافى مؤلفاً غير معروف ، ولـكن كتابه عن النبى محمد كتاب هائل جداً ، وترجع أهميته إلى مافيه من نقد الأخبار والأحاديث وقد لا تتسع الصدور لظهور هذا الـكتاب ، وهذا هو الشاهد على أن أسلافنا كانوا أوسع صدرا وأعلى مقاما .

أما بعد فما كتبت هذه الكلمة لأفى الرصافى حقه من الثناء ، فذلك يحتاج إلى مؤلف ضخم تحدد به نواحى هذه العبقرية .

---

* المهرق : هو الصحيفة

ماهذا بحثا مفصلا عن الرصافى ، وإنما هى كلمة موجزة أردت أن أشرف بها نفسى فأقول إنى زرت بغداد ورأيت الرصافى ، ولعلها تكون كفارة عن تقصيرى فى مودة هذا الشيخ الجليل ، وأقسم ما انصرفت عن مودته طائعا ، وإنما صرفنى عن مودته ماألقاه القدر على كاهلى من أعباء وتكاليف .

إصلاح الخط العربى

إلى الصديقين الكريمين محررى مجلة التربية الحديثة .

أقدم إليكما أصدق التحيات . ثم أتشرف بتقديم ماسألتمونى من الرأى فى إصلاح الخط العربى ، ولكن على شرط أن تحتملوا الاطناب . لأن لى فى هذه المسألة آراء عرضتها فى مواقف رسمية ، أحدها فى مدرسة اللغات الشرقية فى باريس يوم حاججت الأساتذة العظام مرسيه وكولان وديمومبين ، وثانيها يوم قدمت رسالة «اللغة والدين والتقاليد» إلى لجنة رسمية مؤلفة من حضرات أصحاب المعالى والعزة أحمد لطفى السيد باشا وجعفر ولى باشا وبهى الدين بركات باشا وطه حسين بك ومصطفى عبد الرازق بك . وهناك موقف أخطر وهو الذى دعوت فيه صراحة إلى كتابة المصحف بالرسم الحديث ، وتصريحى بأن سيدنا عثمان كان مبتدئا فى الخط وأنه لو عاش فى هذا العصر لكان من المستحيل أن نكل إليه تعليم الخط فى مدرسة أولية ، ثم تصريحى بأن مشايخ الأزهر يصدون عن كتاب الله حين يوجبون أن يرسم بخط تصعب قراءته على أكثر الناس .

أما موقفى فى مدافعة المستشرقين فيتلخص فى أن الخط العربى هو أصلح الخطوط للغة العربية ، وأن الحروف اللاتينية لاتنفعنا أبداً ،

لأنها تعجز عن تأدية النطق العربى تأدية صحيحة .

قالوا : ومع ذلك يعجز الخط العربى عن تأدية النطق العربى تأدية صحيحة !

قلت : لأننا نهمل الشكل وهو عنصر أساسىّ فى الخط العربى .

وهنا أذكر أن أهل بغداد كانوا السبب فى حرمان الخط العربى من أهم عناصره وهو الشكل : لأنهم كانوا يرون الشكل إهانة للمخاطب واتهاماً له بالجهل .

وهذا الذوق البغدادى كان يقبل فى القرن الثالث يوم كانت الثقافة الأدبية مقصورة على الخواص الذين يؤذيهم أن ترشدهم إلى صواب النطق بشكل الكلمات .

وقد تغير الحال فى هذا الزمان وصرنا مضطرين إلى مخاطبة الجمهور كله وفيه أطفال ونساء وجاهلون ، فما كان يعتبر إهانة عند أهل بغداد فى القرن الثالث أصبح فى زماننا من الواجبات.

وخلاصة هذه الفكرة أن التشبث بالخط العربى ليس نزعة قومية ، كما يتوهم أكثر الناس، وإنما التشبث بالخط العربى أمر يوجبه العقــــل والمنطق لأنه أصلح الخطوط لتأدية النطق الصحيح فى اللغة العربية .

وكلمة « كتب » معناها فى الأصل « قيد » وكذلك « الشكل » معناه « القيد » لأنه مأخوذ من الشكال ، أى القيد . فالذى يشكل

الكلمة يقيدها : أعنى أنه يحصرها فى وضع واحد ، وكانت قبل الشكل تنطق بأوضاع مختلفات .

وأقول ثم أقول ، وأقرر ثم أقرر ، أن الخط العربى لايعوزه غير الشكل ، فإذا شكلناه أصبح قادراً كل القدرة على تأدية النطق وتحديد المعانى على نحو ماتصنع الحروف اللاتينية فى اللغات الاوربية .

ولو ظهرت الجرائد والمجلات مشكولة عامين اثنين لرأيتم كيف يصلح النطق وكيف يشيع الإفصاح .

* * *

وهنا ندخل فى شعاب المعضلة الحقيقية فنقول :

إن لحرف القاف مثلا أربع صور هى : ق ، ق ، ق ، ـق

ولو وضعنا لكل صورة ثلاث حركات لاحتجنا إلى اثنتى عشرة صورة لكل حرف ، وبذلك تتعدد الصناديق ، وتحتاج كل مطبعة إلى مضاعفة عدد الصفافين ، كما يعبر أهل مصر ، أو المرتبين ، كما يعبر أهل العراق .

وأنا بكل صراحة أدعو إلى توحيد الحروف ، أدعو إلى الاكتفاء بصورة واحدة لكل حرف ، فيكون له رسم واحد فى أول الكلمة وفى الوسط وفى الطرف ، ثم يصبّ من كل حرف ثلاثة أشكال فيها الكسر والضم والفتح ، مع الاستغناء مؤقتاً عن حركات الإعراب .

وهذا الاقتراح يذهب بشيء من جمال الخط العربى ، ولكن جمال الخط لا يساوى ما نظفر به من الدقة والتحديد فى الخط المقترح .

الشكل هو الإصلاح الوحيد للخط العربى ، ولكن شكل الحروف بوضعها الحاضر يوجب تعقيد الصناديق . وتوحيد أشكال الحروف يمنع هذا التعقيد .

فى الصندوق العتيد أربع صور لحرف الفاء هى : ف ، ﻓ ، ﻔ ، ﻒ .

وفى الصندوق الذى أقترحه أربع صور هى : فَ ، فِ ، فُ ، ف

والصورة الأخيرة عارية عن الشكل فلتكن صورة السكون أو الوقف .

* * *

وما أقترحه خاص بحروف الطباعة ، أما الكتابة العادية فخط الرقعة يكفى فيها كل الكفاية ، ويحسن أن يكون عندنا خطان اثنان فقط : خط للطباعة وخط للتحرير .

وأنا — بعد الذى أسلفت — أقرر بصراحة أن صعوبة النطق التى أوجبها سوء الخط كانت السبب فى اهتمام العرب بالتمكن من لغتهم ، كما أن صعوبة النحو العربى كانت السبب فى نبوغ أكثر الأدباء .

والتعليم فى الأزهر كان نافعاً جداً يوم كان يجرى على نظام غير مرتب . فلما وصلت إليه طرائق التربية الحديثة أصبح ضعيفاً .

أقول هذا وأنا أعرف أن سيغضب الدكتور بقطر والدكتور جولت .

ولكنى قضيت عشرين سنة فى درس علم النفس ، وأصبح من المقرر عندى أن الاهتمام هو أصل كل تفوق ، وصعوبة الخط والنحو والصرف توجب الاهتمام ، وهذا الاهتمام هو الذى جعل الأزهريين القدماء من أعرف الناس باللغة العربية .

ولكن لا مفر من إصلاح الخط العربى لنصل به إلى الجمهور الأعظم الذى يعدّ بالملايين ، ولنقضى على الدسيسة الخطرة التى تزين الحروف اللاتينية ، ولنسهل الوصول إلى فهم لغتنا لمن يهمهم ذلك من كرام الأجانب ، فقد اشتغلت بالتدريس فى الليسيه فرانسيه نحو عشر سنين وكان يؤذينى أن يعتقد الأجانب من التلاميذ أن لغتنا أصعب اللغات .

وحين يتضح الخط العربى ويتكلم لغتنا ألوف من الأوربيين والأمريكيين تدخل فى لغتنا حيويات جديدة قد تعود على أدبنا بأعظم النفع .

إن إصلاح الخط العربى أمل جميل ، ولكن على شرط أن يكون تطوراً فى الخط ، ولا يكون تبديلا للخط ، فإنى أخشى أن نبالغ فى الحذلقة فلا تسايرنا الأقطار العربية، والسلام .

بغداد زكى مبارك

﴿المجلة﴾ نتفق مع صديقنا الدكتور زكى مبارك فى أشياء ونختلف معه فى أشياء

(١) نتفق معه فى أن اللغة العربية ليست أصعب اللغات (٢) ونتفق معه فى أن صعوبة الخط مسألة سطحية وصعوبة الشكل كذلك ويوجد فى اللغات الاوربية الحية من الصعوبات على المبتدئ والمتعلم من غير أهلها ما يفوق مثلها فى العربية بمراحل (٣) أن صعوبة العربية فى رأينا تنحصر فى وجود لغتين العامية والفصحى ، ولكل منهما تيار فكرى يعطل أحدهما الآخر فيقتل التفكير والانتاج . وهذا هو الرأى الذى أدلى به سر وليم ولكوكس ولدىّ مايعزز قوله مما لايتسع له المقام الآن (٤) أما قول الدكتور زكى مبارك إن صعوبة النطق وصعوبة الخط وصعوبة النحو هى التى مكنت العرب من لغتهم وحدت إلى نبوغ أكبر الأدباء فلايقره عليه عاقل ولا مجنون ؛ وهذا المنطق يذكرنى بما يقوله بعض الانكليز دفاعا عن نظامهم العقيم فى الموازين والمقاييس والنقود ، بجانب النظام العشرى الجميل فى النقود والموازين والمقاييس والمكاييل فى فرنسا وإيطاليا ومعظم بلدان أوربا . يقول السفسطائيون من الانجليز إن هذا النظام المعقد يدرب العقل ويهذبه بعكس النظام العشرى . وعلى هذا المبدإ ينبغى تعقيد كل شىء فى الحياة توصلا للغرض عينه (٥) أما قول صديقنا الدكتور إن الأزهر ضعف طلابه منذ إدخال التربية الحديثة فهذا يحتاج إلى أدلة يتعذر إقامتها بغير تجارب علمية وأرقام احصائية . غير أنى أسر فى أذن الدكتور أن التربية الحديثة لاتزال بعيدة عن الأزهر وعن معظم معاهد التعليم فى بلادنا بعد الأرض عن السماء أو العكس على الأصح ، اللهم إلا إذا كنت تفهم بالتربية الحديثة الجغرافيا والحساب

(٦) بقيت عبارة واحدة اسمح لى أيضاً أن أسرها فى أذنك . تقول إنك

درست علم النفس منذ عشرين عاما ، وقد نسيت أن علم النفس هذا لم يكن منذ عشرين عاما مما هو عليه اليوم إلا بمنزلة التنجيم من علم الفلك ، فشمر عن ساعديك واعكف على دراسته من جديد . (٧) وأخيراً دعني أشكرك من صميم الفؤاد لإخلاصك للعلم وتلبيتك لدعوتنا فقد طلبنا إلى أكثر من ثلاثين من رجال التربية في جميع البلدان العربية أن يدلوا بآرائهم فلم يحرك منهم ساكنا إلا من زينا صفحات المجلة بأسمائهم . فعليك من قراء مجلة التربية الحديثة وعلى جميع من ساهموا في هذا العدد ، ومني ، السلام ورحمة الله ؟ المخلص

أمير بقطر

مذاهب التربيـــــــة

الى الدكتور أمير بقطر

أيها الصديق العزيز

أقدم اليك أطيب التحيات . وأذكر أن هذا الخطاب كان يجب أن يوجه الى مجلة التربية الحديثة ، ولكنى رأيت أن العدد الاخير هو ختام هذه السنة . وفى تعليقك على مقالى كلمات لا أحب أن أتركها بلا تعقيب الى العام المقبل .

١ — تفضلت ياصديقى فقلت :

« أما قول الدكتور زكى مبارك إن صعوبة النطق وصعوبة الخط وصعوبة النحو هى التى مكنت العرب من لغتهم وحدت الى نبوغ أكثر الأدباء فلا يقره عليه عاقل ولا مجنون. وهذا المنطق يذكرنى بما يقوله بعض الانجليز دفاعا عن نظامهم العقيم فى الموازين والنقود بجانب النظام العشرى الجميـــل فى النقود والموازين والمقاييس والمكاييل فى فرنسا وإيطاليا ومعظم بلدان أوربا . يقول السوفسطائيون من الانجليز إن هـذا النظام المعقد يدرّب العقل ويهذبه بعكس النظام العشرى . وعلى هذا المبدإ ينبغى تعقيد كل شىء فى الحياة توصلا للغرض عينه »

ذلك كلامك أيها الزميل ، وقد استغربت واستغرب فريق من أصدقائك بالعراق أن يصدر عنك ، فعبارة « لا يقره عاقل ولا مجنون » عبارة غير مقبولة، ومن المؤكد أنك ندمت عليها ولو قليلا، فعهدى بك تزن الألفاظ وتنقيها من العيب ، ولو وقعت هذه العبارة فى معركة أدبية لكان لها موضع فان المعارك لعنفها قد تبيح ما لا يباح ، وما كنت أخاصمك حين استجبت لدعوتك الكريمة الى كتابة مقال لمجلة التربية الحديثة حتى يجرى قلمك بذلك التعبير « المقبول » !!

ومن حقى أن أمسك بخناقك حتى تعترف بالحق

فمن أين عرفت أن الصعوبة تنافى مذاهب التربية ؟

يظهر أن التربية فى ذهنك لها مدلول خاص ، هو أن تقال فى أمريكا وفى كتاب طبع سنة ١٩٣٨

وفاتك أيها الزميل العزيز أن التربية كانت موجودة قبل أن تظهر «الطريقة الامريكانية» وأن الصعوبة كانت مما يقصد اليه المربون لتمرين الاذهان والعقول

ويظهر أيضا أنك تفهم علم النفس على « الطريقة الامريكانية » وإخوانك الامريكان قوم لطاف ظراف . ولكن دعواهم التفرد بالعلم أمر « لايقره عاقل ولا مجنون »

وأخوك زكى مبارك وهو دكتور فى الفلسفة مرة أو مرتين أو

مرات يفهم غير ماتفهمون ، أخوك زكى مبارك يقول إن الاهتمام هو أصل كل تعمق ، وعنـــده شواهد يعرفها العقلاء والمجانين ، والصعوبة توجب الاهتمام ، وهى السر فى إقبال الناس على درس المعضلات

والصعوبة أو التصعيب من المذاهب التعليمية التى عاش عليها الناس قبل أن يخلق كريستوف كولمب ، وهى طريقة نافعة جداً ، وستأخذها عنى ياشيطان ، ستأخذها عن الفيلسوف الذى تطاولت عليه بلا حق ، مع أنه زميلك وأخوك . وهـذه الطريقة ، طريقة التصعيب ، تشبه فى عالم الافكار طريقة أهل اسبرطة فى عالم الابدان فالاسبرطيون كانوا يرمون مواليـدهم فى العراء ثلاثة أيام ليعرفوا صلاحيتهم للحياة الجثمانية ، وطريقة التصعيب هى من هذا الباب ، هى تعريض الأذهان للامتحان الصعب لتظهر صـلاحيتها للحياة العقلية .

ولو أن الحظ كان أغاثك فمررت بالأزهر أو الجامعة المصرية أو السوربون أو مدرسة اللغات الشرقية كما اتفق لأخيك أن يمر وهو خائف يترقب ، لوأن الحظ كان أغاثك بهذه المصاعب لعرفت كيف يكون صـيال العقول ، ولـكنك عرفت الأمريكان الظرفاء الذين يدرسون العلم على الاساليب السينمائية

أساليب سينمائية ؟؟

ماهذا الكلام ؟ يظهر أنى بدأت أتطاول عليك !

لا ، لا ، فما أقبل أن أتطاول على أخى وزميلى ، ولكنك أيها الأخ المحبوب نسيت أن تربط أجزاء اعتراضك بعضها ببعض، فجاز لى أن أفهم أنك تدرس ماتدرس على الاساليب السينمائية

وبيان ذلك أيها الاخ أنك حين حكمت بأن كلامى فى طريقة التصعيب لايقول به عاقل ولا مجنون مضيت فقررت أن كلامى يشبه ما يقول به بعض الانجليز فى الدفاع عن نظامهم فى النقود والموازين

ومن كلامك عرفت أن الطريقة الانجليزية هى أيضا طريقة أزهرية !

وأنا والله راض بأن أحشر مع علماء الانجليز ، ولو فى الجحيم !

طريقة التصعيب ايها الاخ هى التى « تغربل » العقول ، وبفضلها استطاع أخوك زكى مبارك أن يصاول العلماء فى الامتحانات العلنية مراراً كثيرة ، منها مرتان فى باريس ، وسأضع عقلك فى «الغربال» بعد حين ، لأعرف نصيبك من العمق ، أرانى الله وجهك بخير وعافية

* * *

٢ — تفضلت ياصديقى فقلت :

« بقيت عبارة واحدة اسمح لى أيضا أن أسرها فى أذنك ، تقول . إنك درست علم النفس منذ عشرين عاما ، وقد نسيت أن علم النفس

هذا لم يكن منذ عشرين عاما مما هو عليه اليوم إلا بمنزلة التنجيم من علم الفلك ، فشمر عن ساعديك واعكف على دراسته من جديد » .

سمعت وأطعت يادكتور بقطر !

سمعت وأطعت لأنى قضيت عشرين سنة فى الحياة الجامعية ، وقد أوصانى أساتذتى رضى الله عنهم بأن أفتح قلبى لكل نصيحة ، ولو صدرت من الدكتور أمير بقطر !

ألمثلى يقال هذا الكلام ؟ ألمثلى يوجه هذا النصح ؟

إن كان منزلتى فى الحب عندكمُ ماقد رأيت فقد ضيعت أيامى

كنت أحسب أنى أنصفت نفسى حين أضعت شبابى فى دراسة الأدب والفلسفة ، وكنت أحسب أن جهادى فى سبيل الأدب والفلسفة سيعصمنى من سماع هـذا النصح المرير ، وكنت أظن أن زملائى يعرفون فضلى وأنى لن أحتاج إلى اكتساب ثقتهم فى سر أو علانية ، ثم قضى الدهر الغادر بأن أرجع إلى حياة التلمذة وأن يطلب منى الرجوع إلى دراسة علم النفس من جديد .

ومعاذ الأدب أن أنكر قيمة هذه النصيحة الغالية : فقد رضت النفس على أكون طالب علم من المهد إلى اللحد .

ولكن يؤذينى شىء واحد : وهو .؟

ما هو ذلك الشىء ؟

إنى لأحتاج إلى شجاعة عظيمة لأفصح عما أريد .

وأتشجع فأقول : لن أستأنف دراسة علم النفس إلا يوم يستأنف الدكتور أمير بقطر دراسة الأبجدية !

هذه وقاحة !

لا ، والله ؛ وإنما هى كلمة حق

ومن أين عرف الدكتور أمير بقطر أنى درست علم النفس منذ عشرين عاما حتى ينصحنى بالعكوف على دراسته من جديد ؟

من أين عرف ذلك ؟

لقد قلت فى مقالتى ما نصه بالحرف وكما نشرته مجلة التربية الحديثة :

« ولكنى قضيت عشرين سنة فى درس علم النفس ، وأصبح من المقرر عندى أن الاهتمام هو أصل كل تفوق »

فأنا لم أقل إنى درست علم النفس منذ عشرين سنة ، وإنما قلت إنى درست علم النفس عشرين سنة .

وللقارئ أن يحكم بين هذا الزميل وبينى .

وللدكتور أمير بقطر أن يوجه إلى نفسه الملام إن شاء

* * *

أما بعد : فما كان يسرنى أن أوجه إلى ذلك الصديق الكريم هذه

الملاحظات ، وما كان يسرنى أن أنال مذاهب الأمريكان بنقد أو تجريح .

ولكنى أحسب الوقت حان لتذكير الأمريكان بخطر مايقدمون عليه ، فهم - كما عرفتهم - ناس سطحيون ، وقد صحبتهم عامين فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، وما أذكر أبداً أنى رأيت فى تفكيرهم شيئاً من التعمق ، وإنما هم قوم يغلب عليهم اللطف والإيناس وحفظ الجميل .

وصديقنا الدكتور أمير بقطر هو نموذج من التربية الأمريكانية فهو يمر على ما يقرأ مرور الطيف ، ثم ينقد ويعتسف بلا بينة ولا برهان .

ومن واجبى أن أذكره بأن (الطريقة الأمريكانية) لا تنفع فى مصر ، لأن مصر ورثت تقاليد التعقل والتدبر منذ أجيال طوال .

ثم ماذا ؟

ثم أرجو أن ينقل الدكتور أمير بقطر هذه الملاحظات إلى أول عدد يصدر من مجلة التربية الحديثة وأن يعلق عليه بما يشاء ، عساه يتيح الفرصة لأن أدخل بقلمى فأقف الأمريكان عند حدهم فلا يدّعون التفرد بالأستاذية فى العصر الحديث .

الي الدكتور أمير بقطر

أخي وصديقي :

لعلك قرأت كلمتي الماضية ، وهي عتب عليك ، عتب قاس عنيف ندمت عليه أشد الندم لأنه اتصل بأيامي في الجامعة الأمريكية المعهد الذي صحبتك فيه وصحبت الأستاذ حبيب اسكندر وهو من أكرم من صحبت ، فقد وصفت الأمريكان بأنهم قوم سطحيون ، وكان الأدب يوجب ألا أقول ذلك بعد أن صحبتهم سنتين : وبعد أن عرفت المستر جولت وزوجته الغالية .

وكان للمستر جولت قصة نبيلة ، فقد كتب إلىّ خطابا بالفرنسية يقول فيه :

«لقد قهرتنا الأزمة على الاستغناء عن بعض المدرسين ، فكان الدكتور زكي مبارك أول من فكرنا في الاستغناء عنه ، لأنه رجل صالح للحياة ، ومواهبه كفيلة بأن تمكنه من طيبات الأرزاق»

وأنا أعتقد أن هذه الشهادة هي أعظم ماظفرت به من الألقاب

وقد اقترحت في ذلك العهد أن أدرس في الجامعة الأمريكية مجانا ، ثم صرفتني الشواغل عما أريد ، وليتني استطعت لأقيم الدليل على أنني من أصحاب المعاني ، فالجامعة الأمريكية تقوم في نفس البناء الذي كانت تقوم فيه الجامعة المصرية ، وفي ذلك المكان نفسه

استطاع أستاذنا الشيخ محمد المهدى بك أن يقوم بتدريس الأدب العربى مجانا حين نقصت موارد الجامعة المصرية بسبب الحرب العالميـــة .

ولكن ندمى على ما آذيت به الأمريكان بدأ يخف ، لأنى أخذت أفهم أنى لا أحارب الطريقة الأمريكانية لأسباب شخصية ، وإنما أحاربها فى سبيل المبدأ ، وأنا ياصديقى رجل يتوهم أنه من أصحاب المبادئ ، وقد تجد فيمن صحبناهم من الأمريكان من يشهد بصدق ما أقول .

وأنا أعتقد حقا أنكم قوم سطحيون ، وأعتقد أن نبوغ أمريكا فى الفن السينمائى له دخل فى ذلك ، فهم قوم تبهرهم الألوان قبل أن تبهرهم الحقائق ، فالدنيا عندهم صور وزخارف وتهاويل ، والبيت لايكون عندهم بيتا إلا إن ناطح السحاب ، مع أن أرض الله أوسع مما تظن ويظنون .

وليس عند الأمريكان غير فضيلة واحدة هى الابتسام ، وقد ورثت عنهم شيئا من هذه الفضيلة العالية ، وأشهد صادقا أنى ابتسمت حين قرأت كلمتك فى الرد على أخيك .

فهل آمل أن تبتسم أيضا حين أقول إنكم قوم سطحيون ؟

اسمع ياصديقى :

أنت قلت إن علم النفس منذ عشرين سنة لايقاس إلى علم النفس

فى هذه الأيام إلا كما يقاس التنجيم إلى علم الفلك .

ذلك كلامك الذى سطرته بقلمك فى مجلة التربية الحديثة .

فهل تعنى ماتقول ؟ وهل يصدقك رجل مثـل سعادة الدكتور منصور فهمى أو رجل مثل معالى الأستاذ مصطفى عبد الرازق ؟

وهل يوافقك على ذلك فريق من الذين تلقيت أنا عنهم الفلسفة فى السوربون ؟

من سوء حظى أيها الأخ أنى دكتور فى الفلسفة ، ومن سوء حظى أن وجدت رجلا يعتذر عن نقد كتاب النثر الفنى بحجة أنه قام على أصول فلسفية توجب النظر الدقيق . وهذا الرجل هو الأستاذ إسماعيل مظهر وهو فيما سمعت وسمعتم من المطلعين على المذاهب الفلسفية .

ومن سوء حظى أيضا أنى اطلعت اطلاعا لا يخطر ببالك على الفلسفة اليونانية والعربيـة ، وصح عندى بعـد البحث أن الفلسفة الحديثة لها أصول عند القدماء .

هل تصدق أننى اكتشفت أن مذهب فرويد له أصـل فى كتب الشعرانى ؟ وهل تصدق أنى وجدت لذلك المذهب أصولا صحيحة عند علماء الفقه الإسلامى ؟

ليتنى أفرغ لك ولأمريكا لأفهمكم أن لاجديد تحت الشمس مع استثناء اللاسلكى والبخار والكهرباء .

إن قوتكم فى الإعلان تفوق كل قوة وقـد أزغتم الأبصار

والعقول، وأصبح من واجب كل مخلص أن يقفكم عند حدكم، فقد ملأتم الدنيا بالأوهام والأضاليل.

أفي الحق أن علم النفس كان منذ عشرين سنة خرافة من الخرافات؟

فما رأيكم فيمن يحدثكم أن علم النفس كان علما صحيحا منذ ألوف السنين؟

ما رأيكم فيمن يحدثكم أن الحقائق النفسية عرفها قدماء العرب والفرس واليونان والمصريين والهنود؟

ما رأيكم فيمن يحدثكم أن الاستهانة بميراث الإنسانية هي الشاهد على أنكم تمزحون فيما تقولون وما تكتبون؟

لقد اتفق لك يا دكتور بقطر أن توهم قراءك مرات ومرات بأن مناهج التعليم في مصر وفي فرنسا وفي انجلترا وفي ألمانيا وفي الدنيا كلها مناهج تقوم على غير أساس لأنها غير امريكانية، فاتق الله والأدب والذوق في عقلك، وتذكر أن الأمريكان ناس كسائر الناس وليسوا من الملائكة ولا الشياطين.

أما بعد فما أوجه الكلام إلى شخصك بالذات لأنك صديق عزيز؛ وإنما أنقد مذهبا ضعيفا من مذاهب الفهم هو المذهب الأمريكاني.

وقد آن الأوان للتفكير في نقلك إلى وطنك حتى لا تضيع.

آن الأوان للتفكير في رياضتك على النظر إلى الحقائق.

آن الأوان لنفهمك أن الفلاسفة كان لهم قبل عشرين سنة مذاهب صحيحة فى علم النفس .

آن الأوان لنفهمك — وأنت صالح للفهم — أن علم النفس له ماض وتاريخ .

أيها الصديق

لاتحسبنى أسأت إليك ، فستذكرنى بالخير بعد حين ، والسلام .

كيف نصادق أطفالنا[1]

سيداتى وسادتى

لاتظنوا أن الظفر بصداقة الطفل أمر سهل ، لأن بيننا وبين الأطفال فوارق كثيرة جداً ، وهذه الفوارق تباعد ما بيننا وبينهم ، وتجعل عقد المودة معهم أمراً عسير المنال

وأسعد الآباء هو من يستطيع الوصول إلى قلوب أبنائه فى ترفق وتلطف ، ليكونوا قرة عينه ، وليكون قرة أعينهم ، وليصبح البيت موئلا للانشراح والابتهاج

وأسارع فأقرر أن الأب لايستطيع الظفر بصداقة أبنائه إلا إن ضمن عطف زوجته عليه ، فالزوجة هى الرباط الأول بين الأب وبين قلوب أبنائه ، وهى تستطيع أن تغير قلوبهم على أبيهم حين تشاء ، لأنها تملك من أمورهم كل شىء ، ولها وسائل خفية تصل بها إلى قلوب الأطفال

وبيان ذلك أن بعض الزوجات يستطبن إعلان التذمر من الأزواج ، وهذا التذمر قد يسمعه الأطفال فيرسخ فى أذهانهم أن أباهم رجل بغيض ، وعندئذ يصعب على الأب أن يظفر بصداقة بنيه

---

(١) محاضرة ألقيت فى محطة الإذاعة العراقية

والزوجة الصالحة هى التى تشعر أبناءها فى كل وقت بعظمة ابيهم وتروضهم على احترامه وحبه ، وتؤكد فى أنفسهم الشعور بما يملك من جميل المناقب والخصال .

الزوجة الصالحة تقول للطفل : «تمسك بهذا الخلق فإنه يرضى أباك ، وتجنب ذلك الخلق فإنه يغضب أباك »

وعندئذ يشعر الطفل بأن عند أبيه ذخائر من الفضائل فيتشوف إلى الاطلاع على مافى قلب أبيه من كرائم الطيبات . ويرى الطاعة من صالحات الأعمال

فإن سمعتم أن طفلا يحب أباه فاعرفوا أن لذلك الطفل أما صالحة ، وإن سمعتم أن طفلا يبغض أباه فاعرفوا أن له أما ذميمة الخلال

وإنما اهتممت بتأكيد هذا المعنى لأنبه الزوجات إلى حقيقة غفل عنها أكثر المربين ، وهى أن الأطفال وديعة ثمينة فى أيدى الأمهات ، ومن الأمهات من ينسين الواجب فيفسدن ما بين الآباء والأبناء ، ويحرمن الأطفال من نعمة عظيمة هى الثقة بالوالد المسكين الذى يضطرب فى دنياه ليقدم إلى زوجته وأطفاله أسباب الرخاء .

وما ابتكرت هذه الحقيقة ، وإنما هى درس تلقيته عن اهلى ، فقد كان أبى رحمه الله رجلا جافيا جداً ، وما أذكر أنه ابتسم فى وجهى غير مرات معدودات ، ولكن أمى رحمها الله كانت لا تذكره

أمامى بغير الخير ولا تصوره بغير الجميل .

وكنت فى طفولتى أرى أبى لغزاً من الألغاز ، فهو فيما أرى رجل عنيف ، وهو فيما تصور أمى رجل لطيف ، ولم أعرف وجه الحق إلا يوم حرمتنى المقادير من أبى وأصبحت فى الدنيا بلا صديق

* * *

ولكن ما الموجب للحرص على صداقة الأطفال ؟

لقد سمعت أننا من بنى آدم ، وسمعت أن آدم كان رجلا له قلب

والأطفال يعيشون بيننا فى غربة موحشة فليسوا من جيلنا ولسنا من جيلهم ، فهمومهم غير همومنا ، وهمومنا غير همومهم ، ولن يمكن التوفيق بيننا وبينهم إلا إن صعدوا إلينا أو نزلنا إليهم ، فمن كان له قلب فليعرف هذه الحال وليفكر فى إيناس أولئك الغرباء الذين يتشوفون إلى العواطف والقلوب .

وأول ما يجب التنبه إليه هو اليقين بأن الأطفال يعيشون فى عالم المحسوس ويجهلون عالم المعقول .

وعالم المحسوس هو الأصل ، ولو شئت لقلت إن عالم المعقول ليس إلا تصويراً لعالم المحسوس

ومن واجب الأب أن يدرك أن الأطفال يرون الدنيا بعيونهم لا بعقولهم ، من واجب الأب أن يفهم أن مدركات الحواس هى كل شىء عند الأطفال

فإن بدا لك أن تصادق الطفل فابحث عن مواقع هواه ، واعرف أن فمه أكثر يقظة من عقله ، وأن صندوق الحلوى أفضل عنده من الكتاب الجيد ، وأن الثوب المرقش أحب إليه من القول المزخرف

والأب الذكى اللبيب هو الذى لا يلق طفله إلا وفى يده هدية أو تحفة أو طرفة ، فإن فاته ذلك فليقدم إلى طفله قطعة أو قطعين من النقود ، وليذكر دائماً أن هذا هو مايدرك الأطفال من معانى الوجود

وفى الدنيا أشياء هى عندنا أوهام ، وهى عند الأطفال حقائق

ولن نظفر بصداقتهم إلا إن رأينا الدنيا بعيونهم ، ولعلهم أعرف وأصدق ! كنت أدخل المنزل فيلقانى أطفالى باسمين متهللين لأن الراديو قدم إليهم هدايا نفيسة ، فيها من كل فاكهة زوجان ، فأفرح لفرحهم ، وأطلب نصيبى من هدايا الراديو ، فيقدمون إلى مابقى من هداياه متفضلين

وكان هذا الراديو عجيبا ، ولعله أعجب راديو عرفه الناس ، كان الأطفال يصبحون فيجدون حوله أطايب كثيرة من المأكولات والمشروبات فيصفقون ويهللون ، وتموج بهم الدنيا موج الفرح والاغتباط .

وكنت أنتفع بهذه الفرصة فأفرح لها كما يفرحون

وكان فى المنزل طفل كبير يرتاب فى هدايا الراديو ، ويظن لسخفه أن تلك الهدايا قدمتها يد إنسان لا يد شيطان

وكنت بفضل عقلى أفهم أن هدايا الراديو هدايا رديوية ، وأن لراديو هو الذى ينقل الهدايا كما ينقل الأصوات :

وكان أطفالى يحبون أباهم لأنه عاقل ، ويتهمون أخاهم الكبير الجنون .

فليت شعرى ماذا صنع الراديو بعد رحيلى إلى العراق ؟

أكان يجرى على عادته السخية فيقـــدم الهدايا إلى أطفالى فى الصباح والمساء؟

أم ترونه حزن لفراقى فحرم الأطفال من تلك الهدايا الطيبات ؟

إن الراديو الذى فى منزلى بمصر الجديدة هو أغرب المبتكرات ، ومن الواجب أن يكون له أمثال فى كل أرض ، هو راديو كريم يقدم إلى الأطفال كل مايشتهون ، وهو يعرف الفوارق بين هدايا المواسم وهدايا الأعياد ، ولم يكن فيه إلا عيب واحد : هو أنه يضن بالهدايا حين أغيب ، ولا أعرف السبب فى ذلك !

فمتى أرجع إلى أطفالى ليرجع الراديو إلى بره المألوف ؟

* * *

والطفل كثير الاعتداد بالنفس ، وهو لا يصادق من يعدّون عليه الذنوب . ونحن خليقون بالتغاضى عن هفوات أطفالنا . لأنها فى الأغلب هفوات طبيعية ، ولأن هؤلاء الأطفال سيدخلون دنيا الناس بعد حين ، وسيشربون الصاب والعلقم من أيدى الأصدقاء

المزيفين ، سينتقل هؤلاء الأطفال إلى دنيا خسيسة لئيمة لا كرم فيها ولا رفق . سينتقلون إلى صحبة ناس لا يسترون عيوبهم ، ولا يغفرون ذنوبهم ، فلتكن صحبتهم إيانا هى الموسم الطيب الذى يرونه فى الحياة

ولنتذكر أن الأطفال الصغار ليسوا أعقل من الأطفال الكبار فقد كان لى صديق أثق بعقله وكرمه ونبله ، ثم اتفق أن أداعبه فأذكر أنه دميم الوجه ، والدمامة لا تعيب الرجال ، فغضب وشتمنى أقبح الشتم فى إحدى الجرائد ، وعنه تلقيت درسا لن أنساه : وهو أن الأطفال الكبار أقل عقلا من الأطفال الصغار فى بعض الأحيان ومزاحهم ثقيل ممجوج !!

وأطفالنا سيلقون هذه المكاره بعد حين ، فلنعطف عليهم ، ولنذكر أننا نلقيهم إلى دنيا غادرة لا يحفظ فيها تاريخ إنسان إلا إن لطخ يده بدماء الأبرياء .

الطفل يحب أن تكون له أخلاق الرجال وشمائل الرجال .

ولن نظفر بمودته إلا إن منحناه الثقة بمواهبه العالية .

فما الذى يمنع من النزول عند إرادته عساه يستفحل ويستأسد ؟

الطفل يحب أن نثق بأنه أجمل الناس وأذكى الناس .

فما الذى يمنع من أن نقول له صدقت أيها الذكىّ الجميل ؟!

إننا ننخدع كارهين للأطفال الكبار وهم الرجال ! فما الذى يمنع من أن ننخدع طائعين للأطفال الصغار وهم الأبناء ؟

سيداتى وسادتى :

اسمحوا لى أن أعتب عليكم بعض العتب

لقد مضت أجيال وأجيال ونحن نفرق بين الذكور والإناث .

وقد شهدت بذلك آثار العرب واليهود والهنود .

فهل آن أن نعرف كيف نحب أطفالنا من البنات ؟

إن البنت مخلوق نفيس وهى مصوغة من الروح والوجدان

إن البنت هى سر الوجود ، ولكن أين من يفهم المعانى ؟

إن البنت هى مصدر الرفق والعطف والحنان

إن البنت هى أصل ما نملك من الرزق لأنها ضعيفة ، والله يرزقنا بفضل ما فى بيوتنا من الضعفاء

إن البنت هى التى تعرف كيف تواسى أباها أو أخاها أو زوجها وهو على فراش الموت ، فاحترموا البنت وأعزوها واجعلوها من كرام الأصدقاء

هل قرأتم سيرة المسيح ؟

لقد شاء الله أن يكون ذلك النبى ابنا لامرأة تنكر لها أهلوها ليريكم أن الأمر بيد الله لا بيد الناس

أراد الله أن يعلمكم أن تقاليدكم خداع فى خداع ، وأنكم لم تروا من بحار الحقائق غير أوشال .

وقد سمعت أن ناسا من الانجليز يتطاولون على «العذراء» فى

حديقة ، ها يدبارك فليتطاولوا كيف شاءوا ، فستبقى العذراء عذراء وإن نطحوا بقرونهم رواسى الجبال

سيداتى وسادتى :

صادقوا أطفالكم وأطفال من تعرفون بلا تحفظ ولا تهيب ، فالطفل هو الزهرة الكريمة التى تنبت فى الصحراء .

الطفل هو أطيب مافى الوجود ، وهو الصديق الحق لو تعلمون .

الطفل هو الذى يقبل وجوهكم برفق وعطف ، وكل مودة غير مودة الطفل هى رياء فى رياء .

الطفل هو المؤمن بالوداد ومن سواه كفار جاحدون .

قبلة الطفل صدق فى صدق ، وصداقة الطفل إيمان فى إيمان .

فإن فاتتكم تلك القبلة وهذه الصداقة فستعيشون محرومين .

الطفل مخلوق لطيف لم يطلع على سفه الدنيا ولؤم الزمان

الطفل يثق ويوقن ، فأفهموه أنكم أهل للثقة واليقين ،

الطفل يشتهى أن يحب فأحبوه .

الطفل يطمئن إليكم ، فاطمئنوا إليه .

الطفل يتوكل عليكم ، فتوكلوا على الله واعطفوا عليه

الطفل يتوهم انكم ناس ، فأفهموه أنكم ناس

الطفل هو نعمة الله فلا تجحدوا نعمة الله .

أما بعد فإن الظفر بصداقة الطفل أمر سهل عند من يفهم أسرار

الغرائز والميول ، ولكنه صعب جداً على من ينتظر من الأطفال أن يفكروا بعقول الرجال .

فارجعوا إلى طفولتكم حين ترون أطفالكم لتذوقوا معانى السعادة من جديد ، ولتنسوا فى صحبتهم متاعب الجد الرزين .

حديث المؤلف

مع جريدة الأخبار

قالت جريدة (الأخبار) العراقية الغراء :

كان لصدور كتاب (عبقرية الشريف الرضى) الذى أتحف القراء به حضرة الأديب الكبير الدكتور زكى مبارك أستاذ الأدب العربى فى دار المعلمين العالية رنة استحسان فى مجتمعنا الأدبى ودوى فى محافل الفكر .

وقد قصد مندوب جريدة (الأخبار) المؤلف الدكتور زكى وسأله أفانين من الأسئلة حول الموضوع ، وفيما يلى خلاصة حديث الأديب المبارك :

س — لماذا بدأتم بالشريف الرضى ؟

ج — لذلك تاريخ قديم ، فقد كان الأدباء فى مصر يختلفون حول أبى تمام والبحترى والمتنبى ، وكنت وحدى أقدم الشريف الرضى على هؤلاء الشعراء ، وأثر هذا التقديم واضح فى كتاب (مدامع العشاق) الذى طبع مرتين ، وهو يشهد بإعزازى للصديق العظيم محمد بن الحسين ، ولما قدمت بغداد رأيت الفرصة قد سنحت لإنصاف هذا الشاعر المظلوم الذى غفل عنه الناقدون .

س — هل تعتقد أن الشريف الرضى كان منسيا ؟

ج — إرجعوا إلى المؤلفات الحديثة التى دونت أخبار الشعراء تروا أن الشريف الرضى لم ينل بعض حقوقه فى الحياة الأدبية ، ويكفى أن تذكروا أن كتاب (الوسيط) لم يشر إليه ، وكتاب الوسيط ألف لغاية واضحة هى تعريف الشبان المصريين بأهم الشخصيات التى كان لها سلطان فى عالم الشعر والأدب والبيان .

س — ما هى أهم النواحى الذوقية فى حياة الشريف ؟

ج — كان القدماء يرون أنه أشعر الناس فى « الحجازيات » وأرى أن أهم النواحى فى شعره هى « المعالى » وأعتقد أنه أعظم شاعر وضع دستوراً لحياة الفتيان ، وأكاد أجزم بأنه أكبر شاعر صوّر الضجر من حياة الخمول ، فالشريف الرضى شاعر ثائر يدعو إلى تحطيم قيود الذل والاستعباد . ونواحى الرجولة قد اكتملت فيه كل الاكتمال ، فهو رجل له صبوات وآمال ، هو عاشق وفارس ومؤمن وزعيم ، هو رجل يجمع بين المرارة والحلاوة والعنف والرفق ، هو شخصية عراقية تقسو فتكون أعنف من الجحيم وترق فتكون أرق من النسيم

س — ماهو الأسلوب الذى اخترته فى التأليف ؟

ج — لقد أقمت كتابى على غير مثال سبق ، وأنا أحرص كل الحرص على أن تكون مؤلفاتى ألواناً مختلفات ، وأحب أن ألقى

قرائى فى كل كتاب بأسلوب جديد . والتأليف عندى فن من الفنون فلكل كتاب ضرب من التصميم ، ولون من التصوير . واختلاف الموضوعات يوجب ذلك ، فللمؤلفات الأدبية لون ، وللمؤلفات الفلسفية لون ، فلى فى كتاب (الأخلاق عند الغزالى) شخصية غير شخصيتى فى كتاب (النثر الفنى) وكذلك كان كتاب (عبقرية الشريف الرضى) صورة جديدة تخالف سائر الصور فيما نشرت من مؤلفات .

س — قلت إنك سايرت الشريف الرضى مسايرة الصديق للصديق ، فما معنى ذلك ؟

ج — تلك خطتى فى التأليف ، فأنا أهتم بارتياد المجاهل من حيوات الشعراء وأحرص على التعرف إلى ماعندهم من ميول وأذواق وأهواء . وأنا بكل صراحة أعتقد أن لا بد للناقد من أن ينسى شخصيته ويفنى فى شخصية الشاعر الذى يدرسه بحيث يبصر بعينه ، ويسمع بأذنه ، ويفقه بقلبه ، ليسبر أغوار نفسه . ويرى مبلغ شعوره بما وصف من الأشياء .

س — كيف كانت إحساساتكم عند تأليف ذلك الكتاب ؟

ج — كنت فى حالة نفسية تشبه تمام الشبه أحوال الشريف فى دنياه ، وقد تفتح قلبى تفتحا لم أعهده من قبل ، فأنشأت فى أشهر قلائل ألوفا من الصفحات ، وأصبح من المقرر عندى أن الشريف

شاعر يوحى ، والشاعر الذى يوحى هو الشاعر الحق ، وأنا أومن بأن كتابى عن الشريف سيخلق نهضة أدبيةوذوقية وفنية ، وسيكون له تأثير شديد فى توجيه التأليف وجهة جديدة سترون شواهدها بعد قليل .

س — دعوت فى آخر كتابك للاحتفال بمرور ألف سنة على ميلاد الشريف ، فماذا توصى به فى هذا الشأن الخطير ؟

ج — إن إحياء الذكريات لون من حياة المجتمع الإسلامى ، ولكنه كان مقصوراً على الشخصيات الدينية ، ونحن قد أخذنا عن أوربا الاحتفال بالشخصيات الأدبية والفلسفية ، ولعل ذلك التقليد وقع فى مصر أول مرة حين احتفلت الجامعة المصرية بإحياء ذكرى الأعضاء المؤسسين ، فقد كان معالى الأستاذ أحمد لطفى السيد باشا يلقى علينا محاضرة فى كل سنة عن قاسم أمين ، ثم توسعت الجامعة المصرية فاحتفلت بذكرى رينان ومحمد عبده والجاحظ والمتنبى ، وشاعت هذه البدعة الجميلة فى سائر الأقطار العربية ، وكان للعراق نفسه نصيب من إحياء ذكرى المتنبى ، فمن الواجب أن ينتهز الفرصة التى ستسنح بعد عام ونصف للاحتفال بمرور ألف سنة على ميلاد الشريف الرضى ، وإنى لأرجو أن يكون احتفالا عالميا تشترك فيه سائر الأمم العربية ويكون فيه للفن نصيب مرموق : ففى ديوان الشريف قصائد كثيرة تصلح للغناء . ومن

الواضح أن أمثال هذه الاحتفالات تنفع فى إحياء الدراسات الأدبية ، وتوجه الباحثين إلى أفانين من شائق البحوث .

س — كيف رأيتم استقبال الرأى العام لكتابكم الجديد ؟

ج — ضاق وقتى عن تذكير الرأى العام بكتابى فلم أهد إلى الصحفيين العراقيين غير نسخ معدودات ، وفى العراق جرائد ومجلات لم أهد إليها الكتاب ، مع أن فيمن تغافلت عنهم أصدقاء فضلاء ، ولعلهم يعتبون ويلومون ولكنهم سينسون هذا التغافل حين يتذكرون أنى كنت مشغولا بتلاميذى ؛ على أن هذا لم يمنع من أن يكون كتاب (عبقرية الشريف الرضى) أول كتاب شعرت بوصوله إلى أفئدة القراء بسرعة بعد كتاب (النثر الفنى) فقد وزعت مئات من النسخ فى بضعة أسابيع ، وسيكون له مجال حين يصل إلى مصر ، فالصحافة المصرية تهتم بحياة التأليف أكثر مما تهتم الصحافة العراقية ، وكأن أهل العراق يعرفون ذلك ، فهم يتسامعون بأخبار الكتب الجديدة قبل أن تحدثهم عنها الجرائد والمجلات

س — هل أستطيع أن أسأل كيف قضيتم عامكم هذا فى بغداد ؟

ج — أنا ماقضيت عاما فى بغداد ، وإنما قضيت فى بغداد لحظات ستكون ذخيرتى من الأنس فيما بقى من حياتى ، وما عرفت معنى الحياة إلا فى بغداد ، فقد قضيت جميع تلك اللحظات والقلم فى يدى ، واستطعت أن أشغل طوائف من الجرائد والمجلات فى مصر والعراق

ولبنان . وأستطيع أن أصرح بأننى أول موظف تلطفت معه حكومة العراق ، فلم يسألنى أحد عما أنشر من المذاهب والآراء ، وقد ظن بعض من لايفهمون أن حكومة العراق سكتت عنى لمكانتى الأدبية ، والرأى الحق أن حكومة العراق سكتت عنى لأنها تعرف أنى من أصدق أصدقاء العراق .

س — من هو الشاعر الذى ستدرسونه فى العام المقبل ؟

ج — العام المقبل فى ضمان الله ، فقد اعتذرت عن مواصلة العمل بدار المعلمين العالية فى العام المقبل ، لأننى أريد أن أطبع كتاب «التصوف الإسلامى» الذى نلت به الدكتوراه فى الفلسفة من الجامعة المصرية برتبة الشرف ، وهو لايطبع فى غير القاهرة لأسباب فنية .

وبهذه المناسبة أوجه أصدق الثناء لمن عز عليهم أن أحرم من هواء بغداد فى العام المقبل ، ولا يعزينى عن فراقهم إلا يقينى بأن بغداد ستكون فى أكرم المنازل من قلبى ، وسأذكر أنى احتملت مشاق السفر لأرى قبر أبى تمام بالموصل ولأهيء نفسى لتأليف كتاب عن عبقرية الشاعر الذى أعز دولة الشعر فى القرن الثالث ، فإن ترفقت شواغلى بمصر وسمح أطفالى بالرجوع إلى بغداد فسأقيم موسما ثانيا للشاعر الجميل الذى اسمه حبيب . وإن كان هذا آخر العهد بتنسم هواء بغداد فإنى أؤكد لكم أننى سأقصر جهودى وأنا بمصر

على الاهتمام بالآثار الأدبية لأهل العراق ، وسيكون شعارى قول جميل فى خطاب بثينة :

فإن كنت لمّا تعلمى العلم فاسألى وبعض الرجال للرجال رموق

سلى هل قلانى من خليل صحبته وهل ذم رحلى فى الرفاق رفيق

وهل يجتوى القوم الكرام صحابتى إذا اغبر مخشىّ الفجاج عميق

والسلام عليكم وعلى العراق ورحمة الله

من العمامة إلي الطربوش
ثم الى القبعة فالسدارة

أخى الأستاذ طاهر الطناحى

لا أدرى والله كيف خطرت ببالك ، وأنا الصديق الذى نسيه الأهل والأحباب

حدثكم الأستاذ محمود عزمى أننى لبست السدارة فتذكرتمونى ؟ وهو كذلك !

أما أنا فتذكرتك فى طريقى إلى البصرة وطن العلم والشعر والخيال فقد كانت مجلة « الدنيا المصورة » أنيسى فى ذلك الطريق الطويل ، وكانت الشاهد على أن مصر تؤدى دينها إلى العراق ، العراق الذى أحبكم ورعاكم ، إن كنتم تستحقون الرعاية والحب ، يا أشقياء !

وإنما غمزتكم هذه الغمزة لأذكركم بواجبكم نحو العراق ، فقد أصبحت أغار عليه كما أغار على وطنى ، وأرى من حقه عليكم أن تكونوا أسبق الناس إلى تسجيل أعماله الصالحات ، فلمجلاتكم بالعراق مكان مرموق ، وما يجوز لكم أن تقابلوا الجميل بغير الجميل .

وبعد فقد آن أن أدخل فى صميم الموضوع فأقول :

إننى تقلبت فى ملابسى من حال إلى حال ، فكنت أوّلاً ألبس

الطاقية والجلابية ، وذلك مالم تسألونى عنه ، مع أنه لباس الفلاحين المصريين ، ولباس أهلى فى سنتريس ، ولعلكم ظننتم أننى أتنكر للنشأة الأولى ، فرأيتم من الذوق أن تسكتوا عن ذلك العهد ، وقد صقلتكم المدنية فحرصتم على الذوق وهو عندكم يوزن بميزان الذهب ، وغيركم يكيله بالمكيال ، حفظكم الله ورعاكم يا جيران قصر النيل ، ولكن لا بأس من أن تذكروا أنه لا يضايقنى أبداً أن أعترف بأنى فلاح لا يزال فى يده أثر الفأس والمحراث

كنت معمماً يوم كنت طالبا بالأزهر الشريف ، ولكن يظهر أنى كنت غريبا بين الأزهريين ، فقد كانت عمامتى أظرف عمامة ، وكان هندامى أجمل هندام ، وكنت وحدى أمثل فى الأزهر مذهب المعتزلة ، يوم كان الأزهر لا يذكر المعتزلة إلا قال قبّحهم الله !

وكان فى النية أن أظل أزهريا ، فقد انتقلت من مذهب الشافعى إلى مذهب أبى حنيفة لأكون مفتى الديار المصرية ، ولكن أين أنا مما تصنع المقادير !

لقد شاءت المقادير أن تخلقنى على طراز غير طراز القضاة والمفتين فنقلتنى إلى الجامعة المصرية لأصبح من تلاميذ منصور فهمى وطه حسين ، والله الحفيظ !

ومع ذلك ظللت معمما إلى أن ظفرت بإجازة الليسانس فى العلوم الفلسفية والأدبية ، سنة ١٩٢١ ثم أخذت أستعد لامتحان

الدكتوراه ، فبدا لى أن أصبح « أفندى » وكانت كارثة ، لأنى لم أكن أعرف تقاليد «الافندية» الظرفاء ، فقدمت ماعندى من «الجبب» إلى أحد الطرزية فى شارع محمدعلى فصنعوا منها بذلتين سخيفتين شهدتا بأنى كنت مهندما فى الجبة والقفطان ثم أصبحت أضحوكة فى السترة والبنطلون !

وفى يوم امتحان الدكتوراه أوصانى الدكتور منصور فهمى بأن أحضر فى البذلة السوداء ، فلم أفهم المراد من البذلة السوداء ، وحضرت ببذلة مكونة من لونين ، لونين سخيفين كل السخف ، ولولا فصاحتى وبلاغتى فى ذلك اليوم لعدّنى الحاضرون من السفهاء ، وكانت قوة حجتى فى امتحان الدكتوراه هى الشاهد على صواب الكلمة المأثورة :

« إن العباءة لاتكلمك ، وإنما يكلمك من فيها »

والرسالة التى قدمتها لامتحان الدكتوراه يومئذ هى كتاب « الأخلاق عندالغزالى » وقد جاء فى ذلك الكتاب فى فصل لاأدرى ماهو لأننى نسيته أنى قد أخلع العمامة وألبس الطربوش ولكنى لا ألبس القبعة !

ذلك ماسجلته فى كتابى ، أيها الصديق .

ولكنى لبست القبعة بعدذلك بثلاث سنين حين هاجرت لطلب العلم فى باريس سنة ١٩٢٧ .

ومن الغريب أنى لم أصنع كما يصنع زملائى ، وعهدى بهم يذهبون إلى البواخر بالطرابيش ، وإنما لبست القبعة من منزلى فى مصر الجديدة ، فلم يعرفنى المودعون ، وفيهم الشيخ إبراهيم القاياتى ، رحمه الله ، وفيهم الشيخ على مبارك الذى زاغ بصره ليعرف أين عمه الغالى ، وكان يجهل أنه أصبح من الخواجات فى محطة باب الحديد !

ذلك تاريخ معروف : والمهم هو تسجيل لبس السدارة فى بغداد

وهنا أدخل فى صميم الموضوع من الناحية الفلسفية فأقول :

إننى أعتقد أن الأخلاق الكريمة تقوم على أساس واحد : هو الاندماج المطلق فى البلد الذى تعيش فيه ، وحجتى فى ذلك أن الحيوان الصالح للحياة هو الذى يأخذ لونه من الأرض التى يعيش فيها ، وأدمة الغزال هى فى الأصل من لون الصحراء ، والربدة فى الأسود والنمور هى اللون الغالب على الأرض التى يعيش فيها النمور والأسود ، ولون الحوت هو من لون المحيط ، والحرباء تمثل السياسة العالية فى عالم الحشرات ، لأنها تبيض" وتسود" وتخضر" وتصفر" وفقا لما تخالط من مختلف الألوان ، فتسلم من عيون الأعداء .

وما أزعم أنى وصلت إلى هذا الحد من السياسة العالية ، فما أقدر على الوصول اليه ، وإنما أقرر بكل صراحة أن الأخلاق الصحيحة توجب أن تندمج كل الاندماج فى الوطن الذى تعيش فيه ، والغفلة هى التى تحدثك أن من العبقرية أن تنفرد عن القطيع ،

وبعض الجهلاء يظنون العبقرية فى الشذوذ ، وأنا بالفطرة أشعر بوجوب الاندماج فى المجتمع ، وهـذا ماصنعت حين وصلت إلى بغـــداد .

وأعيذك أن تظن أنى كنت منافقا فيما صنعت ، لا ، فهناك سياسة أخرى أعرضها عليك :

أنا أعتقد أنه لابد لحفظ الصحة والعافية من مراعاة الجو والمحيط ومن أجل هذا فكرت فى أن ألبس ثيابا من صوف العراق قبل أن اصل إلى العراق ، فلم أدخل بغداد إلا وأنا فى ثياب صنع قماشها فى بغداد ، وكنت بحمد الله من الموفقين .

ومن عادتى أن أقرأ جرائد البلد الذى أعيش فيه ، فقد كنت وأنا فى باريس أعرف جرائد فرنسا كما يعرفها شبان باريس ، وكان جيرانى من الشبان الفرنسيين يسألوننى رأيى فى السياسة الفرنسية لأنى كنت أعرفها أكثر مما يعرفون ، وأنا اليوم أقرأ جميع الجرائد العراقية وأعرف سياسة العراق أكثر مما يعرفها الشبان العراقيون ، وأجهل سياسة مصر كل الجهل ، فكيف حالكم اليوم ؟ حدثونى فقد نسيت !

وبمناسبة الأستاذ محمود عزمى أذكر أنى رأيته يلبس القبعة فى بغداد ، فعرفت أنه غير موفق ، وليتكم تسمحون بأن أسجل أننى

رأيته من أهل الجمود ، لأن مايصلح لجوّ باريس قد لا يصلح لجوّ بغداد ، ولى أصدقاء مصريون لم يعجبهم كلامى فتركوا رؤوسهم عارية فلزمتهم عقابيل من برد العراق ستصحبهم طول الحياة .

والسدارة العراقية لباس جميل ، ولكننى « أكبسها » على رأسى بعنف لأتقى بها البرد ، وأرجو أن أكون قدوة لسائر أهل العراق .

والله خلقنا بلا شعر ولا وبر ولا صوف ، ولكنه منحنا شعر الرأس لينبهنا إلى أن الرأس يستحق الحفظ ، ومن أجل هذا كان الإنسان هو الذى يغطى رأسه من بين سائر الحيوان ، ومن جهل هذه الحقيقة فسيموت قبل أوان الموت !

وأذكر أيضا أن هذه السياسة العملية توجب أن أسأل عن طعام البلد الذى أعيش فيه ، فأنا فى مصر من عشاق الملوخية والخبيزة والبلح الأمهات وضأن المنوفية ، وكنت فى باريس لا أعشق غير الألوان الفرنسية ، ولا أذكر ما أسماؤها لئلا يسيل لعابك ، وأنا فى بغداد لاأوثر غير الأطعمة الأصيلة فى بغداد

وكنت فى مصر أعشق العيون العسلية ، وفى باريس كنت أعشق العيون الزرق ، وفى العراق أعشق عيون الظباء .. يظهر أنك غاير منى ! تعرف شغلك !

وكنت فى باريس أهرب من المصريين ، وأنا فى بغداد أهرب من المصريين ، وما أكره مصر ولا أهل مصر ، وإنما أحب أن

أعيش فى باريس مع اهل باريس ، وفى بغداد مع أهل بغداد ، ولو انتقلت إلى المريخ لما رضيت بغير صحبة أهل المريخ !

أما بعد فهذا درس ينفع ، ولكن أين من يسمع ؟

هذا هو السر فى أنى أحببت أهل العراق ، وأحبنى أهل العراق ، وستمر أجيال وأجيال ولا ينسى أهل بغداد أن مدينتهم عاش فيها رجل أحبها أصدق الحب اسمه زكى مبارك

أهـذا زكى مبـارك ؟
أم هو جمال الأفغانى؟

أخى طاهر :

اسمح لى أن أعتب عليك ، فالعتاب صابون القلوب ، كما يعبر أهل لبنان .

أنت طلبت منى صورتى بالسدارة ، وقد راعيت معك الأدب ، فلم أرسل إليك صورة شمسية ، وإنمـا أرسلت إليك صورة رسمها السيد بهاء الدين الراوى أحد الفنانين بالعراق .

وإنمـا اهتممت بك لأسباب ، أولهـا أنك صديق عزيز جداً ، وإن كنت لاتعرف ، وثانيها أنك موصول الأواصر بأصدقاء أعزاء منهم الأستاذ أميل زيدان والأستاذ فكرى أياظة والأستاذ حسين شفيق ، وثالثها أنك تقيم بحدائق القبة ذات الزهر والزيتون ، ورابعها أنك تسير على قدميك فى شارع قصر النيل وشارع فؤاد ، وخامسها أنك تداعب الدكتور زكى مبارك من حين إلى حين ! . .

ولـكن هل تعرف أن مداعبتك الأخيرة كانت ثقيلة جداً ؟

هل تعرف أنه ما كان يجوز لك أن تنشر صـورتى وأنا طالب بالأزهر الشريف ؟

ومعاذ الأدب أن أتنكر للأزهر وقد جلست على حصيره الممزق خمسة عشر عاما كما جلس محمد أبو شادى وإبراهيم الهلباوى وسعد زغلول ، وهل يؤذينى أن أكون أزهرىّ النشأة ، وبفضل الأزهر وصلت إلى مايعرف خصومى من التفوق فى اللغة العربية ، وبفضل الأزهر استطعت أن أصاول علماء النجف فى بغداد ؟

إنما آذانى وأرمضنى أن تذكرنى بشبابى ، فقد نشرت لى أربع صور فى صفحة واحدة ، كانت شاهداً على أنى تنقلت رويداً رويداً من الشروق إلى الغروب .

واسمح لى مرة ثانية أن أصرح بأن حقدك على أخيك حقد قديم فأنت ياظالم تريد أن تضيفنى إلى طائفة الكهول ، مع أنى فى نفسى وبشهادة ليلاى الغالية شاب رائع الشباب . . .

أكتب هذا وأنا أعرف أنك ستبتسم ، لأن دسيستك جازت على قراء «الدنيا» ، وهى مجلة محبوبة لدىّ ، لأنى اشتركت فى تحريرها مرات ، ولأنها كانت أنيسى فى طريقى إلى البصرة ، وطن العلم والأدب والخيال .

إن الحقد له حدود ، ياطاهر ، وكان الظن بذوقك أن تخفى عن قرائك صورتى يوم كنت طالباً بالأزهر الشريف ، فهى صورة تشهد بأنى كنت من أمراء الشباب ، ولكن التعقيب بصورتى مسدّرا

فى بغـداد أزعجنى ، لأنى رأيت أننى أصبحت شبيها بالمفـكر العظيم السيد جمال الدين الأفغانى .

ولو شئت لقلت إن من الشرف أن تكون صورتى شبيهة بصورة جمال الدين ، فأنا أصنع مثل الذى كان يصنع ، أنا أحاول التقريب بين الأمم العربية والإسلامية ، ولـكنى مع ذلك أتوجع لجنايتى على شبابى ، وأشارك الشاعر الذى يقول :

ليت الحوادث باعتنى الذى أخذت
منى بحلمى الذى أعطت وتجريبى

أخى طاهر :

كنت سمعت أنك نشأت فى دمياط ، فإن كان هذا صحيحا فخبرنى كيف خانك الذوق ؟

ألم أعاتبـك مرتين على ما كتبت فى مجلة « الهلال » يوم قلت إنى أجمع بين نشاط الشبان وحكمة الشيوخ . .

خذ ماعندى من الحـكمة . وأعطنى ماضاع من شبابى

أخى طاهر . . ولو شئت لقلت إنك غريمى

اسمع ياأخى وياغريمى :

لقد تركت دنيا شبابك بلا ورق وبلا أغصان ، وان تدخل مكانا إلا وقد ، وطئته قدماى وباريس التى تتشوف إليها لن تجد فيها مكانا

لم يضج أديمه وأنا أدوسه بعنفوانى فانتقم منى كيف شئت ، فقد سبقتك إلى دنيا الحب والمجد بعزائم الرجال

وإن طاب لك أن تصر على الاختيال بشبابك فسأصارعك فى ميدان الجزيرة يوم أعود ، لتعرف أينا الشاب وأينا الكهل، ولكن متى أعود ؟ حدثنى متى أعود؟ فقد طال شوقى اليك وإلى الإخوان الذين أتحدّاهم بقوّتى وعنفوانى فى دار الهلال

أحيتني بغداد

صـــديق :

تحيتي اليك وإلى السامرين السعداء فى ملاعب القاهرة ، وإلى الأصدقاء الكرام الذين رفعوا قدرى بمزاحهم اللطيف فى مجلات «الشباب والدنيا والإثنين وآخر ساعة والصباح» وتحيتى إلى مصر التى أمنحها البغض فتمنحنى الحب

وطنى لو شغلت بالخلد عنه   نازعتنى اليه فى الخلد نفسى

أما بعـــد فأنا أكتب هذه الكلمة والدمع فى عينى ، ولكن أى دمع ؟ دمع السعداء ، والسعداء يبكون كما يبكى الأشقياء .

أبكى من الفرح لأنى أخرجت كتابا فى جزأين سيجعلنى أبد الدهر على ألسنة أهل العراق

أبكى من الفرح لأن الله رعانى فكنت بفضل رعايته عنـــد جميل الظنون ، ومن الشرف الهائل أن يعرف قومى أنى ظفرت بثقة الأكرمين من أهل العراق

كان رؤسائى بوزارة المعارف المصرية يعرفون مذاهبى فى الأدب والبيان ، وكانوا يخشون أن أخلق لمصر أعداء فى العراق ، وقد نصحنى الدكتور طه حسين بصدق وإخلاص ، والدكتور طه -على حد تعبيره الجميل- أستاذى وزميلى وصديقى ، ونصحنى العشماوى بك ،

الرجل النبيل الذى يجعلنى كرما ولطفا فى منزلة ابنه رجاء ، نصحنى هذان الرجلان بالعقل ، ونهيانى عن مصاولة الأدباء فى العراق .

فهل ترانى انتصحت ؟

لقد لزمت العقل أسبوعا واحدا ، ثم أسلمت زمامى إلى الجنون

وكيف لا يكون مجنونا من ينفق من الحبر أضعاف ماينفق من الماء القراح ؟

كيف لا يكون مجنونا من يحوّل تلاميذه إلى مؤلفين سينتهبون منه الميدان ؟

كيف لا يكون مجنونا من يثير الناس عليه فلا يصبح ولا يمسى إلا وهو فى حرب مع الجرائد والمجلات ؟

ولكن الأعمال ياصديقى بالخواتيم ، وليت أعمالى فيما بقى من دنياى تختم بمثل الذى ختمت به أعمالى فى العراق

لقد صاولت من صاولت ، وعاديت من عاديت ، ثم رجعت ورجعوا إلى كوثر الصفاء ، وأى حظ أشرف وأفضل من أن يصرح أحد كبار الرجال بوزارة المعارف العراقية بأنه قرأ كتاب عبقرية الشريف الرضى فى ليلة واحدة على مافيه من الأبحاث الطوال ، وعلى كثرة مايعترض القارئ من غرائب الرموز ودقائق المعانى ؟

إن الحب بين القارئ والمؤلف أمنية عزيزة فى الأدب العربى ، وقد أعاننى الله فأبدعتها إبداعا ، وإن طالت حياتى فسأفتن شبان

العرب بأن أدبهم خليق بأن يشغلهم بأنفسهم وأهوائهم وأخلاقهم ومطامحهم ، وأن أساتذتهم ليسوا أقل بصرًا بالأدب والحياة من أساتذة السوربون

لقد كوتنى بغداد ، ثم شفتنى بغداد

كوتنى هذه المدينة لأنى عشت فيها محبوسا لاأدرى أين أذهب ، وقد تلطف الله فجعل للسيئات رقيبا واحدا ، وأساءت بغداد فجعلت للسيئات ألف رقيب ، وكذلك عشت فيها أسير الهواجس والوساوس فلم أنعم بغير الطيف ، طيف الحب العذرى بين ليلى وظمياء

وشفتنى بغداد ، لأنى أنست بسواد الليل حين فاتنى الأنس بسواد العيون ، فشرفت نفسى بمراسلة الصحف فى مصر والعراق ولبنان ، وخرجت من ذلك كله بمحصول أدبى سيملأ خمسة مجلات ، وسيكون تذكرة باقية لفضل العراق

قدمت بغداد وقد حقت علىّ لعنة المازنى فهجرت الشعر إلى الأبد ، وسأفارق بغداد وفى صدرى قصيدة هى أعظم مانظمت فى حياتى .

قدمت بغداد فى أسمال الأشقياء ، وسأفارق بغداد وعلى رأسى تاج البيان .

ليت قومى يعلمون .

ليت قومى يعلمون أن كرم العراق فوق الأوهام والظنون .

ليت قومى يعلمون لأى الأسباب تظفر مصر بثقة العراق ؟

الأسباب واضحة جدا ، ولكن أين من يعرف ؟

إن المصريين يفدون إلى العراق وليس فى صدورهم ثروة غير الحب ، ومن أجل هذا يحبهم العراقيون ، فإن سمعتم أن مصريا شقى فى العراق فاعلموا أنه مصرى مزيف ، ومصر يكثر فى أهلها التزييف ، مع الأسف الموجع ، لأنها مجمع البحرين .

لقد صاولت العراقيين بلا تلطف ولا ترفق ، وآذيتهم فى بعض أحوالى أبشع إيذاء ، وظلوا مع ذلك إخوانا كراما ، فكيف كنت وكيف كانوا ؟

غزوتهم وأنا مخاص فرعونى وهم مخلصون .

استطلت عليهم باسم العلم الذى أدّعيه فصبروا باسم العلم الذى يحسنون .

من أنتم يا أهل العراق ؟ أتكونون من الملائكة ؟ أتكونون من الشياطين ؟

من أنتم ؟ حدثونى من أنتم فقد خبلتمونى ؟

إن عاصميكم لاتساوى حيا واحداً من أحياء القاهرة ، فما هو السحر الذى صرعتم به قلبى ؟

لقد سحرتم أبا العلاء المعرى وهو ضرير فظل طول عمره يتحدث

عن فضائلكم وشمائلكم ، فكيف أكون ولى بصر حادّ أنعم الله به وتفضل ؟ كيف أكون وأنا أشهد شقاءكم فى الصباح ونعيمكم فى المساء ؟

كيف أكون وأنا أشهد شوارعكم تموج فى النهار بالعاملين ، وتموج فى الليل بالعاشقين ؟

عشت بينكم محروما يا أهل بغداد ، وسأفارقكم وأنا محروم ، فاذكرونى بالشعر يوم أموت ، وما أريد شعر القوافى وإنما أريد شعر الأرواح .

صديقى :

هل سمعت بالمستحيل ؟

عشت فى باريس ما عشت ، وكنت أصدق مصرىّ عشق باريس ولكنى كنت أعدّ أعوامى فى باريس . فكنت حين يقترب رجوعى إلى مصر أجرب السفر فى كل مساء إلى محطة ليون ، فكيف ترانى فى بغداد ؟

أنا اليوم أتوجع كلما تذكرت أنى سأفارق بغداد بعد أسابيع .

أنا أضطرب وألتاع كلما تذكرت أنى سأفارق القيظ والغبار فى بغداد .

أنا أشرق بدموعى كلما خطر بالبال أنى سأرحل عن بغداد .

فهل ترانى ياصديقى عشت عيش المنعمين فى بغداد ؟

لم أر فى بغداد غير ظلام الليل .

لم أر فى بغداد غير سواد المداد وبياض القرطاس .

لم أعرف كيف تصطرع الأهواء فى بغداد ، فما عصيت فيها ربى ، وذلك أعظم الذنوب ، فلولا المعصية لما ظفر الناس بأعظم نعمة من نعم الله وهى الغفران .

رباه ! عاقبنى بما شئت ، فقد كفرت بالعيون السود ، فى وطن العيون السود .

رباه ! اغفر ذنوبى ، فقد وقعت فى أعظم ذنب وهو الحرمان .

رباه ! أنت تعلم أنى لا أدارى المنافقين ، فنجنى من شر المنافقين .

رباه ! أنا أحب العراق ، فاجعلنى طول حياتى من المجاهدين فى سبيل العراق ، واحشرنى يوم الحساب مع أهل العراق .

رباه ! إن العراقيين رعونى وأكرمونى فاجعلهم فى الدنيا والآخرة من السعداء .

فاجعة بغداد

ما أعجب ما تصنع المقادير !

وهل كان يخطر ببال أحد أن أكتب آخر مقال فى بغداد وأنا محزون ؟ .

من كان يظن ذلك ؟ لقد قضيت عامى كله فرحا مسرورا ، أتنقل فى أرجاء العراق من مدينة إلى مدينة ، فوق أمواج الجذل والابتهاج وألقى من عطف العراقيين ولطفهم ما يشرح الصدر ويؤنس الروح .

فكيف جاز أن تكون آخر أيامى فى بغداد أيام أحزان ؟

تلك ضريبة نؤديها راضين أو كارهين ، فكذلك كانت الدنيا وكان الوجود .

* * *

فى ضحى اليوم العشرين من شهر حزيران ذهبت إلى دار المعلمين العالية لمراجعة بعض الشؤون ، فلقينى الدكتور عقراوى مذعوراً وهو يقول : وقع اعتداء على الدكتور عزمى ، فانزعجت وأسرعت لنجدته ، وكان الظن أن يكون الاعتداء نوعا من التلاحى والسباب ولكنى ما كدت أجتاز باب كلية الحقوق حتى أفزعتنى مناظر الدماء .

ودخلت إلى مكتب نائب العميد فرأيت الدكتور عزمى بخير ، ووجدته أصفر اللون ممزق الثياب ، وهو يرتجف ، فقلت : سلامتك يادكتور، ماذا تجد وما الذى حدث ؟

فأشار إشارة خفيفة فالتفت فإذا رجل ممدد فوق بساط المكتب وهو مضرج بالدماء ، رجل أخفى الدم معالم وجهه وكاد ينقله إلى حظيرة الأموات ، ولكن صوته وهو يتأوه ويتوجع دلنى على شخصيته فعرفت أنه الصديق الكريم الدكتور حسن سيف .

ما أنت يادنيـــا ؟ أرؤيا نائم ؟
أم ليل عرس ؟ أم بساط سلاف
نعماؤك الريحان ، إلا أنه
مست حواشـــيه نقيع زعاف !

ذلك الدكتور سيف الذى قضى أيامه فى بغداد وهو يعتب ويتلوم ، لأنى أنقطع عن زيارته ، وأعق واجب الاخاء فى السؤال عنه ، ولا أراه إلا مصادفة فى الطريق .

وكان الدكتور سيف هو وحده الذى يعتب ويتلوم من بين سائر الزملاء ، فهل كان يشعر بأن الأقدار ستفرق بيننا بعد قليل ؟

كان الدكتور سيف أخاً كريماً ، فعند الله أحتسب فجيعتى فى ذلك الأخ الكريم .

كنت أرتاب فى أكثر المودّات وأثق بمودّة ذلك الصديق .

وما هى جريمته حتى يقتل وهو غريب ؟

آه ، ثم آه ، لقد تذكرت

تذكرت أن الله ابتلاه بحرفة التدريس كما ابتلانى .

والتدريس حرفة صعبة قاسية لا يعرف أخطارها إلا الأقلون .

ولم تكن كذلك إلا منذ اليوم الذى وضعت فيه للتدريس قواعد وأصول ، وأصبح من المفروض أن يمتحن الأستاذ تلاميذه ليحكم لهم أو عليهم ، والتلاميذ كما عرفتهم فى مصر وفى العراق لا يرضون أبداً عن أساتذتهم ، فإن نجح طالب فنجاحه لم يقع إلا بفضل المحاباة ، وإن رسب فرسوبه لم يقع إلا بسبب المعاداة ، والأستاذ فى جميع أحواله مظلوم ، لأن التلاميذ فى أغلب أحوالهم صغار ، لا يرون الحق والباطل إلا فى ضوء المنافع الشخصية .

والرصاصة التى تلقاها الدكتور سيف فى دماغه أقل خطراً من كلمة السوء التى يتلقاها غيره من الأساتذة ، فكم فى الدنيا من أساتذة وصموا بأقبح الوصمات لأن لهم تلاميذ ساقطين يذيعون عنهم الإفك والبهتان !

* * *

وجاء الإسعاف فنقل الدكتور سيف إلى المستشفى الملكى

وبقيت مع الدكتور عزمى أواسيه ، فأخبرنى أنه تلقى رصاصة فى كتفه ، وأنه يخشى العواقب : لأنه مريض بالبول السكرى ،

فقدمت له سيجارة فرفض ، فقلت : هى تلهية تنسى بها قليلا همومك فلم يستطع أخذها بيديه ، ومدّ فمه للسيجارة فعرفت أن الرجل يتكلف فى ترضيتى ما لا يطيق .

وبعد لحظات أخذته فى عربة إلى المستشفى الملكى وأدخلته إلى حجرة الإسعافات ، ولكنه ما كاد يجلس حتى غلبه البكاء .

* * *

كنت أصدق كل شىء ، ولكنى كنت أنكر أن يبكى الأستاذ محمود عزمى من الجزع .

هذا رجل له خصوم وله أنصار ، وقد أسرف فى الحب وفى البغض ، فما الذى مرّ بخاطره فى تلك اللحظة حتى غلبه الدمع ؟

لعله تذكر أطياف ما لقى من الشقاء فى دنياه ، فهذا الرجل لم يعرف معنى الهدوء منذ ثلاثين عاما ، وهو قد انتقل من ميدان إلى ميادين ، وظل يكافح ويناضل حتى عرف أخيرًا أن فى الدنيا شيئا اسمه الرصاص !

ما أذكر أبدًا أنى أحببت الأستاذ محمود عزمى ، فقد اصطدمت به فى القاهرة فى أعقاب الثورة المصرية ، واصطدمت به فى باريس واصطدمت به فى بغداد ، ولكنى لم أخل يوما من العطف عليه ، فهو رجل مكافح يستحق الإعجاب .

ونكبته فى بغداد توجب الأسف ، لأنها أثر من آثار الحيوية

الذاتية التى امتاز بها هذا الرجل الجوال .

* * *

وجاء الطبيب الشرعى فشخص جرح الدكتور عزمى ، وبدا لى أن التشخيص خطأ ، ولكنى لم أعترض .

وبعد لحظات حملته نقالة إلى حجرة الاستراحة ، وكان يستطيع أن يمشى على قدميه ، ولكن غلبه الإعياء .

ونظرت فرأيت معالى وزير المعارف الأستاذ محمد رضا الشبيبى ، ومدير المعارف العام الأستاذ طه الراوى ، ومدير التربية والتدريس الدكتور فاضل الجمالى والمفتش العام الأستاذ يوسف عز الدين، فجلسنا جميعا ننتظر رأى الأطباء فى مصير الدكتور سيف .

ولم يكن بدّ من أن نتحدث ، فاقترحت على معالى وزير المعارف أن يغير مواعيد الامتحان ، وأن يجعلها فى الشتاء لا فى الصيف ، وقلت إنى اقترحت ذلك على وزير المعارف المصرية منذ سنتين ، والحر فى مصر يقتل أعصاب الشبان ، فكيف ترونه يصنع بشبان العراق ؟ إن الحر فى مصر يحمل الطلبة على قتل أنفسهم عند الرسوب فى الامتحان ، وهو فى العراق يحمل الطلبة على قتل أساتذتهم وقتل أنفسهم كما وقع للطالب الذى قتل نفسه بعد أن ضرب أستاذين .

وعندئذ قال الدكتور الجمالى إنه يدعو إلى هذا الرأى منذ سنتين .

وجاء كبير الأطباء فأخبرنا أن الدكتور سيف قد لا يعيش .

وانصرفنا منزعجين ، وحملني الأستاذ طه الراوى فى سيارته إلى وزارة المعارف وأخذ يعاتبنى على ذنب جنيته ، وهو أنى اعتذرت عن مواصلة العمل بدار المعلمين العالية فى العام المقبل بدون أخذ رأيه ، ثم قال : لقدقضيت يومين وأنامبلبل الخواطر بسبب فراقك ولم أكن أعلم أن الدنيا ستفجعنى بما هو أشد من فراقك .

وأخذ يبكى بكاء أليما

وشرعت أواسى الأستاذ طه الراوى كما واسيت الأستاذ محمود عزمى

فمن أنا فى دنياى ؟ ! وماذا عندى من العافية حتى أواسى المجروحين والمحزونين ؟ وهل رأى الناس قبلى إنسانا يحترف الطب وهو عليل ؟

ثم ذهبت إلى المستشفى الملكى لأعود الدكتور عزمى فرأيت من المحتم أن يدخل إنسان عليه ، فرجعت إلى منزلى وأنا مفطور القلب محزون .

ماتغديت ولا تعشيت فى ذلك اليوم ، وطرق بابى طارق ومعه خطاب ينتظر جوابا ، فقرأت الخطاب مرة ومرتين ومرات ، ولم أفهم غرض الكاتب ، وكذلك فهمت أن التجلد لم يمنع من أن يهد الحزن بنيانى .

أما بعد : فقد تكون لهذه الفاجعة عقابيل .

ولكن من واجبي نحو وطني أن أعلن جهرة أن هذه الفاجعة لا يجب أن تفسد ما بين مصر والعراق من الصلات الثقافية

فالطالب الجانى كان مريضا ، وقد ضعفت أعصابه تحت تأثير المرض والقيظ ، فجنى ما جنى وهو غير مسئول ، ثم قتل نفسه بعد ذلك .

أشهد صادقا أن مصر لها فى قلوب أهل العراق أجمل مكان

وأشهد صادقا أنى لم أر من أهل العراق غير الجميل

وأشهد صادقا أن حكومة العراق وجمهور أهل بغداد عزونا فى هذه الفاجعة أجمل عزاء

وأشهد صادقا أن العراقيين إخوان أعزاء لا يضمرون لنا غير الحب والعطف والوداد

ودموع الأستاذ طه الراوى ، وجزع معالى الأستاذ الشبيبي وحزن فخامة السيد جميل المدفعى رئيس الوزراء ، هى الشاهد على صدق ما أقول

إن أهل العراق يعيشون منذ أجيال فى مآتم وأحزان

فما الذى يمنع من أن تمتزج دموعنا بدموعهم ؟

لنا فى العراق شهيد ؟ وهو كذلك ، فنحن والعراقيون إخوان

ما لقينى إنسان بعد هذه الفاجعة فى بغداد إلا قال :

« ما عسى أن يقول فينا المصريون ؟ »

فكنت أجيب : لن يقول المصريون فيكم شيئا يا أهل العراق ، فتلك أقدار قضت بما قضت ، ولا يثور على الأقدار إلا غافل أو مخبول

أيها العراقيون

إن همومكم من همومنا ، وأحزانكم من أحزاننا ، وقد شاء الله أن يجمع بيننا وبينكم رباط من الحزن والدمع ، وهو رباط وثيق ، وقد تفردت مصر بأن يكون لها فى أرضكم شهيد ، فارعوا هذا العهد فهو أصدق العهود

أيها العراقيون .

ثقوا تمام الثقة بأننا نحبكم ، ونعطف عليكم ، ونتمنى لكم الخير والعافية

ثقوا بأن مصر لا يؤذيها أن يموت فى عاصمتكم أحد أبنائها الأوفياء

ثقوا بأن مصر يسرها ويرضيها أن يقال إنها اتصلت بكم بسبب من الدماء .

أيها العراقيون :

هل تذكرون قول شاعركم المتنبي

فان يكن الفعل الذى ساء واحداً   فأفعاله اللائى سررن ألوف

إن ذكرتم هذا البيت فنحن نذكر أنكم إن كنتم أسأتم إلى واحد فقد أحسنتم إلى ألوف ، وما أسأتم إلى أحد منا ، وإنما أساء شاب مسكين بكينا عليه حين رأينا أهله يصرخون ويولولون

إن من الجريمة أن تنسب هذه الجريمة إلى أهل العراق

هى جريمة فردية يسأل عنها جانيها المسكين الذى قتل نفسه بلا ترفق.

هى سحابة صيف سيعقبها الصحو والصفاء

أيها العراقيون

لقد ساءنى أن تنزعج صحافتكم وأنديتكم على سمعتكم القومية ،

فاسمحوا لى بأن أعتذر عنكم وأن أصرح بأن لله حكمة فى مستور الغيوب .

وقانا الله وإياكم شر الفتن وهدانا جميعا إلى سواء السبيل

مكانة مصر في العراق

كانت حادثة كلية الحقوق فى بغداد مثاراً لكثير من الأقاويل والأراجيف حول التعاون العلمى بين مصر والعراق ، وقد ظن فريق من الناس أن تلك الحادثة تقطع ما بيننا وبين ذلك القطر الشقيق من متين الصلات . ومن أجل ذلك أصبح من الواجب على من عرف عواطف العراقيين نحو إخوانهم المصريين أن يشرح جانبا من تلك العواطف السامية ، وأن يزيل ما قد يلحق بعض النفوس من كدورة وجفاء

لقد أقمت فى العراق نحو تسعة أشهر ، ورأيت أكثر الحواضر العراقية ، وطوفت بكثير من أرجاء الريف العراقى ، وصادقت فى العراق من صادقت ، وخاصمت من خاصمت ، وحييت بينهم حياة لا تكلف فيها ولا تصنع ، كما كنت أحيا فى بلادى ، واشتركت فى كثير من المجادلات والمشاغبات ، فكان لى من ذلك كله فرص ثمينة أعرف بها حقائق العواطف عند أولئك الرجال ، وقد صح عندى بالخبرة واليقين أنهم أصدقاء أوفياء يرعون العهد ويحفظون الجميل

والحادث الأخير محنة ، ولكنها محنة أراد الله أن يختبر بها قلوبنا وقلوبهم ، فالصداقة نوع من الايمان تصقله الحوادث والخطوب

فمن كان جزع من هذا الحادث الأليم فلينتظر قليلا، فقد يكون هذا الحادث امتحانا إلهيا تريد به الأقدار أن ترينا مبلغ ما فى أنفسنا من استعداد لمقاومة المكاره والصعاب

وأقول بصراحة إن الصداقة كالعداوة لها متاعب وتكاليف، ونحن عقدنا أواصر المودة بين مصر والعراق، فليكن من واجبنا ومن واجبهم أن نحرس هذه المودة وأن نقيها مكاره التقول والبغى والإسفاف، وهذا الحادث فرصة نعرف بها كيف نصلح للتعاون وكيف نقدر على احتمال المصاعب، وكيف نفهم الأشياء على وجهها الصحيح بلا تحريف ولا تزييف .

والذى يهمنى فى هذا المقال أن أشير إلى بعض الشواهد التى تبين مكانة مصر فى العراق فأقول :

يدخل الزائر بغداد فيسمع أول مايسمع أغانى مصر، ويقرأ أول مايقرأ أخبار مصر، ويروعه أن يرى المجلات المصرية أهم غذاء عقلى لجماهير الناس هناك . فإذا اتصل بأحد الأندية أو دخل إحدى المدارس رأى الجدل حول أقطاب الأدب فى مصر وسمع المفاضلات والموازنات بين الشعراء والكتاب والمؤلفين، وأحس إحساسا قويا بأن رجال مصر يحلون من قلوب أولئك الرجال أكرم مكان .

وفى أكثر البيوت العراقية نجد صورا مختلفة لحضرة صاحب

الجلالة ملك مصر ، ونجد صوراً للزعماء المصريين من مختلف الأحزاب ، وتشعر بأن مودة العراق لمصر أصيلة لايشوبها تكلف ولا افتعال .

وإذا وقع فى مصر حادث سياسى أو اجتماعى أو أدبى كان اهتمام العراقيين به عظيما جداً ، ولا أبالغ إذا قلت إن المصرى قد يراهم يعرفون من أخبار بلاده أكثر مما يعرف ، وقد يراهم اطلعوا على مالم يطلع عليه من المؤلفات المصرية ، وذلك لايقع من باب المصادفات وإنما هو دليـــل على محبة أكيدة يضمرها لنا أولئك الأصدقاء الأعزاء ، وهل يمكن أن يسود التجاوب الأدبى إلا بين أمم يعطف بعضهم على بعض ويتبادلون أواصر المحبة والإخلاص؟

أرجو القارئ أن يطمئن إلى أنى لا أكتب هـذا الكلام لتهدئة الخواطر بعـد الحادث الذى وقع ، وإنما أريد أن أؤكد حقيقة لاتحتاج إلى تأكيد ، وهى أن مكان مصر فى العراق مكان مرموق وأن لمصر فى العراق ذخيرة من الثقة والمحبة يجب أن نحرص عليها أشد الحرص

وقد يتفق فى بعض الأحيان أن يشعر بعض المصريين فى العراق بشىء من الضجر والاستيحاش ، وهذا يرجع فى الأغلب إلى سبب واحد : هو أن المصرى فى أكثر أحواله يتضجر من الاغتراب ، وقد

وقع لى شىء من هذا فى الأيام الأولى من حياتى فى بغداد ، ثم شاء الله أن أقيم لنفسى صلات من المودّة مع كثير من أهل العراق ، فبدّل الله وحشتى أنسا ، وشاع السرور فى نفسى ، ولم أفارق بغداد إلا وأنا دامع العين ، مفطور الفؤاد

ليت قومى يعلمون كيف يحبهم أهل العراق ؟

ليت قومى يعلمون كيف يفرح أهل العراق لفرحهم ، وكيف يحزنون لحزنهم ؟

ليت قومى يعلمون كيف تسير أنباؤهم فى بغداد والحلة والموصل وكركوك والنجف وكربلاء والبصرة ، وما إلى هؤلاء من حواضر العراق

ليت قومى يعلمون كيف تسود مجلاتهم ومؤلفاتهم وأناشيدهم فى مضارب العشائر ، وكيف تكون أغانيهم راح السامرين على شواطئ دجلة والفرات

إن العراقيين يحبوننا أصدق الحب ، فليعرفوا جيداً أننا نحبهم ونتمنى لهم كل خير ، وننظر إلى بلادهم نظر الأخوة الصادقة التى لا تضمر غير العطف والصدق

وستذكر مصر أن العراق وثق بها ، واطمأن إليها ، وتطلّع إلى أخبارها تطلع الصديق المشغوف ، ستذكر مصر أن العراق رآها

أهلا لحمل الأمانة العلمية فمكنها من غرس أصول الثقافة الحديثة فى رحابِ دجلة والفرات

وسيذكر العراق أن مصر كانت عند ظنه الجميل فلم ير من أبنائها غير الصدق والاخلاص والوفاء؛ ويرحم الله من قال :

اذكرونا مثل ذكرانا لكم رب ذكرى قربت من نزحا

واذكروا صباً إذا غنى بكم شرب الدمع وعاف القدحا

نهضة التعليم في العراق

صديقى

سألتمونى أن أكتب كلمة عن نهضة التعليم فى العراق وعن تأثير مصر فى تلك النهضة وما ينطوى عليه من المعانى

وأجيب بأن التعليم فى العراق يتقدم تقدما سريعا ، والأمة العراقية فى هذه الأيام تتطلع إلى حفظ مكانتها الأدبية والعلمية بين الأمم الحية . وفى وزارة المعارف العراقية رجال أكفاء يصلون النهار بالليل فى درس مناهج التعليم ، والتفكير فى تحقيق المستقبل العلمى والأدبى لتلك البلاد

ومن الواضح أن العراق له ماض مجيد فى الميادين العلمية والأدبية وهو يجاهد جهاد الأبطال ليكون فى حاضره مايذكّر بماضيه ، وهو اليوم يرسل البعثات العلمية إلى مصر وإلى غير مصر ليعدّ فريقا من أبنائه للأستاذية الصحيحة التى تعرف مطالب العصر الحديث

ولن تمضى أعوام حتى نسمع بأن بغداد استردت مجدها العلمى والأدبى فى عصر بنى العباس ، وليس ذلك بعزيز على الأشبال فى دجلة والفرات

وقد ظهرت بواكير ذلك الأمل المنشود ، ففى العراق لهذه الأيام معاهد كثيرة ابتدائية وثانوية وعالية ، وسنسمع قريبا أن

حكومة العراق قررت إنشاء (الجامعة العراقية) وهو حلم جميل دعوت إليه مرات ومرات ، وسيحقق بإذن الله فما يمكن أن تعيش بغداد بلا جامعة وهي التي أذاعت علوم المعقول والمنقول في المشرقين ، وإليها يرجع أكثر الفضل في نشر علوم اللغة والدين

ولو شهدتم شواهد التشجيع للمعلمين والمتعلمين في العراق لرأيتم المعجب والمطرب : ففي أكثر الحفلات المدرسية يحضر الوزراء والنواب والأعيان ، وقد يتفق في أحيان كثيرة أن يتفضل حضرة صاحب الجلالة الملك غازي الأول بحضور بعض الحفلات تشجيعاً للحياة العلمية والأدبية .

أما نصيب مصر في نهضة التعليم بالعراق فهو يشرفها كل التشريف وأهل العراق يذكرون مصر بالخير ويثنون على جهود أبنائها في بلادهم أطيب الثناء

ولا بد في هذا المقام من النص على بعض الأسماء التي نهضت بالتعليم في العراق ، وأول هذه الأسماء هو الأستاذ محمد عبد العزيز وهو رجل لم أسمع اسمه إلا من أفواه الأساتذة بالعراق ، هو رجل يجهله المصريون ويعرفه العراقيون وقد حدثني الدكتور فاضل الجمالي بأن هذا الرجل سيسجل اسمه حتما في اليوم الذي يوضع فيه تاريخ لنهضة التعليم الحديث بالعراق

ولا يمكن نسيان الأستاذ عبد الرازق السنهوري فقد كان له

فضل كبير فى تنظيم كلية الحقوق

وللأستاذ الزيات والدكتور عزام سيرة عطرة عن ألسنة الرجال هناك

وحيثما توجهت رأيت آثار الأساتذة المصريين فى تلك البلاد وفيهم جنود مجهولون لايعرفون غير الواجب ، وهم جمهور من المدرسين فى المتوسطات والثانويات

وتأثير مصر فى العراق لايقتصر على التدريس فهناك ألوف من العراقيين يتصلون بمصر اتصالا علميا عن طريق التأليف ، فالمؤلفون المصريون لهم تلاميذ أوفياء بالعراق ، ولايصدر فى مصر كتاب جيد إلا كان أهل العراق أول من يطلعون عليه ، وهم يتابعون الثقافة المصرية بشغف وشوق . ولهم موازين يعرفون بها أقدار النوابغ من الشعراء والكتاب والمؤلفين

وكذلك الحال فى الصحافة المصرية فهم يطلعون على مايصدر فى مصر من جرائد ومجلات ، وكلما كانت المجلة قوية كان اتصالهم بها أشد ، والمجلات الجدية تقدّم عندهم على المجلات الهزلية ، بخلاف ماقد يقع عندنا فى بعض الأحيان

وقد درست هذه المسألة وأنا فى بغداد وأخذت إحصائيات عن توزيع المؤلفات والمجلات ، فصح عندى بعد التحقيق أن أهل العراق يؤثرون المطبوعات التى يغلب عليها التعمق ، وليس معنى هذا أنهم ينفرون من الفكاهات ولكن معناه أنهم لايقبلون على

الأدب الخفيف إلا بعد التزود من الأدب الرزين

فإن سألتم عن مصير التعاون العلمى بين مصر والعراق فإنى أجيب بأنه سيزداد من يوم إلى يوم ، ولكن ذلك الازدياد يتوقف على فهم مصر لقيمة الأمانة العلمية ، وهذه الأمانة توجب التواضع ونسيان الذات ، هذه الأمانة توجب أن يفهم المصرى أنه ليس غريبا فى العراق ، فأهل تلك البلاد يؤذيهم ان نشعر فى بلادهم بالغربة ، لأنهم فى الواقع أهل وأحباب

وقد اتفق لى أن كتبت رسالة وجدانية بعنوان (القلب الغريب فى ليلة عيد) فعاتبونى عليها مرات كثيرة وساءهم أن أقول إنى فى بلدهم غريب

والعراق يثق بمصر ثقة عظيمة ، ولهذه الثقة أثمان يجب أن يؤديها المصريون . والمصرى لايحتاج إلى مجهود كبير ليظفر بمحبة أهل العراق فيكفى أن يكون رجلا أميناً يعرف الواجب ولا يتدخل فيما لا يعنيه من شؤون تلك البلاد

وأعتقد أن الاتصال بالعراق ينفع أجزل النفع ، فهو يقوّى روح العروبة ويغرس معنى التضحية ويصل الرجل بأصول الشهامة والنبل

ولو كان بيدى شىء من الأمر لفرضت أن لا يعين فى مصر وزير للخارجية إلا بعد أن يثبت أنه رجل زار الأقطار العربية وعرف

ما يجب أن يقوم بيننا وبين تلك الأقطار من صروح المحبة والوداد

ومستقبل مصر بين الأمم العربية مرهون بفهم هـذه الحقائق ، وظفر مصر بمحبة الأمم العربيـة هو فى ذاته مغنم عظيم لا يزهد فيه إلا غافل أو جهول

وسبحان من لو شاء لهدانا جميعا إلى سواء السبيل

مصر والبلاد العربية

خطبة المؤلف فى حفلة تكريمه بالقاهرة

أيها السادة

أشكر لأدبكم وكرمكم التفضل بالحضور للتسليم على صديق كان اغترب مدة فى سبيل خدمة العلم بالعراق

وأعتذر عن كلمة « اغترب » وأقترح حذفها من المعجمات ، فهى كلمة تفردت بها اللغة العربية ولا يكاد يوجد لها نظير فى اللغات الأجنبية ، وعن لغة العرب نقلت إلى الفارسية والتركية ، وهى كلمة حزينة يتمثل سوادها فى كلام من يقول :

وكل محب قد سلا غير أننى غريب الهوى يا ويح كل غريب

وفى كلام من يقول :

أنا فى الغربة أبكى ما بكت عين غريب

لم أكن يوم خروجى من بلادى بمصيب

عجباً لى ولتركى وطناً فيـــه حبيبى

ولى مع هذه الكلمة الحزينة تاريخ ، فقد سببت أول معركة أدبية شهدتهـا فى العراق . ذلك بأنى كنت نشرت مقالا فى مجلة الرسالة عنوانه : « القلب الغريب فى ليلة عيد »

فعز على أدباء العراق أن أقول إنى فى بلدهم غريب ، ودار الجدل

أشهراً حول ذلك المقال فى الجرائد والمجلات

والحنين إلى الوطن مرض لا يصيب غير الضعاف فى عالم الإنسان والحيوان ، فأرجو أن يكون فينا من القوة ما يعصمنا من هـــذا المرض العضال

أنا ما كنت غريبا فى العراق ، وإنمـا كنت بين أهلى وقومى ، وإذا صح للمصرى أن يشعر بالغربة وهو فى وطن عربى مثل العراق ، فماذا ترونه يصنع لو هاجر إلى بلد فى استراليا أو فى إحدى الأمريكتين ؟!

لقد آن للمصرى أن يبرئ نفسه من ذلك المرض الذى يقضى بأن يتوجع حين تنقله الحكومة من القاهرة إلى حلوان ، آن للمصرى أن يفهم أن فى دمه روحا عربيا يسوقه إلى الانتقال من أرض إلى أرض فى سبيل المنافع العلمية والأدبية . آن للمصرى أن يفهم أن رجولته لا تكتمل إلا إذا واجه المصاعب واستطاع أن يخلق لنفسه ولوطنه أصدقاء فى مختلف البلاد

وما أقول إنى كنت أقوى من سائر الزملاء الذين تشرفوا بخدمة العلم فى العراق . وإنمـا أقول إنى رضت نفسى على التخلق بأخلاق أسلافنا من العرب فرأيت الأرض كلها وطنا أصيلا ، ولم تجر كلمة الغربة على لسانى إلا تأثراً بالميراث الحزين الذى قضى بأن تتفرد لغتنا بكلمة «غريب» من بين سائر اللغات

ولمـا زار سعادة العشماوى بك مدينة بغداد دعا الأساتذة المصريين

لسماع ماقد يكون عندهم من مقترحات أو شكايات ، فمضيت أبحث عمن أعرف منهم لأصدهم عن حضور ذلك الاجتماع ، فقد كنت أحب أن لايكون بيننا وبين حكومة العراق وسيط ، ولو كان ذلك الوسيط هو العشماوى بك الذى أحب العراق وأحبه العراق.

إن صداقتنا للعراق لاتزال فى أول عهد من عهود التكوين ، وهى لاتزال فى حاجة شديدة إلى من يحرسها ويرعاها ، وهى تستحق الحراسة والرعاية ، لأنها رباط بين أمتين كانت بينهما صلات ودية من أقدم عهود التاريخ.

ولا يعرف قيمة هذه الصداقة إلا من زار العراق ، فأهل العراق بمودّتهم المتينة يبعثون فينا شعور الثقة بالنفس ، ويفرضون علينا أن نؤمن بأن جهادنا فى سبيل العلم والمدنية لن يضيع

أهل العراق منا ونحن منهم ، ولو نطقت الأحجار لحدثتكم أن علماء العراق اتصلوا بمصر ونقلوا إليها علومهم ومعارفهم يوم أراد التتار أن يقوّضوا حضارة بغداد ، ولعل هذا هو السبب فى أن مخارج الحروف لاتتفق بين أمتين عربيتين كما تتفق بين مصر والعراق

أهل العراق منا ونحن منهم ، فالمؤلفات القديمة فى معاهد مصر هى فى الأغلب عراقية ، والمؤلفات الحديثة فى معاهد العراق هى فى الأكثر مصرية

فأرجوكم بالله أن تكونوا جميعاً أنصاراً للأخوة التى تربط بين مصر والعراق

وقد عجب بعض الناس حين رأونى أتصدى لدفع الأذى عن سمعة العراق ، فاعرفوا إن شئتم أنى أدفع عن مصر ديناً ثقيلا ، فأهل العراق فى أنديتهم وجرائدهم ومجلاتهم ومدارسهم يدفعون عن مصر قالة السوء ويخاصمون فى سبيلها كثيراً من الناس ، ولو عرفتم من ذلك بعض ماعرفت لرأيتم أن من القليل أن ينهض كاتب أو كاتبان للإشادة بفضائل أهل العراق

إن القاهرة تقوم فى العصر الحديث بالواجب الذى كانت تقوم به بغداد فى عصر بنى العباس : فمن واجب القاهرة أن تحمل من التكاليف ماحملت بغداد ، بل من واجب القاهرة أن ترحب بمطلع اليوم السعيد الذى يقضى بأن يكون لها فى الشرق منافس قوى هو بغداد ؛ فتفرد القاهرة بالزعامة الأدبية قد يضر أكثر مما ينفع ، لأن التفرد بالتفوق قد يخلق عيوبا أيسرها الزهو والخيلاء والاطمئنان إلى أن ليس فى الامكان أبدع مما كان !

وقد بدأت هذه العيوب تظهر مع الأسف ، فأهل مصر شغلتهم ثقافتهم التى اتسعت وتشعبت عن التطلع إلى مايبدع أهل الأدب فى العراق وسورية ولبنان وفلسطين والحجاز واليمن والجزائر وتونس ومراكش ، وما إلى هؤلاء من البلاد العربية . والانصراف

أهل مصر عن الأدب فى تلك البلاد يحجبهم عن تطور الحياة فى أقطار حية سيكون لها بإذن الله مكان بين الأقطار التى تسود العالم فى المستقبل القريب .

ومن الواجب فى مقامى هذا أن أوجه أنظاركم إلى حقيقة لا يختلف فى صحتها اثنان ، تلك الحقيقة هى أن مصر تنفرد بالسيادة العقلية فى البلاد العربية : فمؤلفات مصر ومجلات مصر ليس لها مزاحم يخشى خطره فى تلك البلاد ، وشعراؤنا وكتابنا هم الذين يقدمون الغذاء الأدبى لجمهور المتعلمين فى الأقطار العربية ، وبفضل إقبال أولئك الاخوان على مؤلفات مصر ومجلات مصر استطاعت اللغة العربية أن تقف على قدميها بجانب اللغة الفرنسية واللغة الانجليزية . فاللغة العربية هى اليوم لغة حية حقا وصدقا ، وهى تكافح وتناضل لتسيطر وتسود ، وما كان من الغريب أن تسيطر اللغة العربية فى أقطار كتب الله أن تستعرب منذ أجيال ، ولكن فساد الزمن وتوالى الأحداث والخطوب جعل سيادة اللغة العربية فى بلادها من الغرائب ، فلنفهم ذلك ولنواصل الجهاد ، ولنعرف أن من أعظم الشرف أن نكون فى الحياة من المجاهدين ، ولنتذكر دائما أن انتصار اللغة العربية فى أوطانها هو البشير بأن تلك الأوطان تستعد من حيث تشعر أو لا تشعر لحياة جديدة سترون أعلامها بعد حين .

وإخواننا العرب يعجبون من تفرد مصر بالتفوق فى اللغة

العربية ، فإن أذنوا شرحت لهم بعض أسرار ذلك التفوق ، فمصر هى الأمة الوحيدة التى استعربت استعرابا تاما ، وصارت العربية لغتها الرسمية والقومية فى مدة ترجع إلى ثلاثة عشر قرنا ، وهذا حظ لم يظفر بمثله المغرب ولا الشام ولا العراق ، فما انقرضت اللغة البربرية فى المغرب ولا اللغة السريانية فى الشام ولا العبرانية فى فلسطين ولا اللغة الكلدانية فى العراق . وإنا لنرجو أن يكون لمصر يد بيضاء فى رجوع اللغة العربية إلى بلاد فارس بفضل المودة الجديدة التى أنشأتها المصاهرة الملكية بين مصر وإيران ، فمن المؤكد أن قادة الرأى فى تلك البلاد سيراعون عواطفنا مشكورين فلا يستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير كما فعل إخواننا الأتراك سامحهم الله حين استبدلوا الحروف اللاتينية بالحروف العربية

وقد وقع بينى وبين سفير إيران فى العراق عتاب حين رأيته أول مرة فى بغداد ، ولم أكن أعرف أن الله سيخلق بيننا وبينهم صلات جديدة تجعل من الحق علينا أن نذكرهم بماضيهم الجميل فى خدمة لغة القرآن يوم كان منهم كبار النحاة وكبار اللغويين

إن فرنسا لها مدرسة فى طهران لنشر اللغة الفرنسية بين أهل إيران ، فمتى يجىء اليوم الذى تقوم فيه مدرسة عربية فى وطن الجرجانى والتوحيدى وابن العميد ؟

لقد ألفت كتاب النثر الفنى أول مرة باللغة الفرنسية وأنا فى

باريس ، وكان قلبي يفيض بالحزن الدامى كلما تذكرت أن أكثر من تحدثت عنهم فى كتابى كانوا رجالا نشأوا فى بلاد فارس ، وأن لغة العرب فى تلك البلاد صارت غريبة الوجه واليد واللسان

وكذلك كان حالى حين ألفت كتاب التصوف الإسلامى : فقد رأيت أن أطيب أرواح التصوف هبت علينا من الأقطار الفارسية

فيا أصدقاءنا الأعزاء فى إيران تذكروا ، ثم تذكروا ، تذكروا وأنتم مسلمون أبرار أن اللغة العربية هى لغة القرآن ولغة الرسول ، وتذكروا أن الأمم العربية لها فى العالم السياسى والأدبى والاقتصادى موازين ، وأنها خليقة بأن تزيدكم قوة إلى قوة حين تراكم ترحبون باللغة العربية التى كان لها فى بلادكم أبناء وأحفاد وأسباط

أيها السادة

تلكم مكانة مصر بين الأمم العربية والإسلامية ، وذلكم حظها بين الممالك والشعوب ، وهذا التجاوب الأدبى بيننا وبين من نعرف ومن لا نعرف لم يقع من باب المصادفات ، وإنما هو علامة حب صادق يضمره لمصر من عرف فضلها من الرجال

وأخشى والحزن يفعم قلبي أن يكون ماظفرنا به من المجد الأدبى ميراثاً تلقيناه عن أجدادنا النبلاء الذين ملأوا الدنيا بالتأليف والتصنيف وجعلوا مصر تاجا تزدان به هامة اللغة العربية ، أخشى أن لا تكون لنا سياسة مرسومة تفكر دائماً فى حفظ مكانة مصر

بين الأمم العربية ، أخشى أن نجهل نعمة الله علينا فننسى أننا أغنى الأمم العربية بالأموال والرجال ، أخشى أن لا نعرف أن الجهاد فى سبيل اللغة العربية هو مجدٌ أبقى على الزمن من الاهرام ومن قصر الكرنك وقصر أنس الوجود

إن اللغة العربية هى التى ستجعل لنا لسان صدق فى الآخرين ، وهى التى ستسطر محامدنا على جبين الزمان

والذى أدعوكم إليه هو تجارة لا تعرف غير الربح

فإن كنتم فى ريب من ذلك فسيروا فى الأرض وانظروا كيف تُذكر مصر بالحمد والثناء

إنى أفرض زيارة الشرق على رجلين : الأوّل وزير المعارف والثانى وزير الخارجية

أما وزير المعارف فهو اليوم معالى الدكتور محمد حسين هيكل باشا ، وليته كان فى بغداد كما كنت فى بغداد يوم ظهر كتابه عن منزل الوحى . ليته كان هناك ليرى كيف استقبل البغداديون كتابه بموكب لم يعرفه القاهريون . وأما وزير الخارجية فهو اليوم دولة عبد الفتاح يحيى باشا ، وليته يرى كيف يأنس أهل بغداد إلى صوره الكاريكاتورية فى الجرائد والمجلات ، إنه لو رأى ذلك لعرف أن مصر لا تعيش وحدها وإنما تعيش فى أنس بأصدقائها فى الشرق

ولن أنسى اليوم الذى زرت فيه نادى المعارف فى بغداد مع سعادة الأستاذ طه الراوى فقد رأيت مكتب رئيس النادى يزدان بصورتين كريمتين صورة الملك فاروق وصورة الزعيم سعد زغلول

ولما زرت النجف أراد أدباؤه أن يقدموا إلىّ هدية فكانت تلك الهدية هى صورة الرجل الموفق محمد العشماوى بك وكان قد زار النجف واستقبل فيه أكرم استقبال

ولما زرت الموصل رأيت رئيس نادى الجزيرة أحد تلاميذى القدماء فأحسست أنى فى دارى وبين أهلى

فيا أهل مصر متى تعرفون نعمة الله عليكم؟ ومتى تؤدون للأمم العربية واجب الوفاء؟

إن الذى كتب أن تكون عاصمتكم عروس الشرق هو وحده القادر على أن يجعلكم أهلاً لرعاية العهد وحفظ الجميل ؟

زكى مبارك

تم الكتاب بعونه تعالى

فهرس

صفحة

صفحة

صفحة

﴿تم الفهرس﴾

التصوف الإسلامي

في الأدب والأخلاق

قدم هذا الكتاب

إلى الجامعة المصرية ونال به المؤلف

إجازة الدكتوراه في الفلسفة برتبة الشرف

يقع في مجلدين كبيرين وثمنهما معاً

أربعون قرشا

يظهر قريبا

ليلى المريضة فى العراق

تحليل دقيق

لأسرار المجتمع و سرائر القلوب

يظهر قريبا

